

ما التاريخ الآن؟

المشروع القومي للترجمة

1092

تحرير: ديفيد كانادين

ترجمة: قاسم عبده قاسم

ما التاريخ الآن ؟

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٠٩٢
- ما التاريخ الآن ؟
- ديفيد كانادين
- قاسم عبده قاسم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٦

هذه ترجمة كتاب :

What is History Now ?

Edited by : David Cannadine

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084

المشروع القومى للترجمة

ما التاريخ الآن ؟

تحرير : ديڤيد كانادين

ترجمة وتقديم : قاسم عبده قاسم



٢٠٠٦

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

ما التاريخ الآن ؟ / تحرير : ديفيد كانادين ؛
ترجمة وتقديم : قاسم عبده قاسم - ط ١ - القاهرة :
المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٦
٢٦٩ ص ، ٢٤ سم (المشروع القومى للترجمة)
١ - التاريخ
(أ) كانادين ؛ ديفيد (محرر)
(ب) قاسم ، قاسم عبده (مترجم ومقدم)

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٣٠١٨
الترقيم الدولى X - 178 - 437 - 977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقـــديم المترجم

هذ الكتاب يضم عدة أوراق بحثية عن ماهية التاريخ بمناسبة مرور أربعين سنة على صدور كتاب كار ? What is history . وتحاول هذه الأوراق البحثية أن تغطي فروع الدراسات التاريخية كافة . وقبل مناقشة الأفكار التى طرحها المشاركون فى هذا الكتاب ربما يكون مفيداً أن نعرض ، باختصار ، لتطور الفكر التاريخى فى القرن العشرين، وصولاً إلى التأثيرات الهائلة التى شهدتها الدراسات التاريخية فى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، التى كانت من نتائج ثورة الطلبة ، وتأثير الفكر الماركسى، والاتجاه إلى توسيع نطاق دراسات التاريخ الاجتماعى. وإذا كانت الدراسات التى يضمها هذا الكتاب تكشف ، بوضوح ، عن «مركزية» الفكر التاريخى الغربى - على جانبى المحيط الأطلنطى- فإنها تكشف أيضًا عن قدر كبير من تجزئة التخصصات التاريخية بالشكل الذى يهدد فهم الإنسان لتاريخه . فقد كانت رحلة «التاريخ» موازية لرحلة الإنسان فى الكون والزمان؛ وجزء من «تاريخ» الإنسان على الأرض فى حقيقته جزء من «تاريخ » التاريخ ذاته . فمنذ القراءة الأسطورية للتاريخ ، التى كانت ناتجة عن «نقص» المعلومات عن تاريخ الإنسان، مرَّ التاريخ باعتباره فرعًا من فروع المعرفة الإنسانية، وباعتباره علمًا يساعد الإنسان على فهم حركته فى الكون، بتطورات عديدة ومثيرة. وقد أدى التراكم الكمى فى مجال «معرفة» ما جرى فى الماضى من أحداث التاريخ، إلى تقدم نوعى فى مجال «فهم» هذه الأحداث. لقد أدى التطور «المعرفى» إلى تطور «منهجى» . وصار بوسع الإنسان فى العقود الأخيرة أن يتحدث بنوع من التأكيد عن الماضى بشكل لم يكن ممكنًا من قبل. وقد شهد النصف الأول من القرن العشرين ، والستينيات والسبعينيات من هذا القرن، ما يمكن أن نسميه «ثورة التاريخ»؛ وهى ثورة صامتة حقًا ولكن تأثيراتها كانت هائلة . إذ إنها خففت ،

إلى حد كبير، من غلواء المركزية الغربية من ناحية، كما ترددت أصداؤها فى أنحاء أخرى من العالم من ناحية ثانية، ونقلت أساليبها البحثية ومنهجها إلى الباحثين خارج أوربا وأمريكا الشمالية من ناحية ثالثة . لقد كان الفكر التاريخى الغربى ، بطبيعة الحال، نتاجًا للتطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى مر بها الغرب بعد الحربين العالميتين . كما أن ثورة الطلاب والفكر اليسارى تركا أثرًا عميقًا فى الدراسات التاريخية فى أوربا وأمريكا الشمالية. وإذا كان «كار» قد توقف فى أوائل الستينيات ليطرح تساؤله عن ماهية التاريخ فإن ذلك فى تصورى كان نتيجة لما عاصره ورآه من تطورات فى دراسة التاريخ، وتدريسه ، ومدى تأثيره فى المجتمع. وإذا كان عدد من تلاميذه قد وقفوا لطرح السؤال بعد أربعين سنة من صدور كتاب «كار» ، فإن الموقف جاء مخالفًا شديد المخالفة لموقف كار. لقد طرح «كار» سؤاله عن «التاريخ» ؛ ولكن المساهمين فى هذا الكتاب يطرحون أسئلتهم عن «التخصصات الفرعية» داخل التاريخ .

لم يكن كار أستاذًا أكاديميًا اتخذ من التاريخ مهنة له ؛ ولكنه كان مثقفًا ومفكرًا اتخذ من التاريخ دراسة، وطرح تساؤلاته فى محاولة تعريف ماهية التاريخ ، ولكن الذين طرحوا السؤال الذى يحمله هذا الكتاب **What is History Now ?** لم يحاولوا الإجابة على السؤال - مثلما فعل كار قبل حوالى أربعين سنة - ولكنهم طرحوا أسئلة فرعية «حرفية» حول «حرفة» كل منهم: ما التاريخ السياسى الآن ؟ ما التاريخ الدينى الآن ؟ ما التاريخ الثقافى الآن ؟ وهلم جرا.

ويقتضى الإنصاف أن نحاول فحص هذه الأسئلة والإجابات التى حاول المشاركون فى هذا الكتاب طرحها ، قبل أن نطرح بدورنا سؤالاً يقول : ما الذى أضافته هذه الأسئلة والإجابات عن التخصصات الفرعية للتاريخ الآن؟

وربما يكون مناسبًا أن نعرض- بسرعة وإيجاز - لأهم خطوط تطور الفكر التاريخى فى القرن العشرين ، منذ البداية ووصولاً إلى ما طرحه فوكوياما عن «نهاية التاريخ» فى غمار نشوة الرأسمالية بسقوط الاتحاد السوفيتى، وما طرحه صمويل

هنتجتون عن «صدام الحضارات» لتبرير «اختراع» عدو جديد للغرب الأوربى – الأمريكى بدلاً من الاتحاد السوفيتى السابق الذى انهار ليحرم الأمريكيين (أصحاب مصانع السلاح، والاحتكارات الرأسمالية والأطماع البترولية) وحلفاءهم من «العدو» الذى يبرر سياساتهم .

* * *

بداية، لابد من الإشارة إلى أن تطور الفكر التاريخى في عالمنا المعاصر يرتكز على منجزات المؤرخين الأوربيين ومؤرخى أمريكا الشمالية بشكل عام سواءً فى القرن التاسع عشر أو فى القرن العشرين. وعلى الرغم من أن «التاريخ» – بوصفه نظامًا معرفيًا ذا طبيعة خاصة فى علاقته بالإنسان وعلاقة الإنسان به – يمثل رؤية شديدة الخصوصية لدى الجماعات الإنسانية للكون والعلاقات داخل هذا الكون، ودور الجماعة الإنسانية فى التطور البشرى؛ شأنه فى ذلك شأن الفن والفلسفة ، فإن تأثير منجزات المؤرخين الغربيين على الفكر التاريخى المعاصر كان كبيرًا لسببين :

أولهما : أن القرن العشرين شهد إحكام السيطرة الاستعمارية الغربية على مناطق كثيرة من العالم، ولم يحدث أن تحررت الكثير من هذه المناطق من السيطرة الاستعمارية قبل النصف الثانى من القرن العشرين؛ بل إن السيطرة الاستعمارية الرأسمالية ما تزال قائمة بشكل أو بآخر ، حتى بعد أن انتهى القرن العشرون.

وثانيهما : أن هذه السيطرة الاستعمارية ، خلقت نفوذًا فكريًا ، وتركت تأثيرات ثقافية فى البلاد التى خضعت للاستعمار ؛ لأن النظام القانونى والنظام التعليمى كانا من أهم الأهداف التى عمل المستعمرون على تعديلها لتتوافق مع مصالحهم تحت دعوى «التطوير» . وكان لابد أيضًا – فى ظل تعديل النظام التعليمى – أن تتأثر دراسة التاريخ بالمنظور الغربى، وبالرؤية الغربية، وبإنجازات الفكر التاريخى الغربى.

ولم يكن ذلك كله شرًا بطبيعة الحال ...

ويلفت النظر هنا أن تأثير الفكر التاريخى الغربى كان واضحًا فى مجال منهج البحث، وأساليب الدراسة، وتقسيمات العصور، والتفسيرات الأيديولوچية ، وفلسفة التاريخ بدرجات متفاوتة فى مناطق العالم المختلفة . بيد أن هذا التأثير لم يصل إلى لُبِّ «فكرة التاريخ» التى تبقى محتفظة بخصوصيتها الشديدة المرتبطة بكل جماعة إنسانية لأنها تستمدها من تراثها و«تاريخها» ، فضلاً عن أنها تمثل رؤيتها لذاتها.

وعلى الرغم من أن «الفكر التاريخى» فى تراث الحضارة العربية الإسلامية حقق تقدمًا كبيرًا فى ظل الظروف التاريخية الموضوعية السائدة آنذاك؛ فإن الجمود، والتوقف، والتدهور الذى أصاب الدراسات التاريخية منذ القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، جعل كُتاب التاريخ العرب «جامعين» للأخبار، وتقليداً ممسوخاً لأسلافهم الكبار من أمثال تقى الدين المقريزى، وأستاذه عبد الرحمن بن خلدون، وغيرهما. وظلت الكتابات التاريخية العربية على جمودها حتى تأسيس الجامعة المصرية فى ١٩٠٨م (ثم تحولها إلى جامعة حكومية بسنة ١٩٢٥م)، وقد بدأت الدراسة التاريخية بهذه الجامعة على الأسس الأكاديمية الغربية لأن رؤساء قسم التاريخ ظلوا من الأجانب حتى سنة ١٩٣٦م، وبقى عدد منهم يقومون بمهام التدريس بعد ذلك.

ولاشك فى أن هذا قد أفاد كثيراً فى بعث الدراسات التاريخية العربية من مرقدها، ولاشك أيضاً فى أن نتائجه الإيجابية كانت وما- تزال كثيرة- وفاعلة فى تقدم الفكر التاريخى فى العالم العربى (وما يزال هناك الكثير الذى ينبغى تحقيقه قبل أن ننتج الفكر التاريخى الذى نشارك به فى تقدم الفكر العالمى)؛ ولكن النتائج السلبية والمشكلات المتعلقة بالمنهج ، وتقسيم العصور التاريخية، والمصطلحات ما تزال تعيق الفكر التاريخى العربى (إلى جانب أسباب أخرى مهمة تتعلق بالواقع العربى ذاته بطبيعة الحال)؛ إذ كانت البدايات الأولى للدراسات التاريخية تحمل المفاهيم الفكرية الأوربية، كما تعكس اتجاهات الثقافة الغربية بشكل عام ، وتحمل ملامح القراءة الغربية للتاريخ ؛ تلك القراءة التى تجعل من الحضارة الأوربية، فى جميع العصور التاريخية، الحضارة المرجعية القياسية التى يجب أن تقاس كافة الحضارات الأخرى بمقاييسها .

بيد أن هذا موضوع مهم آخر ، يستحق مجالاً أرحب للدراسة والمناقشة ...

* * *

اتسم القرن العشرون بسمات تاريخية موضوعية جعلت منه قرنًا يمكن أن نسميه ، دونما تجاوز، «قرن القراءة الأيديولوچية للتاريخ». إذ إن القرن العشرين شهد ذروة التنافس الاستعمارى على اقتسام الهيمنة على العالم (التاريخ الإمبراطورى) مما أنتج أكبر مذبحتين فى تاريخ البشرية (الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية) ؛ كما شهد هذا القرن حركة التحرر الوطنى وحروب التحرير والثورات الشعبية ضد الاستعمار فى مناطق شاسعة من العالم كانت مستعمرات سابقة للإمبراطوريات الاستعمارية القديمة ، وشهد أيضًا الثـورة البلشفية فى روسـيا سنة ١٩١٧م بنتائجها العميقة على المستوى الإقليمى ، وعلى المستوى العالمى أيضًا؛ وكانت أبرز هذه النتائج متمثلة فى انقسام العالم – بعد هزيمة النازية بنهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩–١٩٤٥م) بين قطبين : اشتراكى (هو الاتحاد السوڤيتى) ورأسمالى تقوده الولايات المتحدة الأمريكية والدول الرأسمالية فى غرب أوربا ، وما نتج عن ذلك بالضرورة من نوع غريب من العلاقات الدولية العالمية اصطلح الجميع على تسميته «الحرب الباردة» ، ثم شهد أخيرًا انهيار الاتحاد السوڤيتى السابق وظهور فكرة «العولمة» التى روجت لها الدوائر الإمبريالية الأمريكية. وكان لابد من قراءة أيديولوچية للتاريخ تناسب ، أو تبرر، أو تمهد لكل من هذه الأحداث الكبرى التى شهدها القرن العشرون . وقد تنوعت هذه القراءة الأيديولوچية من القراءة العنصرية التى رفعت لافتة «رسالة الرجل الأبيض»، فى نشر الحضارة ومساعدة الشعوب « المتخلفة» على التقدم، والتى بررت الاستيلاء على ثروات الأمم الأخرى لصالح الرأسمالية الأوربية والاستعمار الغربى، مرورًا بما أفرزه الفكر الاشتراكى ، وحركات التحرر الوطنى ، من تفسيرات تاريخية ، ونظرية أرنولد توينبى التى اعتبرها البعض القطب البورجوازى المواجه للنظرية المادية التى يقدمها الفكر الماركسى لتفسير التاريخ، وصولاً إلى زعم فوكوياما عن «نهاية التاريخ» بعد سقوط الاتحاد السوڤيتى السابق، «وتبشير» صمويل هنتجتـون بـ «صدام الحضارات» تمهيدًا للهياج الأمريكى الذى يشهده العالم المعاصر منذ السنة الأولى من القرن الحادى والعشرين.

هكذا ، كان القرن العشرون عصر الحروب العالمية، والقنبلة الذرية (هيروشيما ونجازاكى) كما كان، من ناحية أخرى ، عصر التحرر الوطنى والثورات الشعبية، والزعماء الكبار فى الحرب وفى مقاومة الاستعمار ، وكان عصر الحرب الباردة وانهيار الإمبراطوريات القديمة وقيام الكتل الدولية العظمى بشكل ثنائى . وعلى صعيد الفكر التاريخى كان لابد من انعكاس هذا كله على دراسة التاريخ. فقد شهد القرن العشرون ما يمكن أن نسميه «ثورة» فى مجال الدراسات التاريخية؛ سواءً من حيث تطور منهج البحث التاريخى وأساليب الدراسة، أو من حيث تراكم المعرفة التاريخية على المستوى الكمى بالشكل الذى أحدث تغييراً كيفيًا فى فروع الدراسات التاريخية . ومن ناحية أخرى ، أدى هذا إلى «تكاثر» التخصصات الفرعية والتعمق فيها على نحو يشى بالاصطناع الأخرق الذى أدى فى النهاية إلى تجريد المؤرخين «المتخصصين» فى فروع الفروع من «المعرفة التاريخية» الحقيقية خارج «التخصص»؛ وهذه هى أزمة التاريخ التى تكشف عنها صفحات هذا الكتاب الذى نقدم ترجمته العربية إلى القارئ العربى. فقد أدى الإمعان فى التخصص إلى ضعف شديد فى مستوى الباحثين الذين تحولوا إلى ما يشبه الحرفيين أحيانًا ، كما أن المماحكة واصطناع تخصصات تدخل فى كافة أشكال الدراسات التاريخية (مثل تاريخ النوع، أو تاريخ المرأة، أو التاريخ الإمبراطورى ، أو تاريخ الأسرة) سببت المزيد من المشكلات البحثية بدلاً من الإسهام فى حل المشكلات القائمة. فالبحث فى تاريخ النوع مثلاً لابد أن تتقاطع خيوطه مع أنماط التاريخ السياسى، والتاريخ الاجتماعى، والتاريخ الاقتصادى ، والتاريخ الثقافى ... وما إلى ذلك؛ فالنوع هو الرجل والمرأة أى الإنسان: صانع التاريخ وصنيعته ، والتاريخ هو النشاط الإنسانى كله. وهنا يبدو التداخل مربكًا محيراً . ويصدق هذا على «تاريخ المرأة» ، وهو ما سنعود إليه تفصيلاً .

وإذا كانت دراسة التاريخ فى حقيقتها قراءة أحداث الماضى من أجل تسليط الضوء على ما يخدم منها الجماعة الإنسانية فى حاضرها ومستقبلها ، فقد ركزت الدراسات التاريخية فى القرن العشرين على ما يخدم مصالح الجماعة التى تستخدم التاريخ ويبرر تصرفاتها : ففى الغرب عمومًا اهتمت الدراسات التاريخية بالتركيز على

قيم الفردية والمنافسة ، كما اهتمت بالترويج لفكرة أن غزو بلاد الآخرين وضمها بالقوة يشبه ما قامت به روما - فى زعمهم - لنشر الحضارة بين «البرابرة» ، على حين ركزت الدراسات التاريخية التى قامت على أساس من الفكر الماركسى على دور «الطبقة» فى محاولة لإثبات أن تاريخ البشر هو تاريخ الصراع بين الطبقات من أجل السيطرة على وسائل الإنتاج وأدوات الإنتاج.

وقد أدى هذا بدوره إلى دخول الدراسات التاريخية إلى مناطق جديدة لم يكن قد دخلها من قبل؛ فقد بدأ تريڤيليان دراسة «التاريخ الاجتماعى» ، فى مؤلفه الذى كتبه بعنوان «التاريخ الاجتماعى الإنجليزى» فى السنوات السابقة على الحرب العالمية الثانية؛ ولكن ما كتبه تريڤيليان لم يؤد فى الحال إلى قيام تاريخ اجتماعى مستقل حقًا ؛ وإنما كان ذلك المؤرخ الإنجليزى الكبير قد فتح الباب لتطور هذا الفرع . كما أن كارل ماركس ، وروشر ، وشمولر ، وغيرهم كتبوا ما كان تمهيداً لوجود فرع ثان مستقل من فروع الدراسات التاريخية، هو «التاريخ الاقتصادى» .

لقد شهدت السنوات الثلاثون الأولى من القرن العشرين ظهور الفروع المستقلة فى التاريخ الاجتماعى، والتاريخ الاقتصادى. إلى جانب التاريخ السياسى، والتاريخ الدبلوماسى والتاريخ العسكرى . وبينما أحرز التاريخ الاقتصادى مكاسب مهمة؛ مثل إنشاء الكراسى والأقسام المتخصصة بالجامعات الأوربية، وتأسيس جمعيات علمية ودوريات لنشر البحوث والدراسات فى مجال التاريخ الاقتصادى، بقى التاريخ الاجتماعى رهين الجدل الذى دار حول ربط التاريخ الاجتماعى بالتاريخ الاقتصادى أو بعلم الاجتماع، أو علم النفس أو الدراسات الأنثروبولوچية .

وكان السبب فى هذا راجعًا ، بطبيعة الحال، إلى أن التطورات التكنولوجية التى ظهرت نتائجها فى مجال الصناعة والتجارة فى أوربا من ناحية، والتسابق الاستعمارى على مناطق المواد الخام لتغذية الصناعة وتطوراتها من ناحية أخرى، حفزت الكثير من المؤرخين على دراسة الدوافع الاقتصادية فى التطور التاريخى. وعلى الرغم من أن نمو الرأسمالية والتوسع الصناعى أدى بالضرورة إلى طرح أفكار متنوعة عن الطبقة العاملة (التى ظهرت لأول مرة فى التاريخ الإنسانى لتزاحم الفلاحين والرعاة).

والتى خلّفتها الثورة الصناعية ، ثم ظهرت نتائجها الاجتماعية والسياسية والفكرية فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين؛ فإن «التاريخ الاجتماعى» تقاطعت خطوطه مع خطوط العلوم الاجتماعية الأخرى بحيث تأخر عن «التاريخ الاقتصادى» فى تحقيق استقلاله. وعلى الرغم من تجليات الفكر الماركسى فإن إعلاء المؤرخين الماركسيين من شأن العامل الاقتصادى فى التطور التاريخى قد تسبب أيضاً فى عرقلة نمو «التاريخ الاجتماعى»، إلى حين.

ومن ناحية أخرى ، شهدت العقود الأولى من القرن العشرين أمراً بدا غريباً عندما أخذ المؤرخون يحاولون التقدم على جبهتين مختلفتين في الوقت ذاته؛ أى فى اتجاه دراسة التاريخ الاقتصادى، ودراسة التاريخ الفكرى. وربما يرى البعض أنهما اتجاهان متناقضان . ولكن هذا التناقض الظاهرى كان انعكاساً لتناقض – أو اختلاف على الأقل – فى الرؤى بين جيلين من المؤرخين فى أوربا. إذ تجاهل الجيل القديم من المؤرخين العوامل الاقتصادية والفكرية فى التطور التاريخى لحساب العوامل السياسية والفردية، على حين جاء الجيل الجديد من المؤرخين ليحاول استكشاف كل من العوامل الاقتصادية والفكرية؛ إما باعتبارها حزمة واحدة، أو بدراسة كل منهما على حدة . وانتقل هذا الوضع فوق مياه الأطلنطى إلى الشاطئ الآخر فى أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة وكندا) .

لقد كان الاهتمام بالتاريخ الاقتصادى متسقًا مع سياق التطور الاقتصادى الناجم عن التقدم التكنولوچى كما أوضحنا فى السطور السابقة؛ أما التاريخ الفكرى فكان نتاجًا عن حالة الشك والقلق الذى انتاب الغرب عامة بعد تجربة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) والثورة البلشفية فى روسيا (١٩١٧م) ، وانهيار الإمبراطورية العثمانية تمامًا. هذا الشك والقلق هزَّ المسلمات كافة وحالة اليقين التى سادت بعد نجاح حركة الاستعمار فى القرن التاسع عشر. وأمام هجوم الشك والقلق تراجع الإيمان القديم بوجود «حقائق تاريخية» ، وغير تاريخية، صلبة راسخة حسبما كان الأوربيون يظنون قبل الحرب العالمية الأولى. لقد بات كل شيء «نسبيًا» ، وكل شيء «موجود فى عقل الإنسان» .

من هنا أخذ المؤرخون الجدد على عاتقهم تطبيق فكرة أن استخدام التاريخ يجب أن يكون لفهم الحاضر ، وأن كتابته يجب أن تتم «... وحاجات الحاضر ماثلة فى ذهن المؤرخ ...» . وقد أدى هذا، بالضرورة ، إلى نسبية الحقيقة التى تكشف عنها الدراسة التاريخية ، بحيث إن كل عصر يبحث عن عناصر بعينها لكى يلقى الضوء عليها فى تاريخه ؛ لأنه يحتاج إلى إبرازها فى الحاضر لفائدتها المرجوة فى تلبية مطالبه؛ فإذا جاء عصر جديد بمطالب جديدة توجه اهتمام البحث التاريخى إلى إبراز العناصر الجديدة فى قراءة جديدة للتاريخ وهكذا. فالواقع أن التاريخ لا يكتب، حسبما جرى القول الدارج، عن كتابة التاريخ، ولكنه «يحدث» ، ثم تتم قراءة أحداثه من خلال البحث التاريخى مرات ومرات. وذلك أننا حين نتوهم أننا «نكتب» التاريخ، نكون فى الحقيقة عاكفين على «قراءته» .

هذه النسبية، التى حكمت نظرة الكثير من مؤرخى «التاريخ الجديد» فى العالم الغربى ، تعززت بأفكار نظرية النسبية التى طرحها أينشتين، والتى شاعت فى سنوات ما بين الحربين العالميتين فى شتى نواحى الفكر الغربى. ولكن المؤرخين الذين تبنوا النسبية كانوا يمثلون مدرسة متواضعة بين المؤرخين لم يؤثروا سوى فى تقويض دعائم مدرسة «رانكه» (التى وجدت فى القرن التاسع عشر واستمرت موجودة بشكل أو بآخر فى القرن العشرين)، أن «يروى» ما حدث فى الماضى «بالضبط» . ولكن المؤرخين النسبيين كانوا يضعون عناوين ضخمة فوق دراسات متواضعة. وأدى هذا بطبيعة الحال إلى انحسار دورهم من ناحية، وتعرضهم لهجوم المؤرخين الجدد الذين زاد اتجاههم صوب التفسير الاجتماعى للتاريخ من ناحية أخرى، مما كان يعنى قطع شوط أبعد نحو استقلال «التاريخ الاجتماعى» . ويبرز من هذا الاتجاه اثنان؛ أحدهما أقرب إلى فلسفة التاريخ هو «بنديتو كروتشه» (١٨٦٦-١٩٥٢م) ، والثانى أقرب إلى علم الآثار وهو «روبين چورچ كولينجود» (١٨٨٩-١٩٤٣م) .

كان كروتشه وزيراً للتعليم فى الحكومة الإيطالية (١٩٢٠-١٩٢١م) ، كما كان معارضاً عنيفاً للفاشية . ألف كتاباً بعنوان «التاريخ » سنة ١٩٤١م طرح فيه أفكاره . وعلى الرغم من أن كروتشه لم يستطع أن يضع أفكاره فى سياق متناغم ، كما أن

كتاباته تتسم بقدر من الإبهام والغموض، فإن أهم أفكاره كانت تدور حول فكرة أن المعرفة التاريخية نوع من العمل الذهنى، وأن «حقيقة» التاريخ ليست موجودة بحد ذاتها، ولاتوجد سوى فى أذهان المؤرخين ؛ ومن ثم فإن التاريخ كله «معاصر» بهذا المعنى . ولم يكن تأثير هذا الفيلسوف المثالى كبيراً فى مجال الدراسات التاريخية على أية حال .

أما كولينجوود ، الذى كان من علماء الآثار وكان متخصصاً فى تاريخ بريطانيا فى عصر الرومان، فقد حاول تهذيب أفكار كروتشه ، ووضعها فى قالب مثالى شاعرى. وقد نشر آراءه فى كتابه عن «فلسفة التاريخ» سنة ١٩٣٠م. وتدور أهم أفكاره حول قوله إن التاريخ عمل من خلق المؤرخ لايبدأ وجوده سوى حين يتساءل المؤرخ عن ظاهرة تاريخية ما. وبقدر ما مضى كروتشه دون أن يترك أثراً على البحث التاريخى ، مضى كولينجوود إلى حدائق الصمت ليجلس إلى جوار معاصره الإيطالى، وهما غافلان عن الزهور التى تفتحت فى حدائق البحث التاريخى. وبقدر ما فشل الفلاسفة المثاليون فشل الفلاسفة الوضعيون أيضاً . ذلك أن المؤرخين أنفسهم كانوا يرون فى «فلسفة التاريخ» نوعاً من العبث ، لدرجة أن بعضهم أطلق على فلسفة التاريخ اسم «العفريت الأسود» ، الذى يخشاه المؤرخون . وعلى الرغم من أن «أوزوالد شبنجلر» (١٨٨٠-١٩٣٦م)، كان أهم الفلاسفة الوضعيين الذين كتبوا عن «اضمحلال الغرب» ، وحاول تقديم نظرية عامة للتاريخ يدلل بها على تدهور الثقافة الغربية، فإن نظريته عن أن الحضارة مثل الكائن الحى الذى ينشأ، ثم ينضج لكى يشيخ فى النهاية (فيما يشبه دورة حياة الكائن الفرد) ، فإن المؤرخين لم يلتفتوا كثيراً إلى نظريته . وربما كان ذلك ناتجاً عن الحقيقة القائلة إن فلاسفة التاريخ يعملون فى مجال يختلف عن مجال عمل المؤرخين ، وإن بدا للوهلة الأولى أن المجال واحد فى الحالين . ذلك أن المؤرخين يرون أن فلاسفة التاريخ يتحدثون عن التاريخ الذى لم يحدث أبداً .

آخر محاولات فلسفة التاريخ، فى النصف الأول من القرن العشرين ، كانت على يدى أرنولد توينبى الذى حاز شهرة واسعة بسبب كتابه المهم والشهير الذى يحمل عنوان «دراسة للتاريخ» (صدرت المجلدات الثلاثة الأولى سنة ١٩٣٤م، ثم صدرت

المجلدات الثلاثة التالية سنة ١٩٣٩م ، وتوقف الصدور بسبب الحرب الحرب العالمية الثانية حتى صدرت المجلدات من السابع إلى العاشر سنة ١٩٥٤م) . وفى هذا الكتاب الضخم عرَّف توينبى إحدى وعشرين حضارة زعم أنها مرَّت بمراحل متشابهة من النمو، والانهيار ، والتحلل النهائي ، كما قال إن المرحلة النهائية في كل حضارة من هذه الحضارات تم فيها تكوين «دولة عالمية» ، وزعم أن هناك قوانين معينة تتسبب فى تطورات حاسمة معينة. وقد استحوذ توينبى على اهتمام القارئ المثقف العام وإعجابه ، ولكنه لم ينج من انتقادات المؤرخين المحترفين الذين توصلوا إلى أنه أيًا كان ما كتبه أرنولد توينبى ؛ فهو ليس تاريخًا !!

مرة أخرى ، إنه الفارق بين عمل المؤرخ وعمل فيلسوف التاريخ ...

وعلى الرغم من هذا، فإن هذا الجيل من مورخى النصف الأول من القرن العشرين قد وسعوا من نطاق الدراسة التاريخية؛ سواءً بما كتبوه فى مجال فلسفة التاريخ، أو بما فعلوه فى مجال تطوير الدراسة التاريخية ذاتها ومنهج البحث ، وأساليب الدراسة، فضلاً عن تطوير الفروع المستقلة من الدرس التاريخى. ومن ناحية أخرى، ظهر عدد كبير من المؤرخين «المحترفين» الذين تعاملوا مع التاريخ باعتباره «حرفة» أو «صنعة» . وقد أدى هذا إلى ظهور عدد كبير من المؤرخين الذين قضوا شطراً كبيراً من وقتهم ، وسودوا أوراقًا كثيرة بأحبارهم، لكى يقولوا للآخرين كيف يكتبون التاريخ، بدلاً من أن يكتبوا هم أنفسهم تاريخًا حقيقيًا. وقد عرفت هذه الظاهرة فى تاريخ التدوين التاريخى الأوربى، باسم «أزمة الثلاثين عامًا» (١٩٣٠–١٩٦٠م)، وكانت نتاجًا طبيعيًا لظهور أولئك المؤرخين «الحرفيين» الذين ظنوا أن التاريخ حرفة وليس فكراً؛ ومن ثم فإنهم كتبوا كثيراً، وتكلموا كثيراً، ولم يقولوا شيئًا .

وكانت «أزمة التاريخ» ، نتاجًا للتوتر الناجم عن طبيعة الدراسة التاريخية ذاتها بوصفها دراسة تتخذ من الماضى مادتها لخدمة أغراض الحاضر والمستقبل من ناحية، وتأثير الحرب العالمية الثانية على المفاهيم والقيم والنظام الأخلاقى والثقافة الغربية بوجه عام من ناحية أخرى. وتفسير ذلك أنه كان على المؤرخين أن يفسروا ذلك القدر

الهائل من التناقضات والسلوك الوحشى، والدعاية والدعاية المضادة ، وغيرها من الأمور التى انطوت عليها الحرب العالمية الثانية. كما أن النتائج الثقافية للحرب كانت أعمق كثيراً مما بدا على السطح؛ فقد تركت الحرب، والفترة التى تلتها ، بصماتها عن طريقين؛ أولهما التحدى الخطير الذى واجه فكرة الاستمرارية التاريخية التى كانت أساس الفكر التاريخى برمته حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين، والتى كانت بمثابة الرصيد الاحتياطى للمؤرخين على شتى اتجاهاتهم . إذ إن الطفرة الهائلة التى حدثت فى شتى المجالات، ومنها مجال الفكر والدراسات التاريخية بطبيعة الحال، قد جعلت مفهوم الاستمرارية التاريخية والتراكم المعرفى الكمى بالتاريخ يتراجع ويُخلى مكانه لفكرة تقول إنه ليس بالضرورة أن يكون التاريخ حلقات متصلة، وإن من الممكن حدوث طفرة تقطع هذه الاستمرارية فى منحناها. وثانيًا ، تمثلت تأثيرات الحرب العالمية الثانية على الدراسات التاريخية فى نهاية فترة السيادة والسيطرة السياسية المباشرة للدول الاستعمارية وظهور الدول المستقلة منذ خمسينيات القرن العشرين فصاعداً. وهنا أخذت المركزية الأوربية فى الفكر التاريخى تتقهقر لتفسح مكانًا للتاريخ «خارج أوربا» ؛ أى الاهتمام بدراسة تواريخ أفريقيا وآسيا ، وأمريكا الجنوبية. وقد «فوجئ» المؤرخون الغربيون بأن التطور التاريخى فى المناطق التى كانت واقعة تحت حكم الإمبراطوريات الاستعمارية قد جرى بشكل منفصل تمامًا عن التطور التاريخى فى الغرب على جانبى المحيط الأطلنطى . ومثلما اهتزت فكرة الاستمرارية التاريخية أمام حقائق «الطفرة» التى شهدتها فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، ترنحت فكرة «المركزية الغربية» وهى تواجه حقائق التطورات التاريخية المستقلة فى مناطق المستعمرات السابقة، ووجود تاريخ مستقل تمامًا عن التاريخ الأوربى فى تلك المناطق التى كان بعض مؤرخى الأجيال القديمة فى أوربا ينكرونها على أساس أنه «لايوجد تاريخ للظلام» .

كانت هذه المظاهر ، وغيرها ، من تجليات الشك الذى أمسك بتلابيب المؤرخين الغربيين فى النصف الثانى من القرن العشرين . وكان طبيعيًا أن يكون معظم هذا الشك من النمط المدمِّر الذى جسدته «أزمة التاريخ» . ولكنه، من ناحية أخرى،

حقق إنجازاً مهمًا عندما لفت الانتباه إلى خطورة «المركزية الغربية» و«النمطية الجاهزة» التى حكمت الفكر التاريخى الغربى والمؤرخين الغربيين أنفسهم فترة من الزمان. ولم يكن هذا إعلاناً عن نهاية «أزمة التاريخ» وإنما كان إيذانا بالمزيد من الجدل والنقاش حول الدور الذى ينبغى أن يلعبه التاريخ فى خدمة الإنسانية ...

وقد حاول بعض المؤرخين السباحة فى خضم التيارات المتلاطمة التى شكلت أزمة التاريخ لكى يجدوا الإجابة، أو الإجابات، المناسبة على الأسئلة المطروحة. وكان كار واحداً من هؤلاء . فقد حاول فى كتابه ?What is History الذى صدر فى بداية ستينيات القرن العشرين أن يرصد واقع التاريخ فى زمانه من ناحية ، وأن يتنبأ ببعض تطورات الدراسات التاريخية مستقبلاً من ناحية أخرى. وعلى الرغم من أن كار لم يكن مؤرخًا محترفًا (بمعنى أنه لم يتخذ من التاريخ مهنة ومعاشًا)، كما لم ينلْ أية درجة علمية فى مجال التاريخ ، فإن سؤاله الجوهرى حرَّك مياها كثيرة فى بركة التاريخ الأوربى والأمريكى. وعلى الرغم من أنه لم يكن مؤرخًا فذًا، كما أن أفكاره لم تكن عبقرية خارقة للعادة (حسبما حاول بعض المشاركين فى هذا الكتاب الإيحاء بذلك) فإن السؤال الجوهرى الذى طرحه منذ أكثر من أربعين سنة مايزال جديراً بأن يجد الإجابة ، أو الإجابات، التى تستحقه . لقد كان سؤال كار أهم كثيراً من إجاباته التى طرحها فى كتابه الصغير. وربما يكون هذا هو السبب فى أننا نسأل مع المشاركين فى هذا الكتاب سؤالاً يجدد سؤال كار ?What is History Now

* * *

لقد حاول المشاركون فى هذا الكتاب الإجابة عن بعض جوانب السؤال من خلال تخصصاتهم فقد طرحوا السؤال حول فروع الدراسات التاريخية التى تخصصوا فيها متوهمين أن وجود كلمة «الآن» فى جميع الأسئلة التى طرحها الجميع يكفى لتحقيق وحدة الموضوع : فقد كانت هناك أسئلة عن ماهية التاريخ السياسى، والاجتماعى، والاقتصادى، والفكرى، والدينى، والإمبراطورى . وتاريخ النوع، وكلها تشترك فى كلمة «الآن» .

وعلى الرغم من أن التقديم والخاتمة حملتا أفكاراً مهمة وقدمتا رصداً جيداً لما جرى من تطورات فى مجال التاريخ فى العالم الغربى ، وعلى الرغم من أن بعض الدراسات التى ضمها هذا الكتاب كانت دراسات مفيدة ومثيرة ، فإن البعض الآخر لم يكن أكثر من شكوى فى مجال التخصص فى نطاق أضيق من أن يصلح لمعالجة سؤال فى مثل أهمية السؤال الذى طرحه كار منذ أربعين سنة ، ويُعاد طرحه الآن، كما أن هناك دراسات أخرى تشير إلى أن «اصطناع» فرع فى الدراسات التاريخية ، مثل «تاريخ النوع»، لا يمكن أن تكون له نتيجة سوى المزيد من الارتباك والفوضى.

لقد كشفت المقدمة المدهشة التى كتبها محرر الكتاب عن مدى انتشار الاهتمام بالتاريخ فى الثقافة الأوربية، وعن تغلغل ما يسمى «التاريخ الشعبى» من خلال وسائل الإعلام، ولاسيما البرامج التليفزيونية، والأفلام السينمائية التاريخية، فضلاً عن الكتب المصاحبة للبرامج التليفزيونية، كما كشف عن مشكلة ضعف الحيز الذى يحتله التاريخ فى البرامج الدراسية بالمدارس. ومن ناحية أخرى قدم صورة بانورامية عما جرى فى الفروع المختلفة للدراسات التاريخية.

وبينما كشفت الدراسة التى تحمل عنوان «ما التاريخ السياسى الآن؟» عن أن صاحبتها تصرُّ على أن تجعل التاريخ السياسى محصوراً فى نطاق تخصصها (تاريخ بريطانيا الحديث) وعلى أن تحيطنا بنماذج من الحياة السياسية البريطانية الحديثة، شخوصها من السياسيين البريطانيين ، وأنشطة الأحزاب السياسية البريطانية، وتناقش الموضوع من وجهة نظر ضيقة للغاية ، متصورة أن هذا هو التاريخ السياسى، نجدها أسيرة ظروف الكتابة التاريخية البريطانية. وربما تتصور الكاتبة سوزان بدرسن أن تاريخ بريطانيا السياسى هو «التاريخ السياسى» بمعناه العام والواسع مما يشى بقدر «المركزية البريطانية» من ناحية، ويجعل حديثها تحت عنوان «ما التاريخ السياسى ، الآن؟» جديراً بعنوان آخر هو «ما التاريخ السياسى البريطانى الآن؟» .

أما الدراسة التى تحمل عنوان «ما التاريخ الدينى الآن؟» فهى أيضًا دليل ساطع على مركزية المؤرخين الغربيين. فالتاريخ الدينى فى هذه الورقة هو الكاثوليكية فقط، وخبرات الكاتب الشخصية هو محور «التاريخ الدينى» ، وتبدو المسألة وكأن البحث التاريخى قد اقتصر على جانبى الأطلنطى فقط. وتفتقر الورقة إلى رؤية عالمية للدين وتاريخه ، وأهم الأسس التى يقوم عليها البحث التاريخى فى هذه النواحى . فالتاريخ الدينى فى تصورى ، يبحث فى أمور تتعلق بوجود هذا الدين أو ذاك ، ومدى انتشاره وأسباب انحساره ، وتاريخ المؤسسات الدينية ، ومدى علاقة المؤسسة الدينية بأتباع الدين... وما إلى ذلك ، مع عدم الاقتصار على دين واحد، أو مذهب دينى واحد. وقد تركت هذه الورقة انطباعًا بأن «المركزية» الغربية قد تولدت عنها «مركزيات» أخرى؛ مثل المركزية «الكاثوليكية» ، «والبريطانية» ، «والنسوية» ... وغيرها .

يبدو الحديث عن التاريخ الثقافى نقلة حقيقية فى هذا التخصص ، إذ إن الكاتبة ميرى روبين بدت فاهمة تمامًا لحقيقة أنها تتحدث عن التاريخ الثقافى عامة، وهو ما يصدق أيضًا على التاريخ الفكرى الذى كتبت الدراسة الخاصة به «أنابيل بريت» .

أما المثير حقًا فى هذا الكتاب فهو ما يحمل عنوان «تاريخ النوع» الذى كتبته آليس كسلر هاريس التى تحاول أن تنتزع تاريخًا من سياق التاريخ الإنسانى. فإذا كان الإنسان أو «النوع الإنسانى» هو صانع التاريخ وصنيعته (رجلاً كان أم إمرأة) فما معنى محاولة فرض تاريخ نسوى بمعزل عن التاريخ الإنسانى ؟، أليس الإنسان هو الإنسان ؟، وهل يمكن انتزاع تاريخ للمرأة خارج نطاق تاريخ الرجل؟، وهل يمكن انتزاع تاريخ للرجل خارج نطاق تاريخ المرأة؟، إن البحث عن تاريخ «خارج التاريخ» أظنه نوعًا من العبث والمماحكة التى تخدم أهدافًا خارج نطاق البحث والدراسة العلمية الحقة. ولست أظن أن «كار» كان سيبهجه أن يقرأ مثل هذه الدراسة، بعد طرحه سؤاله «ما هو التاريخ؟» بأربعين سنة.

وعلى الرغم من هذا، وربما بسبب هذا، يبقى الكتاب إسهامًا مدهشًا في تاريخ الفكر التاريخي عمومًا. على الرغم من أن الفكر التاريخي العربي المعاصر ما يزال خارج مثل هذه التفاعلات حتى الآن .

أما عن الترجمة ، فقد كانت بالنسبة لي مهمة شاقة أن أحبس نفسي داخل عقول تسعة من الباحثين أسهموا في هذا الكتاب وأن أحاول نقل أفكارهم إلى العربية بأسلوب عربي سلس. وأرجو أن يسامحني القارئ على ما قد يجده من أخطاء أو هنات في هذه الترجمة، فهذا غاية جهدي. والله الموفق والمستعان

دكتور/ قاسم عبده قاسم

مقـــدمة

الفصـول التى تم تجمـيعهـا معًا فى هـذا الكتـاب ، والتى تـتراوح بشكل واسـع (على الرغم من أنها لاتحيط بكل شىء) عبر منظوراتنا الحالية على الماضى، كانت فى الأصل محاضرات قدمت فى ندوة على مدى يومين، عقدت فى معهد البحوث التاريخية بلندن يومى ١٤ و ١٥ نوفمبر سنة ٢٠٠١م ، احتفالاً بمرور أربعين سنة على النشر الأصلى الذى قامت به مؤسسة ماكميلان لكتاب إ.هـ . كار **E. H. Carr** المستمر فى الوجود **What is History ?** وبناء على ذلك ، فإن شكرى الأول والأكثر امتنانًا يوجه إلى الرعاة المشتركين لهذه المناسبة الحية الباقية، التى لقيت اهتمامًا طيبًا من رئيس كلية ترينتى بكامبردج ورفاقه (حيث كان كار زميلاً على مدى عدة سنوات)، وبالجريف ماكميلان (المنبثقة عن مؤسسة ماكميلان) . وأدين بنفس القدر لكل من المتحدثين الرئيسيين، ليس فقط لأدائهم بهذا القدر من النشاط والحمية يوم الندوة ، وإنما أيضًا لأنهم عملوا بسرعة على إعداد محاضراتهم للنشر فى زمن محدود للغاية. فقد كانت كل محاضرة ، حسبما ألقيت فى الأصل، متبوعة بمعلق، وأنا شاكر للغاية لجوديث هيرين **Judith Herrin** ، ووارين بوتشر **Warren Boutcher** ، وبيتر مارشال **Peter Marshall** ، وفيليب وليامسون **Philip Williamson**، وليندال روبير **Lyndal Rober** ودانيال بيك **Dainiel Pick** وكاثرين هول **Catherine Hall** لتعليقاتهم الحافزة وملاحظاتهم البناءة ، التى لم تساعد فحسب على بداية ومواصلة المناقشة النشطة القوية فى المؤتمر ، وإنما كانت أيضًا عونًا كبيرًا للمشاركين فى هذا الكتاب عند مراجعة محاضراتهم للنشر.

ومنذ البداية ، وبالتوافق مع مهمة معهد البحوث التاريخية لتقديم سياق يمكن الباحثين من بريطانيا ومن حول العالم أن يجتمعوا فيه ويتواصلوا مع بعضهم البعض،

وأن يتشاوروا ويتجادلوا ، كان القصد من هذا التجمع ذا أبعاد ثلاثة: أن يحتفل بكتاب كار الأصلي ويعيد تقييمه بعد أربعة عقود من ظهوره للمرة الأولى؛ وأن يستكشف ويشرح التطورات العديدة والتنوع المدهش للتاريخ في السنوات التي انقضت منذ كتب كار كتابه ؛ وأن ينشئ كتاباً ربما يصل إلى نوع القراء الكثيرين الذين يظل التاريخ بالنسبة لهم (كما كان ينبغي ، وكما يجب) عنصراً أساسياً من عناصر المواطنة الواعية، والثقافة العامة والحياة الوطنية. وفي مؤتمر لم يستطع، لأسباب عملية مختلفة وعديدة، أن يستمر سوى يومين، كان من المستحيل تغطية جميع خيوط رداء كليو Clio(*) الواسع، وربما يشعر المؤرخون الاقتصاديون ، والمؤرخون العسكريون ومؤرخو الأعمال والتجارة ، والمؤرخون المحليون، والمؤرخون البحريون ، ومؤرخو الفن، والعلوم، والسكان، والأسرة ، والدبلوماسية (لكي نسمي أشد الأمثلة وضوحاً)، أنهم مهملون بلا سبب ومستبعدون دونما عون أو مساعدة ، والإجابة الوحيدة الممكنة على هذا هي أن إخراج مجلد ثان يكمّل هذا ليس خارج نطاق الممكن[١].

كان أصل كتاب كار ?What is History المحاضرات التي ألقاها بجامعة كمبردج على شرف چورچ ماكولي تريڤليان ، فيما بين ينـاير ومارس سنة ١٩٦١م[٢]. هذه المحاضرات كانت تحية من زميل في كلية ترينيتي لرئيس سابق للكلية كان يعتبر على نطاق واسع «رجل التاريخ الإنجليزي العجوز العظيم» ، كما كان آخر مؤرخ كبير من الهويج Whig. وفي ذلك الحين كان المؤرخون المحترفون يرون في تريڤليان مؤرخاً من طراز عتيق للغاية، كما أن التطورات التي ألمت بكتابة التاريخ في ستينيات القرن العشرين- والتي كان كار قد تمثلها وتنبأ بالكثير منها- جعلت الأمر يبدو هكذا . وحتى لاننسى ، لم يكن كار في وصفه التاريخ بأنه مواجهة مستمرة بين الماضي والحاضر ، يحتاج فيه انشغال الباحث بحدود الزمان إلى الاعتراف والتقدير، يقول شيئاً يراه تريڤليان استثنائياً . ولكن كار كان يدافع عن نوع يختلف تماماً عن روايات تريڤليان

(*) ربة الفنون والآداب عند الإغريق . (المترجم)

الوطنية وتراجمه المستحسنة ، وهو يحث على أولوية القوى الاقتصادية والاجتماعية طويلة المدى وتسيدها، وفى إصراره على صلاحية التاريخ خارج أوربا، وفى اهتمامه الكبير بعلم الاجتماع وبالسببية ، وإنكاره أهمية الحدث الفردى أو الفريد(٣).

علاوة على ذلك ، كان ذلك النوع من التاريخ بالضبط ، كما حدده كار ووصفه ، هو الذى صار عصريًا للغاية وشائعًا فى ساحات الجامعات الجديدة والمتوسعة فى بريطانيا وغرب أوربا وفى أمريكا الشمالية فى أثناء الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، عندما هدد التاريخ الاقتصادى والتاريخ الاجتماعى (الذى ساعده وشجعه المنهج الكمى) بتهميش التاريخ السياسى التقليدى ، وحيث فاق الاهتمام بالسببية والتحليل الاهتمام التقليدى بالسرد وتتابع الأحداث، وحيث بدا أن الاعتقاد بأن التاريخ يمكن أن يساعد على السيطرة على الحاضر بل وتغيير المستقبل يعطى له قصداً عاماً تقدميًا كان الكثير من المدارس المحافظة تستبعده ولاتثق به(٤). وكان الرئيس بينهم ج. ر. إلتون G.R. Elton الذى كان كتابه : The Practice of History (Sydney: Sydney University Press, 1967) قد كتب فيما كان احتجاجًا بلا طائل ضد الاتجاهات السائدة فى ستينيات القرن العشرين، وضد كار صراحة – سعيًا إلى إعادة التأكيد على أولوية التاريخ السياسى والسرد التاريخى؛ ولإعادة تأكيد وجهة النظر القائلة بأن التاريخ لايساعدنا على فهم الحاضر ، دعك من التأثير على المستقبل ، ولكى يدين الهوى فى علم الاجتماع والتاريخ الاجتماعى؛ ودراسة التاريخ خارج أوربا Extra- European (الذى لاوجود له؟)(٥).

ولاريب فى أن قدراً كبيراً من أفضل الكتابات التاريخية التى أنجزت فى أثناء الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، كان من النوع الذى شجعه كار ولم يعجب إلتون؛ إذ إن المؤلفات من أمثال كتاب لورنس ستون Lawrence Stone الذى يحمل عنوان :
The Crisis of Aristocracy 1558-1641, (Oxford : Oxford University Press1965) .

وكتاب بلومب : J.H. Plumb , The Growth of Political Stability in England 1675-1725 (London : Macmillan, 1967).

وكـتـاب ثـومـبـسـون : E. P. Thompson , The Making of the English Working Class (London : Victor Gallanz 1963) .

وكتاب رونالد روبنسون وجالاغر :

Ronald Robinson and J.A. Gallagher, Africa and the Victorians (London: Macmillan, 1961) .

بيد أنه ، وعلى الرغم من مخاوفه المتزايدة بشكل بارانويدى، فإن الكثير من الكتابات التاريخية فى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين ظلت تكتب على طريقة إلتون :فقد كانت دراسة تقليدية للتاريخ السياسى والدستورى ، تضرب بجنورها فى أعماق الأرشيفات ، وتتسم بالمحافظة والتجريبية (الإمبريقية) فى قيمها الأكاديمية . والواقع إنه بنهاية تسعينيات القرن العشرين ، كان هناك نوع من الأزمة فى التاريخ «الجديد» الذى تباهوا به كثيراً والذى كان كتاب «ما التاريخ؟ What is History? سابقة له ومبشراً به على نحو ما : إذ إن الأسلوب الكمى فى البحث لم يكن يبدو أنه يقدم ما كان مأمولاً منه؛ كما أن علم الاجتماع قدم قدراً أقل من المساعدة التى كان يعتقد فى الأصل أنه سيوفرها؛ كما أن التأكيد على السببية والتحليل لم تعد لها نفس الجاذبية . وكان هذا الإحساس بالصحوة والتخلص من الأوهام هو الذى تجلى واضحاً فى مقالة لورنس ستون عن «إحياء السرد The Revival of Narrative» التى نُشرت فى مجلة Past and Present سنة ١٩٧٩م، والتى كان يمكن أن تحمل أيضًا عنوان «وفاة السببية The Demise of Causation"(٦).

فى غضون سنة بعد مقالة ستون، كان المشهد الفكرى قد تغير على نحو أكثر أهمية، مع قدوم مارجريت تاتشر إلى السلطة فى المملكة المتحدة ورونالد ريجان فى الولايات المتحدة. وحقيقة أن ثمانينيات القرن العشرين شهدت أيضًا «تيار المراجعة» التاريخية لم تكن مصادفة: ففى التأكيد على أهمية الماضى السياسى واستقلاله الذاتى، تعمد أصحاب نزعة المراجعة رفض الحسم الاقتصادى والاجتماعى الذى شاع فى الستينيات من هذا القرن، بنفس الطريقة التى سعى بها كل من تاتشر وريجان إلى مراجعة الحاضر السياسى. ولكن بسبب كل هذا الدعم الحماسى لقضية المراجعة ،

لم يكن هذا يعنى، حسبما كان چيوفرى إلتون يأمل، أن فترة ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، قد شهدت «عودة إلى الأصول» ، لأن هذين العقدين شهدا أيضاً نسقًا شاملاً من التطورات الأخرى التى غيرت طبيعة البحث التاريخى بالطرق التى لم تعجب إلتون ولم يتنبأ بها كار(٧). ومن بين هذه التطورات: الثورة التى حدثت فى مجال البحث والتى حولت البحث العلمى وجعلته ديموقراطياً ، والمزيد من التوسع فى التعليم العالى ؛ بينما كان التحول من علم الاجتماع إلى الأنثروبولوچيا باعتبارها الموضوع الأوفر ثماراً والذى أخذ المؤرخون يقتبسون منه آنذاك ؛ وتأثير ميشيل ڤوكو **Michel Foucault** وما بعد الحداثة «والتحول اللغوى»؛ وظهور تاريخ النساء، وتاريخ النوع والتاريخ الثقافى، وإعادة تشكيل التاريخ الإمبراطورى؛ وهو تحول أوسع مجالاً بعيداً عن البحث عن السببية صوب البحث عن المعنى(٨).

وكثير من هذه التطورات تمت مناقشتها وتحليلها فى الفصول التالية. وحتى كما يعترف أكثر المبررين حماسة للتاريخ الاجتماعى، فإنه لم يعد الموضوع الموثوق به والشامل كما كان يبدو فى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين. وبدلاً من ذلك ، فإنه استقر على أجندة أكثر تواضعًا ، وأكثر واقعية ، وبالتالى أكثر قدرة على المساعدة؛ ليس تاريخ المجتمع بأسره ، ولكن تاريخ الجوانب المختلفة فى المجتمع . وعلى النقيض من ذلك ، فإن التاريخ السياسى الذى بدا واقعًا تحت «التهديد» بدرجة كبيرة فى أثناء هذين العقدين، أعاد توطيد نفسه واستعاد حيويته ، ليس عن طريق إعادة تأكيد مزاعم إلتون عن الانفصال والتفوق، وإنما بتوسيع مداه وتبنى الكثير من التغيرات والأحداث التى جرت فى العلوم القريبة من مجاله. وبالطريقة نفسها، فإن التاريخ «الإمبراطورى»، الذى كان يبدو موضوعاً هامشياً للغاية فى مقررات الدراسة التاريخية فى الستينيات قد صار الآن فى وسط المسرح، وتحول وتعزز بتأثير دراسات ما بعد الحداثة وما بعد الاستعمار، كما وفَّر جسراً أساسياً ما بين التواريخ الوطنية والعالمية . وفى جميع هذه المجالات ، كان التحول من الأسباب إلى المعنى، ومن التفسير إلى الفهم لافتًا تمامًا؛ وكلها بدرجة ما تتبع الأجندة البديلة التى كانت قد رُسمت لمؤرخى الفكر السياسى منذ أكثر من ثلاثين سنة خلت(٩).

وعلى أية حال، فمن بين جميع التخصصات الفرعية فى التاريخ والتى كانت موجودة بالفعل عندما كتب كار كتابه، يبدو محتملاً أن التاريخ الدينى كان هو الذى تحول أكثر من غيره بفعل التطورات التى جرت منذ ذلك الحين- بعيداً عن تاريخ المؤسسات واللاهوت (الذى يتحكم فيه الرجال) الذى أعلنه وسانده- ما جرى من اهتمام أوسع بالتدين الشعبي، الذى تتم دراسته من خلال الطقوس، والثقافة والنوع، التى فتحت مجالات واسعة كانت مغلقة وضحية للتجاهل حتى ذلك الحين . والواقع ، فإنه تماماً مثلما كان التاريخ الاجتماعى يبدو وكأنه سوف يكتسح كل ما عداه فى ستينيات القرن العشرين، يبدو التاريخ الثقافى الآن هو الصاعد؛ جزئياً لأنه كان الأكثر تقبلاً لرؤى الأنثروبولوچيا ، وجزئياً لأنه يزعم مزاعم كبيرة للغاية حول مساحة الماضى الذى يحيط به ؛ وجزئياً لأنه كان الأكثر استفادة من تحول الاهتمام من التفسير إلى الفهم. بيد أنه بالنسبة لكثير من الناس اليوم، سواءً كانوا من الأكاديميين أو من غيرهم، فإن أهم تطور خلال العقود القريبة كان يتمثل فى ظهور تاريخ النساء وتاريخ النوع : أى استعادة حياة نصف سكان العالم وتجاربهم، على أساس من الاعتراف بأن النوع لم يكن مفيداً فحسب ، وإنما كان فصيلاً أساسياً فى التحليل والفهم التاريخى(١٠).

وحسبما توضح هذه الفصول بجلاء وحيوية، فإن دراسة التاريخ حسبما مورست فى أثناء العقد الأول من القرن الحادى والعشرين ما تزال قائمة على الرغم من كونها فترة تتسم بحيوية غير عادية وحماسة وابتكار استثنائى . إذ إن المزيد من الناس يكتبون المزيد من الدراسات التاريخية أكثر من أى وقت مضى ، بمعدل غير مسبوق من التخصصات الفرعية وفى أساليب كاشفة لم يسبق لها مثيل . والواقع إن هذه الكثرة بلغت حد أن قدراً كبيرا من البحث التاريخى الذى ينتجه المؤرخون الآن لم يكن يرد أبداً على الذهن أو لم يكن متخيلاً بالمعنى الحرفى للكلمة عندما انطلق كار لوصف الموضوع وتعريفه منذ أربعين سنة مضت . بيد أن هذه ليست الطريقة الوحيدة التى توسع فيها التاريخ وتطور منذ ذلك الحين، لأنه توسع فى كل من المدى والجاذبية على الأقل خارج نطاق الأكاديميين بنفس قدر توسعه داخل هذا النطاق . والانتشار الواسع

فى دراسة تاريخ الأسرة ، والاهتمام المتزايد بتحديد «التراث الوطنى» والحفاظ عليه، والجاذبية غير المسبوقة للتاريخ على شاشات التليفزيون ؛ كل هذه دلالات على اهتمام شعبى متصاعد بالماضى له من الحماسة والطاقة مثل ما هو موجود داخل أسوار المؤسسات الأكاديمية، فالتاريخ الآن يحظى بالثناء باعتباره الـ «تريض الجديد» أو «رقصة الروك آندرول الجديدة» ، ولا يمكن أن يكون هناك شك فى أن إمكانياته الهائلة فى الترويح والإمتاع لم تستغل على النحو الأكمل حتى الآن. بيد أنه أيضًا موضوع جاد ذو قصد عام قوى.

وحسبما يوحى هذا التحذير ، فإن بعض كلمات الحذر واجبة أيضًا. فمهما كان المشهد التاريخى الحالى خصبًا وحيويًا ، سواءً داخل النطاق الأكاديمى أو خارجه ، فإن هناك أيضًا انتقادات وتحديات . إذ إن الكثير من الكتابات التاريخية تجرى الآن لدرجة أن عدداً قليلاً جداً من الباحثين يمكنهم أن يواصلوا التعرف على ما هو أكثر من شذرة غاية فى الضآلة مما ينشر: وكلنا نعرف المزيد والمزيد عما هو أقل وأقل . وظهور هذا العدد الكبير جداً من التخصصات الفرعية يهدد بإنتاج نوع من الشوفينية فى التخصصات الفرعية ، حيث يؤكد بعض الممارسين فى إصرار على أولوية تناولهم للماضى. كما أن التاريخ يكتب اليوم بقدر كبير من النثر الكئيب، أو فى رطانة لايمكن فهمها سوى لعدد قليل من المتحذلقين، وتفشل تمامًا فى الوصول إلى عدد أكبر من الجمهور(١١). كما أن التاريخ خارج الجامعات ليس بلا مشكلات ؛ إذ إن تاريخ الأسرة غارق فى الآثار القديمة، ويخلو من أى إحساس بالصورة العامة؛ ومذهب «التراث الوطنى» كثيراً ما تعميه نزعة الحنين إلى الماضى ويُشوشه الازدراء للغير؛ والتاريخ الذى يقدمه التليفزيون ، بينما يحظى بشعبية غير منكورة وممتاز تمامًا عندما يكون فى أفضل حالاته ، فإنه قد يستفيد- إلى حد كبير- من المزيد من البحث والحوار القوى بين الناس فى وسائل الإعلام والمؤرخين الذين يعرضون بضاعتهم خارجه . هناك إذن ، سبب للاحتفاء والانزعاج على السواء. وربما كان هناك سبب لنوع من التشاؤم المتواضع، أيضًا.

واليوم لم يعد معظم المؤرخين مبهورين بالجهود التى بذلها أسلافهم المحترفون فى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين لتعداد أسباب التغير التاريخى ولتقديم تفسير مقنع بشأن كيف ، ولماذا ومتى حدثت الأشياء . بيد أنه فى أثناء هذين العقدين ، بدت هذه الطريقة فى تناول الماضى تجديدية، ومثيرة ومقنعة وذات صلة فى آن واحد. واليوم يزعم الكثير من الباحثين البارزين أنه فى التحرك من التفسير صوب المعنى، ومن الأسباب صوب الفهم، صرنا أكثر حذقًا بكثير فى فهمنا للماضى . وربما يكون هذا صحيحًا . ومن المؤكد أن هناك حجمًا مؤثرًا من البحث فى الكثير من فروع الدراسة التاريخية لابد وأن يوحى بأن الأمر كذلك . ولكن ، مرة أخرى، ربما لايكون الأمر كله صحيحًا ، لأن المؤرخين ، مثلما أكد كار مرَّات ومرَّات ، هم أنفسهم عناصر العملية التاريخية وضحاياها. ففى كل جيل خرج المؤرخون ليعلنوا أنهم وجدوا مفتاحًا جديدًا يفكك أصول الماضى وجوهره بطريقة لم تحدث بها معالجة تاريخية من قبل. وجيلنا ليس استثناء من هذه القاعدة، وربما لن يكون استثناء من هذا المصير. إذ إن هذه المزاعم لم تصمد أمام اختبار الزمن أبدًا حتى الآن . وربما سيكون المؤرخون ، بعد عشرين سنة، مهتمين بأمر يختلف تمامًا ، وسينظرون خلفهم بدهشة مربكة من أن جيلنا استطاع أن يعتقد، بهذه الدرجة من الثقة ، أن كشف «معنى» الماضى هى مهمة المؤرخ الحاسمة والجوهرية(١٢).

هذه هى بعض المسائل التى أثيرت ولكنها - بحق - لم تحسم على أيدى المشاركين فى هذا الكتاب. فهم أنفسهم يقيمون على كلا جانبى الأطلنطى؛ ولكنهم ليسوا جميعًا من أصحاب التخصصات الفرعية المتنوعة والمختلفة للتاريخ ؛ إذ إنهم يتراوحون فى اهتماماتهم ما بين العالم القديم إلى ألمانيا القرن العشرين. وغالبية المشاركين (مرة أخرى بطريقة لم يكن من الممكن تخيلها منذ أربعين سنة مضت) من النساء . وعندما قدمت هذه الفصول على هيئة محاضرات فى الأصل، فإنها علَّمت ونورت وحفزت ، ومن المؤكد أنها تواصل هذا فى شكلها النهائى ، كما أنها تصل إلى جمهور أوسع كثيرًا . فبعد أربعين سنة منذ كتب كار **What is History?** ، فإن الإجابات المطروحة هنا على هذا السؤال تختلف إلى حد ما بطرق عديدة عن الإجابات التى

قدمها كار. بيد أن الاختلاف ليس كليًا ، فقد عرفنا أن «التاريخ حوار لاينتهى بين الماضى والحاضر»(١٣). وهكذا كان بالفعل إذن ؛ وهكذا ما يزال كذلك فعلاً حتى الآن . وربما تتغير طبيعة الحوار، مع موضوعات المناقشة والناس الذين يناقشونها . ولكن الحوار يستمر، كما ينبغى دائمًا وكما يجب دائمًا ، فى أى مجتمع حر مع الإحساس بذاته موجودًا فى الزمان وعلى مر الزمان.

ولكى نستكمل هذا الكتاب متعدد المؤلفين، وفى دفعه للنشر فى وقت أسرع من المعتاد، فإننى أدرك أن هناك ثلاثة ديون أدين بها بشكل خاص بوصفى محرر الكتاب، والدين الأول لجوزى ديكسون **Josie Dixon** من دار مالجريف ماكميلان، التى بادرت بوضع تصور هذا المشروع ، والتى بذلت قصارى جهدها لتفعيله، والتى كانت مصدراً دائمًا للنصح والتشجيع والدعم التام، ولم تتوان فى عزمها على دفع المشروع قدمًا لتحقيق نتائج ناجحة. والدين الثانى لمكتب تشيس لخدمات النشر **Chase Publishing Services** الذى قام بطباعة نسخة من النص وتحريرها بعناية مفرطة، وتعامل مع كل من المشاركين بمزيج من الانضباط والحزم الذى لايبارى ، وضبط التجارب وعمل الفهرس، وأشرف على الكتاب بصفة عامة. ودينى الثالث للدكتورة ديبرا بيرش **Debra Birch** ، رئيسة قسم الأحداث والتسهيلات فى معهد البحوث التاريخية، التى لم تكتف بتخطيط المؤتمر الأصلى نفسه وترتيبه - بحماستها المعتادة وإخلاصها وكفاءتها وذكائها وبهجتها الطيبة المعهودة - ولكنها أيضًا ضمنت وصول كل الإسهامات فى هذا الكتاب فى موعدها ، فلهم الثلاثة - جميعًا، وأيضًا إلى نموذج إ. هـ. كار الحافز ، أسدى شكرى من القلب.

ديفيد كانادين

ملاحظات وهوامش

(١) For an earlier volume addressing similar issues, see J. Gardiner (ed.), What is History Today? (London: Macmillan, 1988).

(٢) For the background to this book, see R.J. Evans, 'Introduction' in E.H. Carr, What is History? (40th anniversary edition) (Basingstoke: Palgrave, 2001),pp. ix-xlvi.

(٣) D. Cannadine, G.M. Trevelyan: A Life in History (London: HarperCollins, 1992), pp.221-2.

(٤) For the broader 1960s background, see D. Cannadine, 'Historians in the"Liberal Hour": Lawrence Stone andJ.H. Plumb Re-Visited', Historical Research, (forthcoming, 2002); E.J. Hobsbawm, 'From Social History to the History of Society', Daedalus (Winter 1971), pp. 20-45.

(٥) J.P. Kenyon, The History Men: The Historical Profession in England since the Renaissance (London: Weidenfeld and Nicolson, 1983), pp. 278-9; R.J. Evans, 'Afterword', in G.R. Eiton, The Practice ofHistory (2nd edn) (Oxford: Blackwell, 2002), pp. 165-203.

(٦) L. Stone, 'The Revival of Narrative: Reflections on a New Old History', Past & Present, No. 85 (1979), pp. 3-24. See also his 'History and the Social Sciences in the Twentieth Century', in C.F. Dalzell (ed.), The Future of History (Nashville, TN: Vanderbilt University Press, 1977), pp. 3-42.

(٧) G.R. Eiton, Return to Essentials: Some Reflections on the Present State of Historical Study (Cambridge: Cambridge University Press, 1991). Eiton's title bore a close resemblance to John Major's 'Back to Basics' campaign, and met with a similar lack of success.

(٨) These developments are well, if varyingly, covered in J. Tosh, The Pursuit of History (London: Longman, 1991); R.J. Evans, In Defence of History (London: Granta, 1997).

(٩) Q.R.D. Skinner, 'Meaning and Understanding in the History of Ideas', History and Theory, vol. VIII (1969), pp. 3-53.

(١٠) J. Scott, Gender and the Politics of History (New York: Columbia University Press,1988).

(١١) K. Jenkins, Re-thinking History (London: Routledge, 1991); A. Munslow, Deconstructing History (London: Routledge, 1996).

(١٢) Lord Dacre of Glanton (H.R. Trevor-Roper), 'The Continuity of the English Revolution', Transactions of the Royal Historical Society, 6th Series, vol. I (1991), p. 122.

(١٣) E.H. Can, What is History? (Harmondsworth: Penguin, 1964), p. 30.

(١)

استهلال : ما التاريخ ؟ - الآن

ريتشارد ج . إيڤانز

- ١ -

فى سنة ١٩٦١م، طرح كار السؤال : ما التاريخ ؟ وفى سياق هذه المحاضرات التى ألقاها على شرف تريڤليان فى كمبردچ ، وأذيعت فى الإذاعة البريطانية BBC ، وطُبعت فى كتاب باع منذ ذلك الحين ما يزيد على ربع مليون نسخة باتساع العالم، سعى كار إلى الإجابة عن هذا السؤال بعدة طرق ، وبدأ بالتمييز بين التاريخ والمؤرخة السردية Chronicle . فقد كان التاريخ محاولة لفهم الماضى وتفسيره، وشرح أسباب الأشياء وأصولها فى مصطلحات سهلة الإدراك . أما المؤرخة فكانت مجرد تصنيف للحوادث دونما محاولة للربط فيما بينها. كان كاتب المؤرخة يقنع بأن يوضح أن شيئًا ما يتبع شيئًا آخر، أما المؤرخ فكان عليه أن يبيّن أن شيئًا ما يتسبب فى شىء آخر. وبطبيعة الحال، سلم كار بأن شيئًا ما حدث كان جزءًا مهمًا من عمل المؤرخ . لقد كان ذلك هو الأساس الذى يقوم عليه كل شىء. بيد أن الجزء المهم حقًا فى عمل المؤرخ يكمن فى بناء الشرح والتفسير الذى يقام فوق هذا الأساس(١).

لقد كان البحث الدؤوب والدقة فى تقصى الحقائق من الشروط الضرورية من وجهة نظر كار لأن تصير مؤرخًا ، بيد أنها لم تكن كافية بحد ذاتها . فبالنسبة لكاتب المؤرخة ، كانت الحقيقة شيئًا قد حدث فى الماضى. ولكنها لم تصبح «حقيقة تاريخية» سوى عندما التقطها المؤرخ واستخدمها جزءًا فى جدال ما(٢). وعلى أية حال، كانت

المجادلات التاريخية بالنسبة لكار أكثر من مجرد مجادلات بسيطة حول من فعل ماذا في الماضي، ولماذا. لقد كان كار يظن أنه يجب على المؤرخ أن ينظر إلى القوى الأوسع في التاريخ، وإلى التغير الاقتصادي، والتصنيع ، وتكوين الطبقات وصراع الطبقات ، وهكذا، ولكي يفهم المؤرخ هذه القوى يحتاج إلى النظريات التي تطورت في الحاضر، سواء كانت هذه أفكاراً ماركسية من نوع أو آخر ، أم من الأمثلة التي وضعها ماكس فيبر، أو المفاهيم الاجتماعية وما أشبه ذلك. وفي سياق البحث، سلم كار، بأن هذه النظريات سوف يتم تعديلها على نحو أو آخر، وربما تكون هناك حاجة أحياناً لطرحها كلها جانباً ، بيد أن كار أصرَّ على أن العمل الأساسي للمؤرخ ، بمساعدة النظرية أو بدونها ، يتمثل في التمييز بين النماذج والاتساق في الماضي وتفسيره(٣).

وبالنسبة لكار كان الغرض من مثل هذا المشروع مساعدة المجتمع البشري على فهم الحاضر وصياغة المستقبل. وكان الماضي لايهم سوى من حيث إسهامه في هذا العمل. لقد كان يظن أن هناك قدراً قليلاً من المعنى، أو لم يكن ثمة معنى على الإطلاق، في شرح الماضي بمصطلحات الحوادث أو توضيح مقاصد الرجال العظماء. ولم يكن الأمر مجرد أن الاتجاهات الكبرى أو الاتجاهات في التاريخ تزيح جانباً الحوادث والأسباب العارضة، التي لم يكن ممكناً أن يكون لها ما هو أكثر من تأثير قصير المدى وجزئي ومؤقت على الطريقة التي يتحرك التاريخ بها؛ وليس مجرد أن الرجال، حتى العظماء منهم، كانوا نادراً ما يدركون تماماً لماذا فعلوا ما فعلوا، ولم يحدث أبداً تقريباً أنهم أنجزوا ما كانوا يريدونه ، بحيث إن التغير التاريخي غالباً ما كان يحدث بطريقة لم يقصدها أحد على الإطلاق . والأهم من ذلك في نظر كار أن الأسباب والاتجاهات التاريخية كان يهتم بها المؤرخ وحده ، في مواجهة كاتب المؤرخة ، إذا ما كان بإمكانه مساعدة المجتمع على التعامل مع المشكلات التي تواجهه في الزمن الذي يعيش فيه المؤرخ.

وهكذا فإننا حين ندرس تاريخ الثورة الروسية ، مثلما فعل كار على مدى العقود الثلاثة الأخيرة من حياته الطويلة، فإن ما ينبغي أن يثير اهتمامنا – وهو ما أثار

اهتمام كار بالتأكيد - ليس دراما الصراع الثورى، ولا أفكار وأفعال قوى القيصرية المهزومة ، ولا الليبرالية ، والاشتراكية الديموقراطية ، والفوضوية، وهلم جرا ، ولا حتى الأسباب التى جعلت هذه البدائل المطروحة بدلاً من الشيوعية السوفيتية تُهزم بهذه السهولة ؛ لأن لا شيء من هذه يتصل مباشرة بالمشكلات التى تواجه المجتمع فى زماننا. وبدلاً من ذلك يجب أن يكون التركيز الرئيسى لاهتمام المؤرخ ، مثلما كان التركيز الحقيقى للتاريخ الذى كتبه كار فى أربعة عشر مجلداً عن تاريخ روسيا السوفيتية ، منصباً على الكيفية التى طور بها البلاشفة الأفكار التى سعوا إلى تنفيذها عندما تولوا زمام السلطة ، وكيف حدث أن شغلت فكرة الاقتصاد المخطط المركز الأساسى فى تفكيرهم وسياستهم قبل أى شيء آخر[٤].

لقد اتخذ كار وجهة النظر هذه ليس لأنه هو نفسه كانت له خلفية غريبة إلى حد ما - غريبة بالنسبة لمؤرخ - هى أنه لم يكن يعمل فى الحياة الأكاديمية ولكن فى الصحافة والوظائف المدنية. فعلى الرغم من حقيقة أن كتابه **What is History?** قُيِّض له أن يكون أكثر نص مقروء فى موضوعه بين دارسى التاريخ فى كل مكان، فإن كار لم يخدم أبداً فى أحد أقسام التاريخ بالجامعات ولم يحصل أبداً على وظيفة أستاذ تاريخ فى أية مؤسسة أكاديمية، فقد درس الكلاسيكيات، وعمل فى وزارة الخارجية البريطانية، ودرَّس العلاقات الدولية وخدم ضمن طاقم جريدة التايمز **Times** اللندنية، والواقع أن عمله فى مجال العلاقات الدولية فى أيامنا هذه ربما يلقى تقديراً أعلى من عمله فى مجال التاريخ[٥]. هذه الخلفية أعطت كار نظرة فعَّالة للتاريخ ودراسته. وهو مثل كثيرين من الموظفين المدنيين ، لم يكن يهتم سوى بما يمكن أن يخدم صناعة السياسة ؛ وهو مثل كثير من الموظفين المدنيين أيضاً، كان يميل إلى استبعاد من يفتقرون إلى السلطة والقوة - شأن غالبية الناس فى الماضى - على اعتبار أنهم غير مهمين ولا علاقة لهم بالموضوع، وكذلك التنظيم والتعلّم من المشاركة فى تشكيل الأحداث . كان كار، حسبما يقول ناقدوه ، لايهتم حقًا سوى بـ «الأفواج الكبيرة» . وكان يميل إلى الوقوف بسهولة فى جانب أعمال الحكومات والأقوياء، وكان يظن أنه مهما كان ما حدث فإنه مبرَّر تاريخياً ، لقد كان موظفًا فى وزارة الخارجية عليه أن يتعامل مع المواقف القائمة فى السياسات الدولية ولايزعج نفسه بما يمكن أن يكون[٦].

بيـد أن كـار، فـي الوقت الذى كـان يكتب ، ضـرب وترًا قـويًا مع جـيل الطلاب الراديكالى الذى كان قد ظهر لتوه فى أثناء ستينيات القرن العشرين، جيل أطفال ما بعـد الحـرب، الذى اسـتـفـاد من التـوسـع التـعليـمى ، والازدهار المطرد والتـحـررية السياسية العامة فى ذلك العقد. وكان التاريخ بالنسبة لكثير من أبناء هذا الجيل مثيرًا لأنه كـان يقـدم تفسـيرًا للمـاضى وأمـلاً فى المسـتـقبل .. كـانت الثـورات والثـوريون ، والمشـاغبون والمتمردون، وحركات العمال، والاضطرابات والاحتجاجات، والراديكاليون والعُصاة، الذين يحاربون الأرثوذكسيات السطحية والاستبداد القهرى فى زمانهم ، شخوصًا مثيرين لإعادة الاكتشاف وإعادة التعريف فى المناخ القوى المؤثر فى ستينيات القرن العشرين. وربما لم يكونوا مـهمين فى زمانهم، ولكنهم اكتسبوا الأهمية من تأثير أفكارهم فى الحاضر والوعد بالنصر الذى طرحته مثل هذه الأفكار بشأن المستقبل. وكان المتمردون البدائيون فى المجتمع قبل الصناعى يثيرون الاهتمام ، لا لأنهم كانوا بدائيين ، وإنما لكونهم متمردين، وكان تمردهم يشير إلى الأمام ، مهما كان مشوشًا غامضًا ، صوب الحركة الاشتراكية التى ظهرت فى أشكالها العديدة وكأنها تزيح كل أشكال عدم المسـاواة فى زمن مـا بعـد الحـرب فى أوربا الغربيـة والولايات المتـحـدة الأمـريكية[٧].

لقد مسَّ كار وترًا ، أيضًـا ، بدعوته إلى تدريس التاريـخ ، ليس على النحـو الذى كان يُدرس به فى الجامعات القديمة فى أوائل ستينيات القرن العشرين، باعتباره قصة بريطانيا ونفوذها فى العالم ، ولكن على أسس أوسع كثيرًا، مع تركيز أكبر ، مثلاً، على تاريخ روسيا والصين، وهما دولتان كان كار يظن أن فى اعتناقهما للاقتصاد المخطط الكثـير مما يمكن للغرب أن يتـعلمـه ، ووراء ذلك تاريخ «العـالم الثـالث» ، الذى كـان تحريره من الحكم الاستـعمـارى قد بدأ لتـوه عندمـا كتب كـار كتـابه[٨]. والواقع أن محاضراته دشنت بداية جدل طويل متقد بين المؤرخين فى جامعته، كمبردج، وهو ما نتج عنه بعد حوالى خمس سنوات أولى الخطوات التـجـريبيـة تجاه إصلاح مقررات التاريخ للطلاب الجامعيين وفق هذه الخطوط[٩]. وقد سارت دعوته إلى تعليم المزيد من التـاريخ غـيـر البـريطانى وتاريخ خـارج أوربا ، جنبًا إلى جنب مع دعـوة أخـرى فى

صفحات كتابه ?What is History إلى مزيد من التبادل الفكرى بين التاريخ وعلم الاجتماع، ومزيد من البحث فى التاريخ الاجتماعى، والمزيد من الكتابة فيه، وزيادة تدريسه ، وقد لقى هذا أيضًا ترحيبًا من جيل الطلاب فى ستينيات القرن العشرين وكثير من المؤرخين الشباب آنذاك(١٠).

ظن كار أن المؤرخين أناس أبناء زمانهم : فالتاريخ لم يكن مسألة ما يكتبه المؤرخون الأفراد عن الماضى ، بقدر كونه ما يجده مجتمع ما مثيرًا للاهتمام فى مجتمع آخر، منفصل عنه فى الزمان . وبطبيعة الحال، على المورخين أن يكونوا واعين بانحيازاتهم الخاصة ومفاهيمهم المسبقة بحيث يمكنهم التسامى فوقها ، بيد أن عليهم أيضًا أن يدركوا لماذا يكتبون وكيف يمكن لعملهم أن يكون مفيدًا فى مجتمعهم هم(١١). وكان بوسع المؤرخين الشبان الذين أخذوا هذه الرسالة بحماسة أن يشعروا بأنهم يفعلون شيئًا مفيدًا له هدف ، وأن عملهم مهم من الناحية السياسية، وأن اكتشافاتهم ومناقشاتهم لاتعكس فقط اهتمامات المجتمع الذى يعيشون فى رحابه ، بل سيكون لها أيضًا - لهذا السبب ذاته - أثر فكرى حقيقى عليه.

هذا التأثير ، حسبما ظن كار ، سيكون عظيمًا تمامًا لأن التاريخ، فى جوهره ، عمل علمى أكثر منه ممارسة أدبية. إذ إن معاييره فى البرهنة وإجراءاته لم تكن لتختلف كثيرًا عن معايير العلوم وإجراءاتها . فالاتجاهات التاريخية والأنساق التاريخية التى ظن أنها جزء مهم للغاية من مادة المؤرخ يمكن تحديدها وتثبيتها بنفس درجة اليقين التى يتسم بها القانون العلمى(١٢). والمؤرخ الموضوعى هو المؤرخ الذى يمكن أن يؤسس مثل هذه الاتجاهات ثم يقيِّم الناس والمؤسسات والأحداث التى جرت فى الماضى حسب إسهاماتهم فيها. فالتاريخ هو الدراسة العلمية للماضى، وتفسيره فى ضوء القوى الكبرى والتطورات طويلة المدى، بمساعدة من النظرية الاجتماعية، والأسلوب الكمى وغيره من أدوات العلم الاجتماعى هو الذى يسهم فى خلق أساس ثابت للمعرفة التى يتم على أساسها اتخاذ فعل سياسى وقرارات سياسية فى الحاضر(١٣).

كان كتاب كار What is History? مؤثرا على الأقل لأن دعوته كانت مقاربة أكثر علمية للتاريخ جاءت فى وقت كانت الوسائل لتحقيقها قد أصبحت متاحة لتحقيقها . ذلك أن مجىء الكمبيوتر جعل من الممكن للمؤرخين أن يجمعوا ويحللوا معلومات كمية ضخمة عن الماضى بطريقة وبمعدل لم يكن يحلم به أحد من قبل. وبمنتصف ستينيات القرن العشرين، كان المؤرخون فى عدد من البلاد الصناعية المتقدمة يعلنون أنه فى المستقبل ، سيتم بحث التاريخ ليس على أيدى أفراد منعزلين يعملون بأسلوب الكاتب الوحيد، ولكن بواسطة مجموعات، ومعامل ومنظمات تتعاون فى مشروعات واسعة النطاق تستخدم أكثر الأدوات حذقًا فى العلوم الاجتماعية المتقدمة. وقد راجت أنواع عديدة من نظريات العلوم الاجتماعية ، بعضها واسع مثل الماركسية أو نظرية التحديث ؛ وبعضها محدد للغاية ومستمد من العلوم الاجتماعية الأعلى تقنية مثل علم السكان، وعلم القياس الاقتصادى أو السيفولوچى Psephology . وكان معظم تاريخ هذا العلم الاجتماعى قائمًا على أساس أن يكون له عائد مباشر أو غير مباشر فى اتخاذ قرارات الحاضر كذلك، وهو مؤشر جديد على أن توصيات كار كانت تتحقق إلى مدى ربما لم يكن يتخيله أبدًا عندما كتبها(١٤).

وفى غضون ستينيات القرن العشرين ، أيضًا، قامت معظم المجتمعات الصناعية المتقدمة ، بما فيها بريطانيا ، بتوسعات هائلة فى مجال التعليم العالى – وهو تطور آخر دعا إليه كار فى صفحات كتابه What is History? . فقد تم تأسيس جامعات جديدة وتضاعف حجم الجامعات القديمة، وتم تحدي مدارس الفنون والصنائع العليا، كما أن نسبة من يذهبون إلى الجامعة فى كل جيل زادت بشكل يكاد يكون مضاعفًا . وكانت الظروف التى واجهوها عندما وصلوا إلى الجامعات من بين العوامل التى أشعلت شرارة الاضطرابات الطلابية سنة ١٩٦٨م. وعلى المدى الأطول، على أية حال، كان هذا النمو فى أعداد الطلاب يعنى أيضًا زيادة سريعة فى أعداد الأكاديميين الذين يعلمونهم، وقد تضمن هذا بطبيعة الحال المؤرخين. كان المؤرخون الشباب الذين دخلوا

المهنة فى ستينيات القرن العشرين متأثرين بكار بشدة ، وقد انطلقوا فى كل مكان للعمل فى مشروعات جديدة فى التاريخ الاجتماعى مستخدمين نوع المفاهيم الجديدة والمناهج الجديدة التى كان يدافع عنها[١٥]. وإذا ما تحدثنا بشكل فضفاض فإن المناخ الفكرى والسياسى الليبرالى الذى ساد فى الستينيات من القرن العشرين قد استمر على مدى عقد آخر من الزمان، وشجعته الحكومات الليبرالية والديموقراطية التى جاءت إلى السلطة فى بلاد مثل بريطانيا تحت رئاسة ويلسون وكالاهان ، وألمانيا تحت رئاسة براندت وشميدت ، وفرنسا تحت رئاسة چيسكار ديستان، وبشكل أقل، الولايات المتحدة تحت حكم كارتر . وقد باءت محاولات التصدى لتيار الليبرالية فى أوائل السبعينيات من القرن العشرين، تلك المحاولات التى قادها أشخاص مثل هيث فى بريطانيا ونيكسون فى الولايات المتحدة الأمريكية، بفشل ذريع .

ولكن فى نهاية السبعينيات تحولت هذه الحكومات جميعًا إلى حكومات محافظة ، وغالبًا بشكل أكثر جذرية من أسلافهم المتوافقين فى ستينيات القرن العشرين ، وقد تولت الحكم فى ظروف الانحدار الاقتصادى الذى تسببت فيه أزمة البترول فى منتصف ذلك العقد . وكان نمو الجامعات قد توقف ، وكانت الاستقطاعات وأساليب التحكم قد باتت آنذاك هى النظام المعمول به ، وبدا أن الآمال والتطلعات لدى المفكرين الراديكاليين والتقدميين ، بمن فيهم المؤرخين، قد تحطمت . وعلاوة على ذلك فإن علم التاريخ الاجتماعى الذى كان قد حقق السيطرة فى الستينيات كان قد تسرب فى الرمال من عدة نواح ، وفشل الأسلوب الكمى فى تقديم التأكيدات التى كان وعد بها . وحتى بمساعدة الكمبيوتر ، فإن الفجوة بين الجهود التى بُذلت والنتائج التى تم تحقيقها كانت واضحة بشكل مؤلم ، إذ إن الهيمنة الجديدة للنزعة المحافظة ، على المستوى الفكرى والسياسى ، قضت على أية فرصة لجعل اكتشافات المؤرخين الليبراليين والراديكاليين ذات صلة بالمصطلحات السياسية[١٦].

وبشكل أكثر عمقًا ، كان التغير الاجتماعى والاقتصادى يقوض الكثير من المقدمات المنطقية التى كان يعمل عليها الجيل الأصغر من المؤرخين. إذ إن اضمحلال الطبقة العاملة الصناعية القديمة وظهور مجتمع ما بعد الصناعة كشف زيف الفروض

النظرية للماركسية ، تماماً مثلما طرح خطر تدهور البيئة المتزايد علامة استفهام وراء العقيدة الراسخة العمياء لمنظّرى الحداثة فى صالح النمو الصناعى غير المقيد . وبدا أن هناك أنواعًا جديدة من الصراع قائمة على أساس النوع، أو العرق أو الدين أو التوجه الجنسي، أشد إلحاحاً ، وتطلبت بدورها أنواعًا جديدة من التفسير التاريخى . كما اتضح أن نموذج السببية – الذى كان معظم المؤرخين يعملون به، والذى يعمل الاقتصاد فيه على المجتمع، والمجتمع يعمل على السياسة مهما كان ذلك غير مباشر – لم يعد كافيًا . وأخيراً – وبشكل لاينفصل عن هذه التطورات الأخرى– كانت الخطوط الفاصلة الفكرية التى عرفتها فترة ما بعد الحرب قد تآكلت فجأة بسبب الانهيار الدرامى للشيوعية فى الاتحاد السوفيتى وشرق أوربا فى سنة ١٩٨٩–١٩٩٠م . هذه الأحداث دمرت النظريات الكبيرة والغائية التى كان كار قد حثّ المؤرخين على تبنيها، بل إنها دمرت أيضًا أية فكرة عن أن التاريخ يمكن رؤيته على أنه يسير فى اتجاه واحد صوب غرض واحد على الإطلاق . والاعتقاد بأن هذه الفكرة يمكن البرهنة عليها بالمناهج العلمية التى ساد الاعتقاد بأنها تقدم رؤية موضوعية كاشفة للتقدم التاريخى فندته الأحداث ببساطة.

ففى أوائل التسعينيات من القرن العشرين ، بالتالى، كان العالم الفكرى الذى كان كار قد أعلى من شأنه يعانى أزمة عميقة . وفى هذا الموقف ، بدأ بعض المؤرخين الشباب ، ولاسيما أولئك الذين اهتموا بطبيعة الفكر التاريخى نفسه، يتساءلون ليس فقط عن إمكانية الوصول إلى تفسير موضوعى أو فهم موضوعى للماضى ، بل إنهم تساءلوا عن إمكانية معرفة أى شىء على وجه اليقين عن الماضى عامة. وإذ تحولوا عن التاريخ الاجتماعى صوب النظرية اللغوية ، بدءوا يجادلون بأن المؤرخين يعتمدون على النصوص من أجل معرفتهم بالماضى . وفى رأيهم أن النصوص كانت جمعًا تعسفيًا لكلمات كانت بحد ذاتها قد خرجت إلى الوجود فقط من خلال عملية اعتباطية للابتكار البشرى. وفى كل مرة نقرأ فيها نصًا ، بالتالى ، نضع نحن معناه فيه . وهكذا كان الحال مع المؤرخين أيضًا . ومن ثم كان ما كتبه المؤرخون هو ابتكارهم الخاص وليس التمثيل الحقيقى أو الموضوعى للحقيقة فى الماضى، والتى هى فى جوهرها لايمكن استرجاعها[١٧].

وقد أعان هذا المؤرخين الراديكاليين على استخدام التاريخ مرة أخرى لأغراض سياسية ، تماماً مثل بناء هوية المجموعة المحرومة باستعادة ، أو زعم استعادة ، البوادر من الماضى. بيد أنه لم يكن هناك شىء فى هذه المقاربة يمنع الجماعات اليمينية من أن تفعل الشىء ذاته ، وهى مشكلة كان عدد قليل من الراديكاليين على استعداد للاعتراف بها . وعلاوة على ذلك ، كان هناك تناقض واضح فى موقف أصحاب النظرية اللغوية؛ فإذا كان كل المعنى قد أودع فى النص من جانب القارئ ؛ فلماذا إذن لايجب أن نكون قادرين على أن نرى فى كتاباتهم هم أى معنى نريده ، بما فى ذلك (إذا ما وصلنا بالجدل إلى نهايته العبثية) الرأى بأن المعرفة المضبوطة الموضوعية التى لايمكن دحضها عن الماضى كانت ممكنة فعلاً[١٨]؟

وبالنسبة لمعظم سنوات التسعينيات من القرن العشرين ، نشب الجدل حول هذه النظريات عندما بدأ كثير من المؤرخين يشعرون بأزمة حادة فى مهنتهم[١٩]. لقد كان الاعتراف بأن المقاربة الاجتماعية – العلمية التى دافع عنها كار لم تقدم ما كانت قد وعدت به أمراً مؤلمًا وصعبًا وأدى إلى بعض حالات اليأس العدمية. وإلى درجة ما، كانت هذه المشكلات مرتبطة بمزيد من التوسع فى التعليم العالى فى أوائل التسعينيات ، التى كان الإقبال فيها على الموضوعات التطبيقية مثل دراسة الأعمال أكثر من العلوم الأكاديمية التقليدية مثل التاريخ ، الذى كانت فائدته العلمية فى نظر كثير من الطلاب ضئيلة بشكل واضح . وبطبيعة الحال، فقد ظل هناك عدد أكبر كثيراً من المؤرخين ودارسى التاريخ حوالى سنة ٢٠٠٠م مما كان قبل أربعين سنة عندما كان كار يكتب، ولكن هذا التوسع فى المهنة كان قد أدى إلى تشرذم متزايد عندما تكاثرت التخصصات الفرعية وصار البحث والنشر أكثر تخصصاً عن ذى قبل طلبًا لمعرفة تاريخية جديدة . كانت التأثيرات المدمرة على قدرة التاريخ على التواصل مع جمهور أوسع مرتبطة بالتأكيد من جانب المؤرخين الاجتماعيين بالرطانة غير المفهومة، والأسلوب الكمى، والاتجاهات الكبرى والمتوسطات التاريخية. وفى كثير من المؤلفات التاريخية فى السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن العشرين، غاب الأفراد من الناس واختفوا عن نظر المؤرخين، ولم يؤد نقص الاهتمام الإنسانى فى الكثير من الكتابة التاريخية فى هذه الفترة إلى أن تكسب كتب التاريخ الكثير من القراء.

وفيما بين بعض المؤرخين ، فشل التحول إلى النظرية اللغوية أيضا فى أن يحقق أية فائدة فى مجال كسب القراء، لأنه ببساطة أحل رطانة غير مفهومة محل أخرى[٢٠]. بيد أن هذا النوع من الكتابة لم يترك أثراً فى مجال التدوين التاريخى **historiography** ، شأنه شأن الأفكار التى أفرزته ، وهو المجال الذى كان قد صار فى العقود التى مضت منذ كتب كار تخصصاً فرعياً متمايزاً من فروع الدراسة التاريخية بحد ذاتها. وكان المؤرخون الاجتماعيون فى العقدين أو الثلاثة عقود السابقة قد بدءوا يعلنون موت التاريخ «التقليدى» ويؤكدون أن طريقتهم فى دراسة التاريخ قد جعلت كل الطرق الأخرى عفا عليها الزمن. وأصر بعضهم على القول بأن التاريخ الاجتماعى، لم يكن فرعاً من فروع التاريخ، وإنما كان طريقة كاملة لدراسة التاريخ، ومنهجاً لابد أن يتفوق على جميع المناهج الأخرى فى الوقت المناسب. وبعد سنوات قليلة ، على أية حال، تم التخلى عن هذا الطموح وهجرانه، وبدلاً من ذلك ، كان المؤرخون الاجتماعيون قد جعلوا من أنفسهم تخصصاً فرعياً داخل علم التاريخ، مجهزين بالأدوات المعتادة للمجتمع، ومجلة وشبكة مؤتمرات يمكن فيها أن يمضوا معظم وقتهم فى الحديث إلى بعضهم البعض بدلاً من الحفاظ على حملتهم التى بدت بدون طائل لتحويل الآخرين - أى المؤرخين السياسيين والمؤرخين الاقتصاديين والمؤرخين الدبلوماسيين، والمؤرخين العسكريين ، وغيرهم - إلى طريقتهم فى التفكير .

ومع السنوات الأولى فى القرن الحادى والعشرين، كان المنظرون التاريخيون الذين انشغلوا بإعلان استحالة المعرفة التاريخية وموت مهنة المؤرخين قبل سنوات قليلة ، يفعلون الشىء نفسه وينظمون المؤتمرات لأنفسهم ويؤسسون مجلة **(Rethinking History)** ويتخلون عن حماستهم الصليبية الأصلية من أجل انفصال مؤسسى أكثر راحة. وعلى كل حال ، فإن مهنة المؤرخين لم تَنْهَرْ . إذ لم يتوقف الناس عن كتابة التاريخ، ولم يتوقف الطلاب وعامة القراء عن الاعتقاد بأن المؤرخين كانوا يخبرونهم بعض الحقيقة عن الماضى. وكان الإحساس بأزمة مهنة المؤرخين يمضى إلى حال سبيله كلما خبت المجادلات التى تولدت عنه وتلاشت .

بيد أن هذا كله كان قد ترك أثره على الإجابة التى طرحت فى أوائل القرن الحادى والعشرين على السؤال ، ما التاريخ؟ لم يخرج المؤرخون من المعركة مع نزعة الشك الفائقة التى ميزت ما بعد الحداثة دون أن يتغيروا . أو بعبارة أخرى كانت للتطورات العامة – التى أدت إلى الجدل حول إمكانية المعرفة التاريخية فى تسعينيات القرن العشرين – تأثيراتها على الطريقة التى يعمل بها المؤرخون ويفكرون بها. فأولاً، تحطمت بشكل فعال الحتمية الاقتصادية التى تكمن تحت الكثير من الكتابة التاريخية فى السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، وفى مكانها ظهر تأكيد جديد على التاريخ الثقافى، على جوانب الهوية والوعى والذهنية بدلاً من البناء الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى والأسس الاقتصادية للقوة الاجتماعية[٢١]. وقد أدى انهيار السرديات الكبرى والنظريات الغائية الكبرى فى التاريخ إلى المساعدة فى إعادة التأكيد على أهمية البشر فى السجل التاريخى. فقد بدأ المؤرخون يكتبون عن الناس من جديد، وفوق هذا وذاك عن الناس المتواضعين والعاديين ، والذين يحجبهم التاريخ، والفاشلين والمهمشين فى مجرى التغير التاريخى. ولم يكن كار ليوافق على هذا .

ولم يكن ليوافق أيضًا على تحول المؤرخين صوب دراسة ما هو غير عقلانى وشاذ وخارج عن المألوف . وكان سيظن أنها مضيعة للوقت أن تدرس أفكار المتخصصين فى الكتابة عن الشياطين فى العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث، أو المعتقدات الكوزمولوچية الغريبة لطحان إيطالى متواضع، أو الحياة الاجتماعية والروحية للهراطقة الكاثاريين فى القرن الثالث عشر(*)، أو المخاوف التى اشترك فيها جزء كبير من السكان الريفيين فى فرنسا وأجزاء أخرى من غرب أوربا حتى منتصف القرن التاسع عشر وما بعد ذلك فى بعض الحالات[٢٢]. ولم يكرس المؤرخون جهودهم لفهم هذه الأشياء لأنهم يظنون أنها ستكون مفيدة فى تأطير السياسات الحكومية فى الحاضر،

(*) هذه فرقة ظهرت فى جنوب فرنسا فى القرن الثالث عشر منشقة على الكنيسة الكاثوليكية وقد أطلقوا على أنفسهم اسم «الأطهار Cathari» ، وقد تحالفت الملكية الفرنسية مع البابوية وشنوا عليهم حملة صليبية عرفت باسم «الحملة الصليبية الألبيچنسية» فى التاريخ ، واستمرت نحو ثلاثين سنة ونتج عنها دمار الجنوب الفرنسى الذى كان أكثر تقدماً وتحضراً من بقية أنحاء البلاد . (المترجم)

أو لأنهم يظنون أنه يمكنهم الإسهام فى تطوير أيديولوچيـة سـياسية مخصـوصة . وإذا كـان هناك شـىء واحد يشـترك فيـه مـختلف المفسـرين لهـذا النوع من التـاريخ الثقافى، فمن الواضح أنه الاعتقاد بأن الكتـابة التاريخية يمكن أن تعزز تقديرنا للشرط الإنسـانى عن طريق إعادة المعتقدات والثقافات إلى الحياة وتفسيرها، وهى المعتقدات والثـقافـات التى تخـتلف تمامًـا عن معـتـقداتنا وثقـافتنا، وربما نضـيف بهـذا إلى ثراء التجربة الإنسانية والفهم الإنسـانى، وأن نرعى التسامح بين الثقافات ونظم المعتقدات المختلفة فى زماننا.

وبطبيـعة الحـال، لايعنى التحـول صـوب التاريخ الثقـافى أن الأشكال الأخرى من التاريـخ قد اختفت . إذ إن التاريخ صفحة رق أثرية عتيقة ، أى قطعة رق من العصور الوسطى ، اختفى فيها الحبر بعد كتابة نص ما، وتمت كتابة وثيقة أخرى فوقها، حتى تتجمع عدة طبقات من الكتابة على مرِّ السنين ، كل طبقة منها فوق الأخرى. كذلك ما يزال هناك مؤرخـون دبلومـاسيون يكتبون بـالأسلوب وبالفروض التى كانت قـائمة منذ سنين كثيرة مـضت، تمامًـا مثلما لايزال هنـاك من يحبذون نظرية «الرجل العظيم» فى التاريخ، وما يزال هناك المؤرخون الذين يظنون أن لاشىء يهم باستثناء أفعال حفنة من الناس الناشطين سياسيًا على القمة . وبالطريقة نفسـها فإن المؤرخين الاقتصـاديين ومؤرخى القياس الاقتصادى مـا يزالون يمارسـون مهنتهم المستعصية على الفهم فى غموض لطيف فى الدوريات العلميـة ، والمجلدات التى تصـدر عن المؤتمرات والرسـائل الممولة، على حين أن المؤرخين الاجتماعيين ما يزالون لايرون سببًا فى تفكيك جمعياتهم أو إغلاق مجلاتهم[٢٣]. وتشـهد فصـول هذا الكتـاب بالحيوية المستمرة لأنواع مـختلفة كثـيرة من التـاريخ، بعضـهـا غير مـعروف لكار، أو اعتبـرها غير مـهمة بالقدر الذى لاتستـحق به الذكر. وعلى أية حـال ، فإن القليل، إن كـان هناك أى منه، لم يتـأثر تمامًا بالتغيرات الفكرية والثقافية التى جرت فى الخمس عشرة سنة الماضية، كما أن كثيرًا منها - بما فى ذلك تلك الأنواع التى كان كار على ألفة بها - يبدو مـختلفًا تمامًا عما كانت تبدو عليه تلك الأنواع فى زمن كار منذ أربعين سنة مضت.

- ٣ -

بالنسبة لأغلبية المؤرخين الأصغر سنًا ، على أية حال، كان التحول إلى التاريخ الثقافى حاسمًا . ولايعنى هذا بالضرورة أنهم كانوا قد رفضوا النظريات ، والمناهج ، وموضوعات الدراسة المفضلة لدى المؤرخين السياسيين أو الاجتماعيين تمامًا ، وإنما يعنى بالفعل أنهم يرونها ويستخدمونها بطريقة مختلفة . وقد نتج عن هذا، فى بريطانيا وفى الولايات المتحدة على الأقل، جاذبية شعبية غير متوقعة . ذلك أن البحث التاريخى ، وكتابة التاريخ وتدريسه ، لم تتطور فى العقد الأخير أو أكثر، فى فراغ ثقافى ، كما كان للتغيرات الثقافية التى جرت فى فترة ما بعد الحرب الباردة تأثير درامى على مكانة التاريخ والمؤرخين فى الحياة الثقافية فى مجتمع ما بعد الصناعة.

إن الوعى بالتاريخ قد انتشر فى كل مكان مع بداية القرن الحادى والعشرين. وحيثما ننظر نجده حاضرًا . ومنذ أواخر ثمانينيات القرن العشرين كانت هناك موجة من الآثار والتذكارات العامة لضحايا مذابح النازى فى أثناء الحرب العالمية الثانية، من المتحف التذكارى للهولوكوست فى العاصمة واشنطن إلى معرض الهولوكوست الذى يشغل أحد أجنحة متحف الحرب الإمبراطورى فى لندن. وقد روعى فى بناء العاصمة الألمانية الجديدة برلين أن يكون فى مركزها النصب التذكارى للقتلى اليهود. وفى كافة أرجاء أوربا، كانت هناك تصرفات قانونية ضد مجرمى الحرب الذين تم إهمالهم طويلاً منها تصرفات لإعادة الأملاك المنهوبة ، وحملات (على الأقل نجحت جزئيًا) للتعويض عن الضحايا مثل الملايين من عمال السخرة الذين نقلوا إلى ألمانيا من البلاد المقهورة وأجبروا على العمل تحت ظروف غير إنسانية وقاتلة فى كثير من الأحيان. إذ إن المجتمع استعاد الذاكرة العامة لجرائم النازية فى الوقت الذى تلاشى فيه ضحايا النازية القدامى الذين بلغ به الكبر عتيًا(٢٤).

وقد سارت الثقافة الأدبية على نهج هذه الاستعادة للذاكرة وأخذت توجه نفسها بشكل متزايد صوب الماضى . إذ إن الروائيين فى فترة ما بعد الحرب، مثل كينجسلى آميس **Kingsley Amis** وإيريس موردوخ ، **Iris Murdoch** ، كتبوا عن المجتمع المعاصر ،

ولكن أفضل الروايات فى تسعينيات القرن العشرين ، وأوائل القرن الحادى والعشرين ، غالبًا ما تتخذ من الماضى موضوعًا لها، سواء كان الكاتب هو سباستيان فولكس Sebastian Fulks ، أو ميشيل أونداتچى Michael Ondaatje أو ماتيو كنيل Mathew Kneale ، أو غيرهم ؛ بل إن رواية تدور فى الفترة المعاصرة مثل رواية زادى سميث Zadie Smith الناجحة عن جدارة تحمل الماضى على الحاضر. وهذه ليست روايات تاريخية بمعنى أن غرضها الأساسى ليس إعادة خلق عالم الماضى من خلال ممارسة الخيال الروائى ؛ بل هى بالأحرى روايات تجد من الأسهل مخاطبة اهتمامات الحاضر بوضعها فى سياق الماضى[٢٥].

كما أن صناعة السينما تحولت صوب الماضى بحثًا عن موضوعات لها . فالأفلام مثل فيلم «العدو على الأبواب Enemy at the Gates» ، و«بيرل هاربور Pearl Harbour» و «U- 571 or Enigma» ونظراؤها على شاشة التليفزيون فى مسلسلات فخمة الإنتاج مثل «عصبة الإخوة Band of Brothers» تشهد على ولع صناعة السينما بالحرب العالمية الثانية، بيد أن هناك أفلامًا كبرى أخرى من فترة التسعينيات فى القرن العشرين قامت على أساس موضوعات تاريخية أكثر بُعدًا فى الزمان ، من غرق السفينة تيتانيك، أو إسهام فيلم The Patriot فى حرب الاستقلال الأمريكية، إلى الحرب من أجل حرية اسكتلندا فى العصور الوسطى التى كانت موضوع أفلام Braveheart و Gladiator و Titanic ، كانت من أكبر الأفلام فى ذلك الوقت. وعلى شاشة التليفزيون البريطانى قيل إن أحد المنتجين قد أعلن أن التاريخ «هو مهنة البستانية الجديد»، يحل محل أسلوب الحياة على قمة الترتيب والتصنيف، وقد اجتذب فيلم داڤيد ستاركى David Starkey الذى يحمل عنوان «زوجات هنرى الثامن الست The Six Wives of HenryVIII » أربعة ملايين مشاهد إلى القناة الرابعة فى التليفزيون ، على حين أن سلسلة من البرامج عن إنجلترا فى القرن السابع عشر – الوباء، النار، الحرب والخيانة Plague, Fire, War, Treason – فاقت هذا بأربعة ملايين وثلاثمائة ألف مشاهد. وكان هناك أكثر من هذا كثيرًا[٢٦].

ولم تول أفلام هوليود الدقة التاريخية سوى قدر ضئيل من الاهتمام إذا ما تعارضت مع منظور الربح الجيد، وربما يكون هذا هو السبب فى أن فيلم U- 571 ، قد وضع بدلاً من طاقم الغواصة البريطانية التى اشتبكت فى الحادثة التاريخية الحقيقية التى انبنى عليها الفيلم ، طاقماً أمريكيًا ، أو أن هذا هو السبب فى أن فيلم «العدو على الأبواب» قد جعل من شخصية خيالية لقناص ألمانى الشخصية المركزية فى الفيلم فى تصويره لمعركة ستالينجراد(٢٧). ومع هذا ، فإن البحث التفصيلى ، وفوق هذا وذلك ، الخيال الذى تولد عن الكمبيوتر ، يسمح لمخرجى الأفلام بأن يرسموا مسرح مثل هذا العمل بدرجة غير مسبوقة من التفاصيل التى تبدو حقيقية. وعلى الشاشة الصغيرة ، تفعل الأساليب نفسها، التى يسندها إعداد درامى يعيد بناء الحدث بعناية، نفس الفعل. وعلاوة على ذلك ، انشغل المؤرخون المحترفون فى إعداد هذه البرامج بدرجة أكبر كثيراً مما كان معتاداً فى هذه الأحوال. فمن الذى كان سيفكر ، مثلاً ، أن ملايين المشاهدين سوف ينجذبون إلى برنامج عن الوباء الذى ضرب لندن سنة ١٦٦٥م ، قائمًا على أساس سلسلة من الموضوعات فى سجل إحدى الكنائس، أو مسلسل كانت فيه المستخرجات من الخطابات والوثائق المعاصرة تشكل الجزء المركزى فيه، كما هو الحال فى مسلسل «زوجات هنرى الثامن الست»(٢٨)؟

والمدهش فى هذه البرامج التاريخية الحقيقية ليس فى مجرد أنها من إعداد باحثين تاريخيين جادين، ولكن أبعد من ذلك كثيراً ، حقيقة إنها تقدم بواسطة مؤرخين بعينهم يقفون أمام الكاميرا ويقدمون رأيًا شخصيًا بشكل واضح؛ بيد أنه رأى قائم بوضوح على معرفة عميقة بالموضوع. وهذا تناقض حاد مع الأسلوب الذى كانت البرامج التاريخية تقدم به منذ نحو عشر سنوات مضت ، مع تأكيدها على حيادية تدعمها الحجة ولاتبدو خاطئة . والصوت الشخصى هو الذى يُحسب ، أيضًا ، فى كتب التاريخ التى حازت مثل هذه الشعبية غير العادية فى السنوات القليلة الماضية ، وأكثرها لفتًا للانتباه كتاب نورمان ديفيز Norman Davies بعنوان : أوربا : دراسة تاريخية» . Europe : A History (Oxford: Oxford University press, 1996)

وكتاب (The Isles : (Basingstoke Macmillan 2000 ، ولكن كتبًا أخرى كثيرة تتناول بالتفصيل موضوعات مثل حياة هتلر(٢٩)، أو التصرفات الجنسية الخاطئة لنساء النبلاء في القرن الثامن عشر، وهو موضوع كتاب :Stella Tillyard , Aristocrats (London (Flaming 1993 وكتاب جورجيانا (Amanda Foreman, Geogiana (London: Flaming , 1999 هناك أيضًا عبق المعرفة الغزيرة والتوثيق من ناحية ، وصوت المؤلف القوى من ناحية أخرى - وهو خليط يبدو أنه يجتذب العامة إلى التاريخ على نحو لم يحدث أبدًا من قبل.

وإلى حد ما ، ربما يكون الجوع إلى التاريخ بين الجماهير من البالغين الذين يقرءون الكتب، ويشاهدون التليفزيون ، ويذهبون إلى السينما ، انعكاسًا للحقيقة القائلة بأنهم *كانوا* يتضورون جوعًا *للتاريخ* بسبب تدنى تدريس *التاريخ* في *المدارس*، حيث كانت الموضوعات السنوية في امتحانات التخرج من المدارس الإنجليزية في التاريخ ، على المستوى A قد نزلت من ٤٧ ألفًا إلى ٣٨ ألفا وخمسمائة فيما بين سنة ١٩٩٢م إلى سنة ١٩٩٩م . والازدهار الحالى للتاريخ في وسائل الإعلام ربما يكون في النهاية معاكسًا لهذا الاتجاه الهابط . ولكن من المؤكد أن هناك أسبابًا أعمق وأوسع أيضًا. فالتاريخ الذى يُكتب ويُبحث، كما يُقدم إلى جماهير القراء، في بداية القرن الحادى والعشرين، هو عن الهوية، عن من نكون نحن ومن أين أتينا . وفي زمن تدهورت فيه المصادر الأخرى للهوية مثل الطبقة والإقليم، يخطو التاريخ متقدمًا لكى يملأ هذا الفراغ(٣٠).

وعلاوة على ذلك، فالتاريخ مهم مرة أخرى في بناء الهوية الوطنية ، في إنجلترا أكثر من أى مكان آخر، حيث إن فكرة الوحدة البريطانية تدهورت في مواجهة إعادة إحياء النزعة الوطنية الويلزية والإسكتلندية من ناحية ، والاندماج المتنامى في أوربا من ناحية أخرى، قد ترك الإنجليز يتساءلون عمن يكونوا هم على الأرض اليوم. فالشاى عصرًا والكركيت على خضرة القرية، صورة الحنين للماضى المتمايزة التى أججها رئيس الوزراء المحافظ السابق چون مايور لاتكفى للإجابة عن السؤال. فالتاريخ والتراث الوطنى هو ما يتطلع إليه الشعب الإنجليزى بدلاً من ذلك. وبالإضافة إلى ذلك ،

فإنه – مع سقوط الشيوعية – اختفى القطب السالب الذى حددت الديموقراطيات الغربية فى مواجهته قيمها السياسية والاجتماعية الجوهرية . كما أن الاشتراكية ، قد اختفت بالفعل، لدرجة أن الليبراليين والمحافظين يبحثون عن صورة مضادة لكى تتناقض مع مذاهبهم. وكانت النازية الألمانية تحقق كل هذه المعايير بشكل أكثر من اللازم ، وهذا هو السبب فى أن الرايخ الثالث وجرائمه صارت بالنسبة للذاكرة العامة تحتل مكان المركز فى ثقافة المجتمعات الصناعية المتقدمة فى أوربا وفى أمريكا الشمالية منذ سقوط الشيوعية(٣١).

إلا أن طلب الجماهير للتاريخ لايتوقف عند الحرب العالمية الثانية. وأحد الجوانب الأكثر إثارة للدهشة فى الازدهار الحالى يتمثل فى الطريقة التى يتم بها تناول أية فترة أو أى موضوع فى التاريخ منذ الڤيكنج حتى العصر الڤيكتورى . فبلاد الإغريق القديمة، ومصر الفرعونية ، وحروب الإسكندر الأكبر ، وسقوط الإنكا صنعت مسلسلات جماهيرية على شاشة التليفزيون فى بريطانيا ، شأنها شأن النازيين ، والحرب بين هتلر وستالين ، أو أسرار مركز فك شفرات الجاسوسية فى بليتشيلى بارك **Bletchley Park** . لقد اكتشفت وسائل الإعلام أن التاريخ معين لاينضب من القصص الإنسانية. إن غرابة الناس فى الماضى تجعلنا نرتاح تماماً لهوياتنا فى القرن الحادى والعشرين .

ولكن، هل هذا هو التاريخ كما عرّفه كار ؟ ربما لايكون كذلك ، إذا ما ركّز المرء على اعتقاده بأن التاريخ يهتم بالقوى الكبرى والحركات الضخمة . وربما يكون كذلك ، على أية حال، إذا مارضى المرء بتعريفه التاريخ باعتباره شرحًا وتفسيراً بدلاً من أن يكون ببساطة حكاية قصة– حتى على الرغم من أن حكاية القصة، بطبيعة الحال، تجسِّد درجة من التفسير البسيط من خلال اختيار تتابع للأحداث باعتباره تتابعًا ذا معنى، بدلاً من اختيار تسلسل آخر. إن التاريخ فى وسائل الإعلام وفى المكتبات ذو نوعية تختلف اختلافًا كبيراً، بطبيعة الحال، ولكن أفضل البرامج مثل برنامج لورنس ريس **Lawrence Rees** الذى يحمل عنوان **"The Nazi - A Warning of History"** ، يعمد إلى نقل سلسلة كاملة من المجادلات المعقدة تماماً دون أن يخسر جمهوره ،

وما يبدو رواية مباشرة للأحداث مثل برنامج داڤيد ستاركى عن «زوجات هنرى الثامن الست» ، يحمل فى طياته تفسيراً كاملاً - أحياناً يكون ضمنياً وأحيانا أخرى يكون علانية - للطريقة التى يعمل بها التاريخ : فى هذه الحالة ، فإن الرؤية القديمة، إلى حد ما، هى التى تتشكل ملامحها من خلال نزوات الأفراد الأقوياء ورغباتهم. بيد أن البرنامج نفسه يعمد أيضاً إلى أن يتخطى، عند مستوى أدنى كثيراً، مجموعة أخرى مختلفة تماماً من المناقشات عن طبيعة مجتمع البلاط فى إنجلترا تحت حكم أسرة تيودور ، والأخلاقيات الجنسية لكبار الأرستقراطيين، ودور النساء فى مركز السلطة، وجوانب أخرى كثيرة من التاريخ الاجتماعى للنخب فى عصر آل تيودور.

ولا يعنى أى من هذا، طبعاً، أن التاريخ الأكاديمى بالمعنى الضيق قد غاب عن الوجود. وعلى العكس ، فإن الازدهار الجارى فى التاريخ الشعبى من كل الأنواع يقوم على أساس من البحث التفصيلى ، وغالبا ما تحمله الرسائل العلمية الصارمة ، والمجلات العلمية محدودة التوزيع، والمؤتمرات الصغيرة وسيمنارات البحث المتخصصة . إن العمل المضنى لإنتاج طبعات علمية يُعتد بها من الوثائق يبقى أمراً جوهرياً. وعلاوة على ذلك فإن توصيل التاريخ إلى جمهور عريض ينطوى بالضرورة على درجة من التبسيط أو ، فى حالة أفلام هوليود ، حتى التشويش والتشويه المتعمد . والمستويات التعليمية اليوم بشكل عام أعلى كثيراً فى المجتمعات الصناعية أو ما بعد الصناعية مما كانت عليه منذ أربعين سنة مضت . ويدرك جمهور السينما والتليفزيون تمام الإدراك حقيقة أن هناك رأياً مخصوصاً تتم تقويته وربما يكون مثيراً للجدل أو حتى منحازاً ، والدليل هو أن هناك شطراً كبيراً من مثل هذا الجمهور قد ارتقى إلى مستوى قراءة التاريخ الجدى نتيجة لهذا. وتماماً مثلما تؤدى تعديلات السينما أو التليفزيون لرواية لچان أوستن **Jane Austen** إلى زيادة ضخمة فى مبيعات الرواية ، فإن برنامجاً تليفزيونيا مثل «عصبة الإخوة» ، القصة التى تحولت إلى عمل درامى عن وحدة من المظليين الأمريكيين منذ هبوطهم على أرض نورماندى سنة ١٩٤٤م حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، بعد ذلك بعشرة شهور، قد تسببت فى أن الكتاب الذى قامت على أساسه ، والذى كتبه المؤرخ الأكاديمى ستيفن آمبروز **Stephen Ambrose** ، تربع على قائمة أعلى المبيعات فى الولايات المتحدة[٣٢].

لقد تمكن المؤرخون ، وعلى رأسهم المؤرخون الأكاديميون ، من الاستجابة لهذا الازدهار الجديد، ومن أن يسهموا بنصيب فى الشعبية الجارية لموضوعهم بدرجة لم تكن ممكنة قبل عشرين سنة مضت ، عندما تمت كتابة التاريخ الشعبى وتقويته أساساً على أيدى الصحفيين والكتاب المستقلين ، كما أن المؤرخين من أمثال تايلور **A.J.P. Taylor** ، الذى وصل إلى جمهور أوسع كانوا نادرين حقًا . إذ إنهم عادة، مثل تايلور وكار نفسه ، كانت لهم تجربة صحفية ممتدة وهو ما ساعدهم على التملص من حدود الأكاديمية والوصول إلى عامة القراء[٣٣]. وعلى أية حال ، فإنه بالنسبة لأغلبية المؤرخين ، أدى نفوذ العلوم الاجتماعية والتمسك بالنموذج العلمى الذى أعلنه كار، إلى إقامة حواجز منيعة تحول دون التواصل خارج نطاق المهنة ذاتها. *ولكن المؤرخين لم يكونوا* يريدون حقًا أن يصلوا إلى جمهور أكبر ، لأن هذا يُشتم منه رائحة السوقية «والتدنى» والتخلى عن المعالجة الواعية والعلمية التى كانوا يفضلونها فى تلك السنوات؛ وهى تمثل جميع الخطايا التى اتهم بها تايلور فى أيامه. وبطبيعة الحال، كان هناك دائمًا مؤرخون تحظى مؤلفاتهم بعدد كبير من القراء؛ مثل تريڤيليان ، واللورد ماكولى **Lord Macaulay** من قبله . ولكن الأسلوب الأدبى فى كتابة التاريخ الذى مارسوه لم تعد له الأفضلية بحلول الستينيات من القرن العشرين ، وعلى أية حال، فإنهم كانوا يكتبون لنخبة ذات تعليم عال وأدب راق . والمؤرخون اليوم يتواصلون مع جمهور أوسع كثيراً عندما يتحدثون فى الراديو أو التليفزيون، وهم يفعلون هذا على أساس من البحث الذى يدين بالقليل للمناهج الأدبية والنماذج الأدبية التى استخدمها تراث الهويج الذى كان ماكولى وتريڤيليان ينتميان إليه.

وكان ما ساعدهم على ذلك ، وهو أمر ربما يدعو إلى السخرية ، تأثير نظريات ما بعد الحداثة التى كانت السببية أكثر تجلياتها تطرفًا باعتبارها إحساساً بالأزمة فى مهنة التاريخ فى منتصف ستينيات القرن العشرين. وقد فشل تأكيد ما بعد الحداثة على التاريخ بوصفه شكلاً من أشكال الأدب، وعلى فردية قراءة المؤرخ للماضى ، وعلى المؤرخ بوصفه مبدعًا للخيال بدلاً من دعمه للمعرفة الموضوعية ، فى النهاية بإقناع المؤرخين بأن ما يفعلونه هو نفس ما يفعله الروائيون والشعراء. ولكن كان له

التأثير فى كثير من مناطق الدراسة التاريخية من حيث تشجيعهم على الخروج من وراء حُجب الموضوعية العلمية وأن يعلو صوتهم مرة أخرى . وربما يكون هذا باعثًا على السخرية بالنظر إلى الحقيقة القائلة بأن كثيراً من أنصار ما بعد الحداثة قد أنكروا وجود الصوت العارف تمامًا ، مفضلين أن يعزوا ميزات هائلة فى خلق المعنى لقارئ النص بدلاً من كاتبه . ولكن تأثير المنظرين من أمثال هايدن هوايت **Hayden White** الذين قدموا المؤرخين وحللوهم بالمصطلحات ذاتها التى قدموا بها وحللوا الروائيين وكتاب القصة، ساعد على الرغم من هذا فى خلق مناخ ثقافى يمكن فيه للمؤرخ الفرد أن يتبنى هوية علمية قوية دون أن يضحى بأى حال بما يدعيه التاريخ بأنه يقدم رؤية دقيقة للماضى. إن نقل المؤرخين من عاملين مجهولين فى معامل علم التاريخ إلى شخصيات جسورة وحية تدعم تفسيراً خاصًا وتتبنى وجهة نظر شخصية يرمز إليه فعلا استبدال برامج التليفزيون التاريخية والأصوات المجهولة الداعمة بوضوح للطرح الأرشيفى المقدم والصور الثابتة، بمقدمين أفراد يصاحبهم إعادة البناء الدرامى ويتحدثون للكاميرا فى سياقات تاريخية حقيقية. وبدون هايدن هوايت لما كان هناك داڤيد ستاركى؛ وبدون ما بعد الحداثة لما كان هناك سيمون شاما **Simon Schama**[٣١].

وربما بدون كار، لما كان هناك شيء من هذا على الإطلاق ؛ إذ كان كار على رأس الجميع هو الذى جادل فى كتابه **What is History ?**، بأن المؤرخين ليسوا أوعية فارغة تنتقل عبرها حقيقة الماضى من الوثائق إلى القارئ ، ولكنهم هم الأفراد الذين وضعوا آراءهم وفروضهم الخاصة فى مؤلفاتهم، التى لابد أن تقرأ مع وضع هذا فى أذهانهم. ادرس المؤرخ قبل أن تدرس كتابه، تلك كانت نصيحة كار، وأضاف أن جميع المؤرخين تستحوذ عليهم أفكار خاصة بهم، وإذا لم تستطع أن تسمع طنين النحل وأنت تقرأ كتبهم فلابد إذن أن هناك خطأ ما إما فيهم أو فيك أنت[٣٥] . استمر كار ، بطبيعة الحال ، ليجادل بأن هذا الطنين لم يكن سببه راجعًا ببساطة إلى شذوذ أمزجة المؤرخين الشخصية ، ولكنه كان أيضًا من نتاج ما قد يسميه المرء العقل الذى يشبه خلية النحل فى نشاطه ؛ إنه الخطاب الجمعى للمؤرخين فى زمن وسياق خاص، يعكس الأزمنة التى يعيشون فيها[٣٦]. بيد أنه كان مستعداً أيضًا للاعتراف بأن خصائص

الخلفية الخاصة لمؤرخ ما، أى التربية والظروف يمكن أن تؤثر فيه كذلك، بحيث إن مجادلته أوضحت أن المؤرخين لم يكونوا يرددون كالببغاوات خطاباً اجتماعياً أوسع فى مداه - وربما كان هذا هو الموضوع الأقوى تأثيراً بين موضوعات كتاب What is History ? - ولكنهم كانوا يتحدثون بأصواتهم الفردية الخاصة أيضاً(٣٧).

ولم يخفف كار أبداً التوتر الذى كان قائماً فى ذهنه بين اعتقاده فى ذاتية المؤرخين وأمله فى أن يستطيعوا أن يتساموا على أنفسهم لكى يحققوا نظرة موضوعية للماضى لاتدين بشىء لظروفهم الخاصة أو ظروف العصر الذى يعيشون فيه. والتوترات فى مؤلفاته بين هاتين الرؤيتين ربما كانت انعكاساً لتوتر أعمق يسرى فى كتابه، بين القبول الواقعى بما هو كائن والأمل اليوتوبى فى أنه يمكن أن تكون الأشياء مختلفة تماماً(٣٨). وقد تمثلت إحدى نتائج تأثير كار فى إقناع الكثير من المؤرخين بتأمل انحيازاتهم ومشاغلهم، وأن يفكروا فى المقاصد التى يقصدونها فى كتاباتهم، وأن يقدموا للقارئ الفروض التى تقوم أعمالهم عليها، كما هى. كان هذا تطوراً محموداً ويساعد القارئ كثيراً . ولكن كار فى إقناعه المؤرخين بأنهم لايستطيعون أبداً التسامى فوق أنفسهم تماماً ، شجعهم أيضاً ، على المدى الطويل، على أن يجعلوا من الضرورة فضيلة . إن المؤرخ الحقيقى لن يعمد أبداً إلى تشويش الأشياء التى خلفها الماضى والتى تشكل الأساس الذى يقوم عليه عمل المؤرخ(٣٩). ولكن فى حدود ما تتيحه المصادر هناك قدر كبير من المساحة للتأكيدات المختلفة والتفسيرات المتنوعة ، وقد أتاح تأثير كار للمؤرخين أن يستفيدوا من هذا بأقصى درجة .

ملاحظات وهوامش

(١) by E.H. Carr, What is History? (40th anniversary edition, with a new Introduction Richard J. Evans) (Basingstoke: Palgrave, 2001), pp. 5-6, 22-4; also E.H. Carr, 'History and Morals', Times Literary Supplement, 17 December 1954, distinguishing between history and chronicle.

(٢) Carr, What is History?, p. 6.

(٣) Ibid., pp. 47-9.

(٤) E.H. Carr, A History of Soviet Russia, Vol. I: The Bolshevik Revolution, I (London: Macmillan, 1950), pp. 5-6.

(٥) Jonathan Haslam, The Vices of Integrity: E.H. Carr 1892-1982 (London: Verso, 1999); E.H. Carr, 'An Autobiography' (1989), in Michael Cox (ed.), E.H. Can : A Critical Appraisal (Basingstoke: Palgrave, 2000), pp. xiii-xxii.

(٦) Haslam, The Vices of Integrity, p. 146; Isaiah Berlin, 'Mr Carr's Big Battalions', New Statesman, 5 January 1962, pp. 15-16; H.R. Trevor-Roper, 'E.H. Can's Success Story', Encounter, May 1962, pp. 69-77.

(٧) Particularly influential here were E.J. Hobsbawm, Primitive Rebels (Manchester: Manchester University Press, 1958), and E.P. Thompson, The Making of the English Working Class (London: Victor Gollancz, 1963).

(٨) Can, What is History?, pp. 146-7.

(٩) See the account of the 'discussion' in Cambridge University Reporter 96 (1965-66), pp. 627, 1013-29, 1292, 1591, 1830, 1852-3, and more generally in Patrick Collinson, 'Geoffrey Rudolph Eiton, 1921-1994', Proceedings of the British Academy, Vol. 94 (1996), pp. 429-55, here pp. 448-9.

(١٩) Can, What 'is History?, p. 60. 11. Ibid., p. 38.

(١٢) Ibid., pp. 51-60.

(١٣) Ibid., pp. 60-2.

(١٤) Keith Thomas, 'The Tools and the Job', Times Literary Supplement, 7 April 1966, Special Issue: 'New Ways in History'; Emmanuel Le Roy Ladurie, The Territory of the Historian (Chicago, IL: University of Chicago Press 1979), p. 6; R.W. Fogel and G.R. Eiton, Which Road to the Past? Two Views of History (New Haven, CT, and London: Yale University Press, 1983).

(١٥) Joyce Appleby, Margaret Jacob and Lynn Hunt, Telling the Truth about History (New York: W.W. Norton, 1994), pp. 202, 216; Peter N. Steams, 'Coming of Age', Journal of Social History, Vol. 10 (1976), pp. 246-65. For a useful overview, see Georg G. Iggers, Historiography in the Twentieth Century (Middleton, CT: Wesleyan University Press, 1997).

(١٦) Harvey J. Kaye, The Powers of the Past: Reflections on the Crisis and the Promise of History (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1991); and the introductory survey in Robert F. Berkhofer, Jr, Beyond the Great Story: History as Text and Discourse (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1995).

(١٧) For a discussion of these trends, see Richard J. Evans, In Defence of History (2nd edn, with a new Afterword) (London: Granta, 2001). Among many examples, see in particular Alun Munslow, Deconstructing History (London: Routledge, 1996) and Keith Jenkins, Re-thinking History (London: Routledge, 1991); more briefly, Frank Ankersmit, 'Historiography and Post-modernism', History and Theory, Vol. 28 (1989), pp. 137-53.

(١٨) Christopher Norris, Deconstruction and the Interests of Theory (Norman, OK: University of Oklahoma Press, 1989), p. 16; Paul Boghossian, 'What the Sokal Hoax Ought to Teach Us', Times Literary Supplemen 13 December 1996, pp. 14-15; Alan B. Spitzer, Historical Truth and Lies about the Past (Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 1996).

(١٩) For references, see Richard J. Evans, In Defence of History (London: Granta, 1997), pp. 284-301.

(٢٠) See, for an extreme example, Sande Cohen, Historical Culture: On the Receding of an Academic Discipline (Berkeley, CA: University of California Press, 1986).

(٢١) For a critical account of this change, in the context of British labour history, see David Mayfield and Susan Thorne, 'Social History and its Discontents: Gareth Stedman Jones and the Politics of Language', Social History, Vol. 17 (1992), pp. 165-88.

(٢٢) Stuart dark, Thinking with Demons: The Idea of Witchcraft in Early Modem Europe (Oxford: Clarendon, 1997); Carlo Ginzburg, The Cheese and the Worms: The Cosmos of a Sixteenth-Century Miller (Baltimore, MD: Johns HopkinsUniversity Press, 1992); Emmanuel Le Roy Ladurie, Montaillou (London: Scolar Press, 1978); Jean Delumeau, La pew en Occident (XIVe-XVIIIe siecles), une cite assiegee (Paris: Fayard, 1978); La peche et la pew: la culpabilisation en Occident (XIIIe-XVIIIe siecles) (Paris: Fayard, 1983).

(٢٣) However, the British Social History Society at the beginning of the twenty first century was actively considering changing its name to the Social and Cultural History Society.

(٢٤) Among many attempts to recount and explain this phenomenon, two of themost illuminating are Peter Novick, The Holocaust and Collective Memory (London: Bloomsbury, 1999) and TonyJudt, 'The Past is Another Country: Myth and Memory in Postwar Europe', in Istvan Deak, Jan T. Gross and Tony Judt (eds), The Politics of Retribution in Europe: World War II and its Aftermath (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2000), pp. 293-324.

(٢٥) Kingsley Amis, Lucky Jim (London: Penguin, 1954) and many succeeding novels; Iris Murdoch, Under the Net (London: Chatto and Windus, 1994) and many more; Michael Ondaatje, The English Patient (London: Picador, 1992); Zadie Smith, White Teeth (London: Hamish Hamilton, 2000); Matthew Kneale, English Passengers (London: Penguin, 2000); Sebastian Faulks, Birdsong (London: Vintage, 1993).

(٢٦) John Willis, 'Past is Perfect', Guardian, 29 October 2001, Media Supplement, pp. 2-3 (the author is a television executive).

(٢٧) Mark C. Cames (ed.), Past Imperfect: History According to the Movies (New York: Henry Holt & Co., 1996); Richard J. Evans, 'Is This the Past as we Know it?', Independent, 12 March 2001, Monday review, p. 5.

(٢٨) Tristram Hunt, 'Back to the Future', Observer, 6 January 2002.

(٢٩) Ian Kershaw, Hitler 1889-1936: Hubris (New York: W.W. Norton, 1998); Hitler 1936-1945: Nemesis (London: Alien Lane, 2000).

(٣٠) RichardJ. Evans, 'How History has become Popular Again', New Statesman, 12 February 2001, pp. 25-7.

(٣١) Willis, 'Past is Perfect'; Evans, 'How History has become Popular Again'.

(٣٢) Stephen E. Ambrose, Band of Brothers (New York: Simon and Schuster, 1998).

(٣٣) Kathleen Burk, Troublemaker: The Life and History ofA.J.P. Taylor (New Haven, d London: Yale University Press, 2000). Hayden White, Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth-Century Europ(Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1987); Simon Schama, Citizens: A Chronicle of the French Revolution (New York: Alfred Knopf, 1989).

(٣٥) Carr, What is History?, pp. 17-18.

(٣٦) Ibid., p. 38.

(٣٧) Ved Mehta, Fly and the Fly-Bottle: Encounters with British Intellectuals (London:Weidenfeld and Nicolson, 1963), p. 158 (interview with Carr).

(٣٨) This is a central theme of Jonathan Haslam's excellent biography, The Vices of Integrity.

(٣٩) For an extended discussion of such manipulation and distortion, see Richard J. Evans, Lying About Hitler: History, Holocaust and the David Irving Trial (New York: Basic Books, 2001).

(٢)

ما التاريخ الاجتماعى الآن ؟

بول كارتلدج

فى البداية لدىَّ اعترافان، أو بيانان بأى مقياس ، يجب أن أدلى بهما . أولاً ، أننى نفسى لست مؤرخًا اجتماعيًا ، وربما سيكون من الأدق أن أقول إننى لن أصنف نفسى هكذا . ثانيًا، إننى مؤرخ متخصص فى التاريخ القديم ، وبصفة خاصة مؤرخ فى تاريخ بلاد الإغريق قديمًا، ومن ثم فإننى أنتمى إلى فئة سعيدة ليست مشهورة بالضبط بإخلاصها لتدوين التاريخ بشكل تأملى نقدى. وعلى أية حال، فهناك استثناءات ؛ والواقع كما كان أحدهم، وهو سير موسى فينلى **Sir Moses Finley** الراحل ، مغرمًا بالقول : هناك دائمًا استثناءات(١).

كان فينلى بمعنى ما ، منفيًا إلى إنجلترا من الولايات المتحدة المكارثية ؛ ويكاد يكون من الشائع أن نلاحظ أن كثيرًا من أعظم مؤرخى الإغريق والرومان – هيرودوتس وثوكيديديس وبوليبيوس ، وغيرهم – كانوا هم أنفسهم من المنفيين السياسيين(٢). ويبدو أن هناك رابطة سببية ما، وبعبارة أخرى، بين النفى وكتابة التاريخ ، ولاسيما كتابة التاريخ التأملى والذاتى سواءً فى مجال التاريخ، أو تدوين التاريخ **historiography** . وعلى أية حال ، فإن ممارسة فينلى فى الكتابة عن تدوين التاريخ، كانت بالتأكيد متأثرة بشكل مباشر بكتابة مؤرخ بريطانى منفى آخر من مؤرخى العالم القديم، هو أرنالدو موميجاليانو **Arnaldo Momigliano** ، الذى كان ضحية القوانين العنصرية فى إيطاليا الفاشية . هذه هى الكيفية التى بدأ فينلى بها مقالة سنة ١٩٦٨م عن موميجليانو فى أسلوب جدلى مميز :

«إنها ، على ما أظن ، نبوءة آمنة لأن البروفيسور موميجليانو لن يكتب أبداً كتاباً يحمل عنوان "What is History?" .

ومغزى تلك الملاحظة ، على ما نفترض، كان أن موميجليانو لم يكن ليود أبداً أن يكتب كتاباً بهذا العنوان. وعلى أية حال، فإن الإشارة الضمنية لمحاضرات كار باسم تريڤيليان وكتابه المنشور كانت واضحة بما يكفى[٣].

كان كار نقطة البداية لأسباب ترتبط بالسياق على نحو واضح[٤]، وقد واصلت مع فينلى ليس لأنه كان مؤرخاً فى التاريخ القديم وحسب، وإنما أيضاً لأنه فعل أكثر مما فعل أى مؤرخ آخر فى التاريخ القديم أثناء الفترة التى غطتها بسلسلة المحاضرات التذكارية هذه لإدخال مجال تخصصه (ومجال تخصصى) بمجال التاريخ ككل. فبالنسبة لفينلى كان التاريخ القديم، أولاً وقبل كل شىء – ثم تدوين التاريخ؛ ولم يكن التاريخ القديم ليأتى فى المرتبة الثانية؛ وقد جرى الأمر هكذا ، كما هو ، أنه تخصص فى التاريخ والتدوين التاريخى القديم، أى التاريخ اليونانى – الرومانى، وبصفة أخص فى عالم الإغريق – وسوف أحاول أن أرى الأمور بهذه الطريقة أيضاً.

– ١ –

إذن ما هو – أو ما يجب أن يكون – التاريخ الاجتماعى الآن ؟ أمرٌ سريعًا على ما نطق به رئيس وزراء بريطانى سابق، وهى السيدة مارجريت تاتشر ، التى كان من رأيها أنه لم يكن هناك – ولم يكن أبداً – أى شىء يسمى «المجتمع» . وحتى لو صنفناها على أنها فردية منهجية نكون قد أعطيناها أكثر مما تستحق[٥]. فمن ناحية لدى ، أيضاً ، إذا ما استخدمت التعبير الرسمى الحذر، ملاحظة تريڤيليان المعارضة فى مقدمة كتابه «التاريخ الاجتماعى الإنجليزى» التى تؤكد أن التاريخ الاجتماعى هو التاريخ مع تنحية الأمور السياسية جانباً . وهذه كان يمكن أن تكون ملاحظة غامضة حقًا فى أى سياق، ولكنها عبثية تماماً فى حالة بلاد الإغريق القديمة حيث إن الممارسات السياسية – وما هو سياسى – كانت سائدة إلى حد أن ما نسميه «الدستور»

فى أية مدينة إغريقية قديمة يمكن الإشارة إليه دونما قيد على أنه «حياتها» و«روحها» . وليس هذا ظنًا يمكن أن يخرج طليقًا من أية شفاة عند الحديث عن الدستور البريطانى، على ما يبدو . وأحسن من هذا قليلاً فقط، وبطريقة معاكسة ، هو ما فعله تريڤليان من المساواة المتسامحة شديدة الكرم بين مدى التاريخ الاجتماعى و«الحياة اليومية لسكان الأرض فى العصور الماضية»(٧).

وبدلاً من ذلك أتحول إلى شاهد متميز تمامًا ومستفز مثل فينلى، ومع هذا فهو نوع آخر من المنفيين ، وهو إريك هوبسباوم Eric Hobsbawm . بيد أن شهادته ليست مشجعة تمامًا ، بأى حال من الأحوال . ففى سنة ١٩٧٢م نشر ورقة عنوانها « من التاريخ الاجتماعى إلى تاريخ المجتمع From Social History to History of Society»، لاحظ فيها أنه : «يبدو استعراض التاريخ الاجتماعى فى الماضى كأنه يوضح أن أفضل الممارسين قد شعروا دائمًا بأنهم غير مرتاحين إلى المصطلح ، نفسه». ومضى فى سبيله للدفاع عن التحول الذى وصفه عنوان مقالته، بعيداً عن الظواهر الاجتماعية المنفردة أو المنفصلة إلى تاريخ مجتمعات كاملة بوصفها كمًا كليًا مندمجًا(٨). إن التبادلية فى عنوان المجلة التى تأسست أصلاً سنة ١٩٢٩م على يد لوسيان ڤيبڤر Lucien Febvre ومارك بلوش Marc Bloch » وهى Annales d'histoire économique et sociale «حوليات التاريخ الاقتصادى والاجتماعى» تبدو كأنها تحمل إحساساً بعدم الراحة تجاه مصطلح «التاريخ الاجتماعى» ، والابتعاد عنه على حد سواء : وبحلول سنة ١٩٧٢م، اتخذت اسم Annales : Economies, Sociétés, Civilizationes «الحوليات: الاقتصاد، المجتمعات، الحضارات»: وقد صارت الآن بعنوان : الحوليات : التاريخ والعلوم الاجتماعية Annales : Histoire, Sciences Sociale ، فالتاريخ الاجتماعى لم يعد التاريخ الاجتماعى(٩). وهناك جهد مشابه للهرب من المضامين المفرطة فى الذاتية التى يفترض وجودها فى العلوم الإنسانية إلى رحابة الموضوعية العلمية تتجلى فى آخر ملحق لمجلة International Journal of Social History ، الذى يحمل عنوان «مناهج جديدة للتاريخ الاجتماعى». وتتضمن هذه المجموعة مقالات تحمل عناوين مثل «السرد بصفته معلومات: الأدوات اللغوية والإحصائية للدراسة الكمية للأحداث التاريخية»

ومثل «منطق التحليل المقارن الكمى»، التى فى رأيى تحمل ما هو أكثر من نزوة اختيار لفظين متجاورين(١٠).

وأتحول بعد ذلك إلى مجموعة أدريان ويلسون Adrian Wilson سنة ١٩٩٤م بعنوان **Rethinking Social History**(١١). كانت اللسعة فى الحكاية بطبيعة الحال . إذ إن أحد المشاركين فى هذه المجموعة، كيث رايتسون **Keith Wrightson** ، قد لاحظ بصورة غير جسورة أيضًا، أن شيئًا من أكثر الآمال راديكالية فى ستينيات القرن العشرين (وهو ما تجسد أيضًا فى مقالة هوبسباوم أوائل السبعينيات) لم يتحقق. وبدلاً من أن تصير كل الكتابة التاريخية أكثر اجتماعية ، وأكثر شبهًا بالعلم الاجتماعى، أو أن تصبح فعلاً علمًا اجتماعيًا آخر ، فإن ما كان قد حدث فى الحقيقة هو أن التاريخ الاجتماعى قد تحول إلى فرع متخصص آخر من فروع الدراسات التاريخية . وكانت نتيجة هذه البلقنة (أى التقسيم) – كما رآها رايتسون – تناقصًا مستمرًا فى تأثير التاريخ «الاجتماعى» على التخصصات أو الفروع الأخرى، وتبقى الأمثلة السائدة على هذا ماثلة فى التاريخ السياسى والتاريخ الاقتصادى. هذه الملاحظة صادق عليها أحد مراجعى المجموعة، وهو سير كيت توماس **Sir Keith Thomas** ، الذى أضاف جملة اعتراضيه، طبعت كما هى، اقتبسها كاملة :

(Times Literary Supplement (TLS) 14 October, 1994):

«من المثير ، أن الخوف من هذا النوع من التخصيص بالضبط هو الذى قاد ثومبسون **E.P. Thompson** وكاتب هذه السطور، وكل منهما مستقل عن الآخر تمامًا ، إلى أن ينزلا إلى تدعيم التشكيل الأولى الذى شهدته سبعينيات القرن العشرين لجمعية التاريخ الاجتماعى . وكما رأينا، لم يكن التاريخ الاجتماعى فرعًا من التاريخ، مثل تاريخ البريد أو تاريخ الأثاث؛ إنما كان طريقة لعمل أى نوع من التاريخ».

ربما . وعلى أية حال ، فالمؤكد أنها كانت بسذاجة تافهة من جانبه أن يفترض أن «طريقة» كهذه لعمل أى نوع من التاريخ يمكن اقتراحها أو ممارستها دون أى نوع من البناء أو المساندة النظرية الواضحة والمتماسكة ، إذ يبدو لى أن مجرد محاولة المرء

تحويل التاريخ إلى شيء من رد الفعل الواعى، بمنهجية هى مجرد منهج ، توجب على المرء أن يقطع هذه المسافة النظرية الإضافية .

ومهما يكن الأمر ، فإن امبراطورية التاريخ الاجتماعى التى كانت ذات مرة أكثر من مجرد وهم، ترد الضربة ضد من يفترض أنهم يقوضون دعائمها أو يحتلونها. ففى أثناء قيامى بجمع مادة هذا الفصل ، مثلاً ، وقع فى يدى الملحق الأدبى لجريدة التايمز بتاريخ ٢٢ سبتمبر سنة ٢٠٠١م . ومن بين الكتب التى أعلن عنها فيه، كان هناك كتاب بالاشتراك بين كل من بيتر بوركى **Peter Burke** وآسا بريجز **Asa Briggs** ، عنوانه : التاريخ الاجتماعى لوسائل الإعلام[١٣] **A Sociel History of Media** ووفقًا للنفخة الحماسية التى قدمها أنطونى سميث **Antony Smith** «يتسم الكتاب بفضيلة أنه يكاد يكون دائرة معارف». يكاد يكون، ربما، بيد أن هذا الكتاب ذا الموضوع الواحد لايعد شيئًا إلى جانب دائرة المعارف الحقيقية التى كان هناك عرض لها قرب بداية عدد الملحق الثقافى ذاته للتايمز : إذ إن دائرة المعارف التى أصدرها بيتر ستيرن **Peter Stearn**، بعنوان موسوعة التاريخ الاجتماعى الأوربى **Encyclopedia of European Social History 1350-2000** وقد نشرت فى ستة مجلدات و ٣١٥٠ صفحة[١٤].

ويتعامل ستيرن بشكل صحيح مع القراء بمصطلح التاريخ الاجتماعى وتعريفه ، الذى يقول إنه «التغيرات والاستمراريات فى تجربة الناس العاديين». وعلى أية حال، حسبما لاحظ المراجع الأمريكى البارز، فإن بناء موسوعة ستيرن يرقى فى الممارسة إلى نوع من التاريخ الذى يضم كل أنواع البشر، وهو بناء موسوعة تحبذه حقيقة أن التاريخ الاجتماعى، مهما كان تعريفه «هو أكثر كثيراً من شكل غير متبلور، وأقل كثيراً من نظام علمى» (حسبما يقول راب **Rabb**) ، من الفلسفة مثلاً، ويستمر فى القول إنه على الرغم من أن «المشاركين قد يعتبرون أنفسهم جميعًا من المؤرخين الاجتماعيين ... فإنه يصعب غالبًا أن نرى ما هو مشترك بينهم، دعك من الانسجام فيما بينهم، حتى داخل مفهوم ستيرن الواسع جداً للمجال»[١٥].

إذن هكذا هو الحال – أو بعض منه . ففى ناحية ، هناك مؤرخون اجتماعيون يقولون عن أنفسهم هذا– مثل:

Journal of Social History, and the International Journal of Social History , the International Review of Social History , Continiuty and Change : A Journal of Social Structure, Law and Development in Past Societies , Com.

parative Studies in Society and History , and Social History . (وكلها تصدر فى *المملكة المتحدة*) .

(التى تصدر فى كندا) . **Histoire Sociale / Social History**

والآن يصدر البعض موسوعاتهم الخاصة بهم. على الناحية الأخرى، هناك مؤرخون ضعاف **tout court** يعتقدون أنه يجب أن تكون هناك تواريخ لمجتمعات *بأسرها* أو لمجموعات اجتماعية (تاريخ اجتماعى ؟ أم علم اجتماع تاريخى؟) أو تواريخ مصغرة من نوع أو آخر من *الظواهر* الاجتماعية على اختلاف أنواعها ، ولكن *ليس بالضرورة* التاريخ الاجتماعى على ما هو[١٦]. وبين هؤلاء وأولئك هناك من يعتقدون أن التاريخ الاجتماعى طريقة لعمل أى نوع (آخر) من التاريخ ، ولكنه لا أكثر من هذا . ما الطريق *إلى الأمام* – هل هو ما يعتبر حتى *الآن التقدم* هدفا أو طموحًا مشروعًا فى مجال الكتابة التاريخية[١٧] ؟.

أقترح أن أعمل فى معظم ما تبقى من *هذا* الفصل عن طريق *دراسة الحالة* بشكل انتقائى ، مسترشداً بثلاثة أمثلة حديثة أو حديثة جداً من الممارسة التاريخية / أو نظرية *الكتابة التاريخية* : مثالان أمريكيان ومثال بريطانى، اثنان منهجيان فى *النظرية* بقدر أو بآخر من الوضوح، والثالث منهجى فى الممارسة بشكل حاسم. وربما لايكون أى من هذه الأمثلة الثلاثة صالحًا بشكل تلقائى لأن ينطبق عليه وصف تاريخ اجتماعى بدون المزيد من التعديل . وقد تم اختيار هذه الأمثلة الثلاثة لأنها توضح الشروط المحدودة التى قد تنطبق على أى مرشح لذلك اللقب التشريفى بشكل صحيح فى نظرى . ولكن لنلقِ أولاً نظرة موجزة على *البعد* الزمنى– لأن هنا ربما يمكن أن يحدث شرخ

بين المؤرخ الاجتماعى ، من ناحية ، وعالم الأنثربولوچيا التاريخية، على الأقل، من ناحية أخرى، إن لم يكن أيضًا عالم الاجتماع التاريخى[١٨].

- ٢ -

بدون الزمن لايوجد تاريخ ، ولكن أى نوع من الزمن هو زمن التاريخ، والتاريخ الاجتماعى بوجه أخص[١٩] ؟ إحدى المميزات الخاصة تبدو لى ذات صلة خصوصية . وهذه ليست التمييز بين الزمن الدورى والزمن الطولى، الذى نوقش بلا نهاية باعتباره أحد جوانب التاريخ الثقافى أو الإثنوجرافى وباعتباره مشكلة فى التتابع الزمنى فى التدوين التاريخى[٢٠] ، كما أنها ليست التفرقة بين الزمن التاريخى والزمن الأسطورى ؛ أى اكتشاف كل من ماضوية الماضى فى عصر النهضة (إذ لم يكن ذلك قد حدث فعلاً فى العصور القديمة)[٢١] ومحدودية الذاكرة الإنسانية الدقيقة بشكل معقول ، التى لاترجع القهقرى لأكثر من ثلاثة أجيال ، أو جيل الأجداد بحثًا عن مصادر معلومات الناس البالغين المعاصرين[٢٢]. وما أعنيه أكثر هو الإيقاع الدورى والتغير الدورى على مرِّ الزمان .

منذ وقت قريب جدًا أكد توم جالانت **Tom Gallant** ، مؤرخ وأثرى متخصص فى بلاد الإغريق القديمة تحول إلى مؤرخ – إثنوجرافى متخصص فى اليونان الحديثة، أن «التاريخ الاجتماعى يسير على عزف ضارب طبول كرونولوچى مختلف » – ويعنى بمختلف ، أنه مختلف «عن التاريخ السياسى والتاريخ الاقتصادى اللذين يسلمان أنفسهما إلى التحليل السردى المتوالى»[٢٣] وكما يفعل دائمًا فى هذا الصدد ، يلجأ جالانت إلى التوضيح بالتشابه مع مجال التصوير الفوتوغرافى، سواء التصوير الثابت أو المتحرك: فبينما يكون زمن التاريخ السياسى والاقتصادى هو زمن الحكى السردى المتوالى فى كادرات فيلم ما ، فإن زمن التاريخ الاجتماعى كما يراه «أشبه بمجموعة من اللقطات المصورة» . وأولئك الذين يعجبون منكم بروايات سيبالد **W.G. Sebald** ربما يتذكرون الصور الأبيض والأسود المشوشة التى كانت نصوصه تقطع بها

دونما طائل: من المؤكد أنه لايمكن أن يكون هناك وسيلة أكثر دقة لتذكر ما كانت عليه حقًا (حسب ما يقول ڤون رانكه **Von Ranke** كما حدث بالضبط **Wie es eigenthlich gewsen ist**)؟ ومع هذا فإن الشك يثور حول أن الصور التى يضمنها رواياته ربما لاتكون صوراً ممثلة فقط لما فى الرواية، بل ربما كانت مزيفة فعلاً[٢٤].

وبغض النظر عن هذه الصعوبة مع التشابه الفوتوغرافى، ربما قد يتساءل المرء، على ما أظن، عن السبب فى أن جالانت وضع التاريخ السياسى مع التاريخ الاقتصادى بين قوسين هنا، طالما أن الدورات الاقتصادية على المدى الطويل، إن هى إلا عمليات مثل العمليات السكانية والأسرية وغيرها من العمليات الاجتماعية التى يرغب فى تمييزها عنهما. ولكن – على الرغم من أنه لايقتبس فعلاً منه – ما تستدعيه لغة جالانت إلى ذهنى بلا مفر ، هو التمييز الذى وضعه فرناند بروديل **Fernand Braudel**، ممن يكتبون فى «الحوليات» الـ **Annales** وهو التمييز الذى اشتهر وأثار جدلاً كبيراً، بين الاستمرار **durée** طويل المدى ، ومتوسط المدى، وقصير المدى – على التوالى (وهو تمييز مصطنع وفج إلى حد ما) أى استمرار الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية (أو فى حالة الظواهر السياسية ، كما طرحها ، مجرد أشباه ظواهر) .

هذا النموذج الزمنى ثلاثى الأجزاء وُجد إنه مفيد على نطاق واسع فى بعض أفضل الممارسات فى الكتابة التاريخية حديثًا، لاسيما عند التعامل مع المجتمعات الفلاحية قبل الصناعية، التى فيها يمكن فعلاً أن تظهر التغيرات التقنية الأساسية فى الأدوات الزراعية الأساسية، وكذلك تأثير الإنسان على البيئة (وتأثير البيئة على الإنسان) بطيئة بشكل جامد وبقدر ضئيل على نحو يكاد يكون غير ملحوظ فى أية لحظة فى الزمان[٢٥]. وعلى أية حال، حسبما آمل أن أوضح فى سياق مناقشتى للأمثلة الثلاثة التى أوردتها ، فإن النموذج يكون بلا فائدة تمامًا إذا ما كان يؤدى بالمرء إلى افتراض أن التاريخ الاجتماعى يمكن أن يكون فقط تاريخ المدى الطويل **Longue durée** كما يجب على المؤرخ الاجتماعى أو أى أحد آخر يفترض أى تنوع فى التاريخ الاجتماعى أو فى التدوين التاريخى أن يفكر بالضرورة فى ضوء الألفية أو على الأقل فى ضوء القرون وليس فى ضوء العقود أو حتى عشرات السنين .

- ٣ -

أولاً لنتأمل عملاً جاداً من الناحية النظرية ومنهجيًا على نحو صريح كتبه باحث متخصص فى الكلاسيكيات تحول إلى عالم اجتماع تاريخى، وهو رنسيمان W.G.Runciman وهو عمل جاد حقًا لدرجة أنه يسمى «رسالة علمية Treatise» . عنوانها A Treatise on Social Theory وتشغل ما لايقل عن ثلاثة مجلدات ، بإجمالى ألف ومائة وسبعين صفحة . وقد وصفها ناقد ذكى وصفًا مقنعًا بأنها «أحد المشروعات الفكرية الأكثر ندرة - بل وتزويقًا - فى السنوات الأخيرة»[٢٦] وبالنسبة لأغراضنا، فإن المجلدين الأولين هما اللذان يتصلان بشكل مباشر بالمسائل المطروحة أمامنا ، على الرغم من أن المقدمة ذات الصفحات الست للمجلد الثالث والأخير تلخص بشكل إيجابى محتويات الكتاب، والطموح الجاد للمشروع كله فى تفسير التاريخ الاجتماعى.. والمجلد الأول منهجى. وفى النهاية، يفتح رنسيمان بالتمييز بين ما يسميه «تقرير Reportage» و «تفسير ex plantion»، و «وصف description» و «تقييم evaluation». والمجلد الثالث الذى يحمل عنوانًا فرعيًا Applied Social Theory ، هو فعلاً ، أقل إثارة مما قد يبدو، حيث إن المنهج مطبق فقط على حالة المجتمع الإنجليزى فى القرن العشرين مع الاعتراف بتعقيده وأهميته، وفيما بين المجلد الأول والأخير يأتى المجلد الثانى بعنوان Substantive Social Theory .

وأولئك الذين يربطون علم الاجتماع على نحو بائس بالرطانة غير المفهومة سوف تنتابهم أسوأ المخاوف - أو الآمال - وهو ما أكده ما يسميه رنسيمان بوعى «اللفظ المستحدث الواحد فى المقالة كلها» (vol. III, p. Xiii, n.1) وهو "Systacts" . وهى كلمة من أصل إغريقى قديم ومتقنة للغاية بحيث تناسب المؤلف بتعليمه الكلاسيكى، وهذه الكلمة سُكت بقصد أن تحدد «مجموعة الأدوار» التى يفترض أن يلعبها الفاعلون التاريخيون.

«وضعت على نحو متماثل فى فضاء اجتماعى ثلاثى الأبعاد يتصل محورها بأشكال القوة الثلاثة : الاقتصادى (ومن ثم أسلوب الإنتاج) والأيديولوجى (ومن ثم أسلوب الإقناع) والسياسى (ومن ثم أسلوب الإلزام).

ويستمر رنسيمان قائلاً إن الحاجة إلى هذه الكلمة تظهر لأنه لاتوجد مصطلحات اجتماعية ، ومنها مصطلح (طبقة) ، محددة فى الوقت نفسه من حيث إضفاء تراتبية فى الدرجات للأدوار المسندة بالنسبة لمجموعات أخرى مثل هذه وتقف محايدة بين الأبعاد التى يتم ترتيبها فيها». ربما يكون الأمر هكذا. وبغض النظر عن مغزى بلاغة رنسيمان ذات النكهة الكلاسيكية ، فإن مصطلحات «القوة» و«أسلوب الإنتاج» ، «وأيديولوچى» بل وحتى «سياسى» كلها مصطلحات يمكن الاعتراض عليها بالضبط مثل مصطلح «طبقة» ، وهو المصطلح الوحيد الذى يضعه فى استشهادات نادرة. ويساور المرء شك فى أن وفاء الكاتب لماكس فيبر فى مواجهة ماركس ربما يكون محسوساً هنا سواءً فى اللاوعى أو على الأقل بقدر قليل من السرية.

وللأسف أنه يمكن الاعتراض أيضًا على تمييزه بين «التقرير» و«الوصف»، الذى يبدو لى أن الفضيلة الرئيسية فيه ، هى أن المصطلحات والإحالات المقصودة كلاهما واضح بحد ذاته[٢٧]. ولكن هل يساعدانا على مزيد من الفهم ، دعك من التفسير، للظواهر الاجتماعية الإنسانية المهمة فى الماضى؟ وتثور مزيد من الأسئلة من جراء البناء التحتى الذى وضعه رنسيمان للتصنيف الاصطلاحى. فهل نوافق على أنه ينبغى تعريف المجتمعات على أنها شبكات من القوة بهذه الكثرة ، أى أنها، مجموعات من الأدوار يتنافس القائمون بها على الوصول إلى ، أو السيطرة على، وسائل الإنتاج والإقناع والإلزام بدلا من ، كونها ، مثلاً مجموعات من الطبقات المتنافسة ، أو المراتب المتنافسة؟ هل نحن مقتنعون بالمجادلة المتعالية التى كرّس كل مناقشاته الفردية لخدمتها ، وهى «فكرة أن التطور الاجتماعى فكرة تشابهية ولكنها لايمكن أن تنزل إلى مستوى أن تكون اختياراً طبيعيًا ؟ إن هذا السرد الكبير هو الذى يغذى طموح رنسيمان لصياغة نظرية شاملة عن المجتمع اعتماداً على كل من الموارد والتنوع والقيود الموضوعة عليها التى تحسم تطورها (والتى يقصد بها توالى التغيرات الاجتماعية الكبرى التى حدثت باعتبارها النتائج غير المتوقعة والمتراكمة للتبدلات الصغرى فى الممارسة). والبرهان موجود فى الأكل - وذلك بالنسبة لنا قبل كل شىء فى المجلد الثانى **Substantive Social Theory**.

هذا فى الواقع طبق تحلية دسم للغاية. إننى أسحب فى الفضاء المتاح، قطعة واحدة، وهى قطعة إغريقية مهمة لكنها ليست إغريقية تماماً. هناك فى تحليل رنسيمان الأولى للقوة فى ثلاثة أبعاد مع متغيرات ثمانية وثمانية وسبعية على التوالى، ينبغى أن يكون هناك أساساً ويمكن أن يكون هناك فى الممارسة ٤٥٠ «نوعاً» ممكناً من المجتمع يمكن تصنيفها وتقييمها. أما فى ممارسة رنسيمان الفعلية الخاصة فلا يوجد سوى دستة أو نحوها – وهى سطحية شديدة تؤدى إلى غصة تعسة ؛ فعلى سبيل المثال كان طغيان بيزيستراتوس فى أثينا القرن السادس قبل الميلاد (والتى كانت بمقاييسنا الحديثة دكتاتورية معتدلة بل حتى تقدمية) ، الذى يجمعه فى كوم واحد مع أنظمة حكم آسوكا ، والإمبراطورية الكارلونجية ، وهنرى الملاح، وملكية آل تيودور ، وكلها تم تصنيفها وتوصيفها سوياً بأنها «دول أبوية». ومن هذا لم يكن المرء ليخمن أبداً، أن نظام بيزيستراتوس ربما كان قد تخلى عن مكانه ، أو حتى – فى بعض التقارير الحديثة– أظهر ، دونما خطوات كثيرة تالية ، أول أشكال الديموقراطية فى العالم، فى بلاد الإغريق القديمة ، التى تختلف بشكل مباشر بطبيعة الحال[٢٨].

– ٤ –

وبالكلمة الأولى فى عنوانه الفرعى، «الحرب» يعلن المثال التوضيحى الثانى الذى أقدمه : **Manus Midlarsky, The Evolution of Inequality , War, State Survival and Democracy in Comparative Perspective (1999) .**

عن رفضه لما يقوله رنسيمان . لقد ذكر رنسيمان الحرب طبعاً، ولكنه كان قد استبعدها كمتغير سببى ذى صلة من مشروعه التقييمى على أساس أن حصاد الحروب «غالباً ما يكون مسألة صدفة» . كان هذا قراراً غريباً فى ضوء رواية رنسيمان الخاصة لمشروعه التقييمى ، حيث إنه يفهم التطور الاجتماعى على أنه يعتمد على الاختيار الاجتماعى بالمنافسة ، والحرب لاتكون شيئاً إن لم تكن تنافساً. وعلاوة على ذلك ، فإن هذا الاستبعاد «للمصادفات والحظ» يترك فجوة لابد من ملئها ، وهى فجوة

واضحة بشكل خاص أمام عيني مؤرخ متخصص في تاريخ بلاد الإغريق القديمة[٢٩].
ومن هناك كان انجذابي ، الأوّلي ، إلى كتاب ميدلارسكي الحديث جداً . وهناك انجذاب أوّلي آخر تمثل في أنه يحمل الطموح الكبير إلى تفسير أو على الأقل توضيح أمر لايقل عن «التكوين النهائي للديموقراطية» (على حد تعبير التعريف الوارد على غلاف الكتاب) عن طريق تحليل : الأشكال المختلفة للصنف السياسي بما في ذلك الحرب والثورة ، وأصول المدن وتفككها ، ومصادر التعاون بين الدول . ويا لها من أجندة جيدة.

ومن ثم فإنه مما يزيد في خيبة الأمل، أن يكون علينا أن نقرر أن ممارسة المؤلف أخفقت بقدر كبير في تحقيق آمالي، على الأقل؛ حيث إنني في موقعي للحكم على النتائج حكم المحترفين. وتبدو النتائج في حالات مهمة إما مبتذلة أو قائمة بشكل ظاهر على أسس زائفة إمبريقياً. ولتوضيح الابتذال ، اقتبس ما وجده ميدلارسكي عن إمكانية التماهي بين اتجاه متزايد نحو العنف العسكري في أوربا الشرقية وتهديد الديموقراطية هناك. وهو يعول في هذا الاكتشاف على التشابه الأكبر لـ «التدخل السياسي من جانب الأشخاص العسكريين المعتادين على الأساليب الفردية (الأوتوقراطية في حل النزاعات السياسية) . ولنفترض على أية حال ، أنه على المرء أن يطبق هذه النظرية على بلاد الإغريق القديمة، ولنفترض أنه على المرء أن يضع في ذهنه وهو يفعل هذا نموذج التطور العسكري- السياسي الذي رسمه أعظم عالم اجتماع تاريخي في العالم القديم «المفكر العملاق» (كما أسماه ماركس بدقة) أرسطو . ووفقًا له كان التدخل السياسي من جانب العسكريين قد أحدث التأثير العكسي تمامًا لما حدده ميدرلاسكي. إذ تولد عنه أول أشكال الديموقراطية في بلاد الإغريق ، أي ديموقراطية المشاة ثقيلي التسليح التي فيها استقرت القوة السياسية المرجحة داخل الشريحة الأكثر ثراءً بين المواطنين والتي كانت قد شكلت السلاح المحارب الرئيسي للمدينة، أي المشاة الثقيلة . وبعبارة أخرى ، فإن المقارنة الأساسية كانت لابد أن تكشف لميدلارسكي أن طبيعة الجيش، ولاسيما بناء قيادته ، وطبيعة الشئون الحربية التي يمارسها، والسياق الطارئ الذي تتفاعل فيه العوامل السياسية والعسكرية ، هي التي يحسب حسابها – تلك هي المتغيرات الحاسمة التي تؤثر أو تقرر المضامين السياسية، للتورط العسكري في مواقف اجتماعية بعينها .

وعلى أية حال ، فإننى لم أكن أود إنهاء مناقشتى المختصرة لكتاب: **The Evolution of Inequality** بملاحظة لاذعة لا أوهام فيها. إذ إن الفصل الطويل الذى يحمل عنوان «اضمحلال وسقوط الإمبراطوريات والدول» ، الذى يحاول أن يضم بيزنطة، والصين، والمايا، وإسرائيل، ويهودا ، والعمونيين، ومصر القديمة ، وكذلك روما القديمة ، والصفحات التى خُصصت لظهور الديموقراطية فى أثينا فى الفصل الذى يحمل عنوان «مصادر الديموقراطية » (pp. 186-9) ، تقدم مزيجًا ذكيًا من القراءة فى أفضل الدراسات التاريخية والأثرية الحديثة مع تطبيق تنظير متوسط القيمة ومتواضع لأكثر المتغيرات حسمًا، وهى كثافة السكان ، وتوزيع الأرض ، والأفكار حول الحقوق السياسية المكفولة (والتى يسميها ميدلارسكى، على أية حال، ربما بقدر من الاندفاع «الحقوق») .

- ٥ -

لقد كرّس ميدلارسكى كتابه من أجل ذكرى ضحايا الهولوكوست جزئيًا . أما المثال التوضيحى الثالث الذى أقدمه ، والذى أفترض أنه المثال الذى يمكن أن يسمى حقًا «التاريخ الاجتماعى الآن» ، فيهتم على وجه الدقة بالسببية والدافع وراء هذه الكارثة . إنه جدل بين اثنين من المؤرخين الأمريكيين هما: كريستوفر براوننج **Christopher Brawning** ، ودانييل جولدهاجن **Daniel Goldhagen** حول سلوك بعض من يفترض أنهم من الألمان «العاديين» وخاصة الذين كانوا يشكلون فرقة الشرطة الاحتياطية ١٠١ فى بولندا سنة ١٩٤٢م . ويتفق كل من براوننج وجولدهاجن على أن أولئك الذين تورطوا كانوا بمعنى ما «منفذين مرحبين» ، ولكنهما يختلفان بشكل جذرى حول السبب فى أنهم تصرفوا على هذا النحو وكيف تم دفعهم لهذا التصرف .

وفى ظنى أن هذا النزاع ، نموذج حديث لكتابة التاريخ الاجتماعى لخمسة أسباب على الأقل: أولاً، لأن هنا ما يسميه ستيرن الناس «العاديين» فى العمل وفى المسألة - مع الرغبة فى الانتقام؛ لأنه على الرغم من أن المرء قد يريد فى سياقات أخرى أن

يسأل كيف يكون أولئك الناس الذين يختارون العمل رجال شرطة «عاديين»، والطبيعة الاستبدادية للدولة النازية، فإن الإمبراطورية والثقافة تكفيان فيما يبدو لى لتبرير الزعم أنه لم يكن هناك شىء غير عادى بشكل صريح فى هذا النمط من الاتساق الاجتماعى[٣١]. ثانيا : يمثل النزاع شكلاً من أشكال التاريخ الاجتماعى، التاريخ المصغر **microhistory** ، الذى يهتم باستخدام تجربة الأفراد العاديين أو المجموعات من الأفراد العاديين وسيلة لفهم ذهنيات اجتماعية ، وعـــلاقات اجتمـاعية وعمليات اجتماعية أوسع نطاقًا[٣٢]. ثالثًا : أنه يدرس اللاسامية الألمـانية والدور الذى لعبته فى الهولوكوست عن طريق حالة تاريخية خاصة واحدة ، حكم عليها ، بشكل مقنع، تحمل ما هو أكثر من مجرد إشارة وأهمية فردية أو محلية . رابعًا ، أنه مهم أيضًا من الناحية المنهجية ، باعتبارها دراسة للسببية والتفسير فى التاريخ: لماذا تصرف هؤلاء الألمان «العاديون» على النحو الذى تصرفوا به فرديًا وجماعيًا ؟ خامسًا: أنه أثار بالفعل اهتمامًا كبيرًا فى مجال التدوين التاريخى ، باعتباره مجرد دراسة حالة، أو اختبار حالة فى التفسير التاريخى[٣٣].

وكانت المجادلات على كلا الجانبين قد أعد لها جيداً بشكل استثنائى ، وفى بعض الأحيان لقيت مجادلات جولدهاجن من يعتنقونها فى الأوساط التى كانت تعتبر أكثر حيادية من كونها معارضة . وباختصار يجادل جولدهاجن[٣٤] بأن ما صنع الفرق فى السلوك بين هذه الفرقة والفرق السبع والثلاثين الأخرى المماثلة فى العمل، والذين كان ثلثهم فقط من أعضاء الحـزب، وواحد على ثـلاثين منهم من قـــوات العاصفة **SS** ، كـان شكلاً من اللاسـامية يصنفه هـو على أنه «اسـتئصـالى» : هذا الموقف الثقافى، حسبما يقول، كان قد صار مزروعًا بعمق على مر الأجيال لدرجة أنه عندما جاء وقت التفوق النازى كاد أن يكون حقيقة من حقائق الطبيعة الألمانية العادية . هذا شكل من أشكال التاريخ القومى – الاجتماعى ، أو ربما التاريخ الطبيعى – الاجتماعى، على ما أفترض أنا. أما براوننج الذى يقف على طرف نقيض حاد، فيجد أن التفسير الزائف ، المتماشى مع كل الأغراض والظروف ، الذى يقدمه جولدهاجن، يفسّر أكثر مما ينبغى ، ومن ثم لايفسّر شيئًا . ويعتقد أنه، فوق هذا وذاك ، يسقط العوامل الظرفية بحيث يتناول بمهارة والتواء هؤلاء الألمان خاصة فى الظروف المحددة لعمليتهم فى بولندا

المحتلة سنة ١٩٤٢م – وهو سلوك لم يكن بأى حال سلوكًا عامًا موحداً ؛ ذلك أن ما بين ١٠ إلى ٢٠ بالمائة من أفراد الفرقة انتهزوا الفرصة لأنفسهم بحيث لايصبحون جلادين.

وفيما يبدو لى، أن الميزان الموثوق به فى التفسير، خارجى بشكل واضح ، يميل فى هذا النزاع لصالح ما يقول به براوننج فى مواجهة ما يقوله جولدهاجن . وقد أضيف فقط أن السبب الرئيسى بالنسبة لى فى اختيار هذا المثال التوضيحى للتاريخ الاجتماعى ، بصرف النظر عن أهميته المنهجية والثقافية الجوهرية ، هو أننى أتفق مع لودميلا جوردونوڤا **Ludmilla Jordonova** على ضرورة أن ينشغل المؤرخون فى، ومع ما أطلق عليه اسم «التاريخ العام»، فى نوع من الإجماع الذى لايمكن إنكاره[٣٥].

– ٦ –

وأختم ببعض الإجابات الكلية على سبيل المحاولة على السؤال الذى طرحته فى عنوان مقالتى . إذ يجب علينا ، فيما أعتقد، أن نقاوم كافة المزاعم العلمية المهيمنة : دعاوى مثل أن التاريخ الاجتماعى هو النوع «الرئيسى» من التاريخ ، أو حتى هو التاريخ، وحسب. إن فقاعة التاريخ الاجتماعى، فى هذه المعانى المزعومة ، قد انفجرت منذ الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين وليس من المحتمل أن تتضخم مرة أخرى[٣٦]. ولكن هل يمكننا أن نعمل بدون فئة «التاريخ الاجتماعى» تمامًا، على أساس أن المصطلح مربك أو فارغ من المعنى أو أنه الاثنين معا؟ أو على أساس أكثر حذقًا وتأملاً فى ظاهره، هو أنه بما أن الفئات والمفاهيم الاجتماعية قد بُنيت ، فإن كل التاريخ– والتاريخ الصحيح فقط– هو تاريخ الأفكار؟

ومن المؤكد بالقدر ذاته، أننا لانستطيع[٣٧]، القول إن التصويرية أو التمثيلية **Pan - Representationalism** حسبما سمعت وصف هذه المقاربة الأخيرة ، هى مقاربة آثمة مثل تدوين التاريخ الواقعى الاجتماعى تمامًا؛ إذ إن وضع التصورات الصريحة

والانعكاسية من ناحية أخرى ، هى نقيض الشر. وربما يتطلب مصطلح «التاريخ الاجتماعى» تعريفًا مسبقًا ، أو حتى اشتراطًا ، ولكن هذا ممكن وضرورى على السواء. إذ إننا، حسبما أكد حديثًا ريتشارد إيفانز Richard Evans لا نزال بحاجة إلى التاريخ الاجتماعى ، باعتباره نوعًا من التاريخ أو نوعًا فرعيًا من التاريخ. وتحديداً باعتباره تاريخ الطبقة ، والاضطهاد والاستغلال ، أو كل حوادث الفقر إذا ما كانت مصطلحات الطبقة والاضطهاد والاستغلال يمكن أن تثير الاعتراضات من الناحية التحليلية أو الأخلاقية(٣٨).

وقد زعموا أن المسيح قال إن الفقراء معنا دائمًا ، أما بالنسبة لأرسطو ، وهو أعظم مفكر فى العالم القديم بلا جدال، فكان النقيض (للمواطنين) الأثرياء والفقراء هو أحسن ما يفسر ما اعتبره أهم وجوه الوجود الإنسانى، أى السياسات والسياسى داخل إطار المدينة الإغريقية - وهو إطار يضم ما قد نصنفه اليوم على أنه المجتمع والاجتماعى(٣٩). ومن المؤكد أنه لايمكن أن يكون كل من المسيح وأرسطو على خطأ ؟ بطبيعة الحال ، يجب أن أضيف فى الحال ، أن المدينة الإغريقية القديمة Polis لم تكن سوى مجال محدود للتعبير عن التعايش الاجتماعى الإنسانى أو التضامن الاجتماعى الإنسانى(٤٠). وبالمثل ، فإن «الطبقة» فى بلاد الإغريق القديمة لايمكن أن تعنى ما قد أو ما يجب أن تعنيه فى أى مجتمع غربى معاصر ما بعد الصناعة ، مثلاً(٤١) ولكن من الصعب ، بأى معيار، أن ننكر أن هذه تبقى مسائل حقيقية، من ناحية تدوين التاريخ ومن الناحية التاريخية على السواء. لقد طرحت قضيتى.

ملاحظات وهوامش

(*) It was an honour for me to be invited to deliver the paper on which this chapter is based, and to be invited by David Cannadine, who in addition to his many other distinctions once graced the Cambridge college to which I am myself attached, and which was also - not incidentally - the college of the late Sir Geoffrey Eiton (on whom Richard Evans has many interesting things to say in his 'Afterword' to G.R. Eiton, The Practice of History (2nd edn) (Oxford: Blackwell, 2002)). He has been an exemplary editor. Judith Herrin served as the respondent to my paper, and I am delighted that a version of her response will be published in another place. Richard Evans, likewise, very kindly offered critical observations on a draft of the spoken version.

(١) Finley's historiography: M.I. Finley, The Use and Abuse of History (London: Chatto & Windus, 1975; revised edn, London: Hogarth Press, 1986); Economic and Social History of Ancient Greece, ed. B.D. Shaw and R.P. Sailer (London: Chatto & Windus, 1981; Harmondsworth: Penguin, 1983); cf. 'Progress in Historiography', Daedalus, vol. 106 (Summer 1977), pp. 125-42. Other exceptions: C. Ampolo, Stone greche: La formazione delta modema storiografla sugli antichi Greet (Turin: Einaudi, 1997); A. Cameron (ed.) History as Text: The Writing of Ancient History (London: Routledge, 1986); P. Cartledge (ed.) The Cambridge Illustrated History of Ancient Greece (Cambridge: Cambridge University Press, 1997); J.T. Roberts, 'Sociology and the Classical World', Arion (2000); pp. 99-133; F. Hartog, 'La storiografia fra passato e presente', in S. Settis (ed.) I Greet, Vol. II. 2, Storia-Cultiira-Arte-Societd (Turin: Einaudi, 1997), pp. 959-81; A.D. Momigliano, The Classical Foundations of Modem Historiography (California and London: University of California Press, 1990), Studies on Modem Scholarship, ed. G.W. Bowersock and T.J. Cornell (California and London: University of California Press, 1994); N. Morley, Writing Ancient History (London: Duckworth, 1999) especially chapter 1 ('What is History?' Morley's negatively

framed answer is that it is a way of talking about the past, that is different from myth, fiction, propaganda or science); P. Veyne, Writing History (Manchester: Manchester University Press, 1984) (French original, 1971).

(٢) Ancient historians as exiles: R. Syme, 'How Gibbon Came to History' (1977), reprinted in his Roman Papers, Vol. III, ed. A.R. Birley (Oxford: Oxford University Press, 1984) pp. 969-76, at 971. Syme's greatest historiographical contributions were to the understanding of Tacitus. Exile and historiogra-phy: S. Walia, Edward Said and the Writing of History (Duxford: Icon, 2001).

(٣) Finley, Use and Abuse, p. 75; the prediction was technically correct. Can, however, was not cited by name here - or indeed anywhere else in Finley's voluminous writings as far as I know, despite the fact that Finley, who had been at Jesus College, Cambridge, since 1955, must have at least known of Carr and very likely attended the Trevelyan lectures in 1961. His silence was presumably therefore a measure of his disagreement - and probably also disrespect. Finley was never a Marxist, being at best or most an anti-anti Marxist, let alone a communist. Carr's Marxist style of historiography, coupledwith what must have appeared to be his sacrificing at the altar of the Soviet monolith, would have been found rebarbative by Finley.

(٤) I would add that, since Carr seems to have had no formal training as a historian, 1 suspect his reading as a classics undergraduate at Trinity College, Cambridge, of Herodotus, Thucydides, Polybius and Tacitus (all cited, briefly, in E.H. Carr, What is History? (1961; 2nd edn ed. R.W. Davies, 1986; reprinted with new Afterword by R.J. Evans)) (Basingstoke: Palgrave, 2001) may have been more influential on his historiographical outlook than he might have cared to admit. See especially the fascinating anecdote mentioned by RJ. Evans, new 'Introduction' to Carr, What is History?, p. xi, about Herodotus' attitude to the Persian War being shaped by his personal experience of the Peloponnesian War (cf. ibid., p. 7); also ibid., p. xviii: a private letter emphasizing that the function of the historian is to explain; with Carr What is History?, p. 81, quoting Herodotus' Preface (contrast the view of G. Hawthorn, Plausible Worlds: Possibility and Understanding in History and the Social Sciences (Cambridge: Cambridge University Press, 1991) that 'cumulative and convergent certainty, not just about the workings of the world, but also about its particular contents, which we take to mark knowledge, will always elude the social sciences', which Hawthorn takes to include history; therefore, understanding not explanation must in his view be the best we can

hope for). Carr's belief in historical 'regularities' (Evans in What is History?, pp. xii, xviii) could have come ultimately from Thucydides 1.22.4; likewise, Carr's contempt for history of the masses until at earliest the mid-nineteenth century (RJ. Evans, In Defence of History (London: Granta, 1997, 2001 with new Afterword), pp. 164-5; cf. below, note 31) would have been shared by his classical forerunners.

(٥) On the dispute between methodological individualists and methodological holists, see S. James, The Content of Social Explanation (Cambridge: Cambridge University Press, 1984); with James, I would give the victory to the latter; cf. C. Bird, The Myth of Liberal Individualism (Cambridge: Cambridge University Press, 2001).

(٦) On G.M. Trevelyan, English Social History (originally New York: Longmans, Green & Co., Inc., 1942), see especially D. Cannadine, G.M. Trevelyan: A Life in History (London: Penguin, 1997); cf. briefly Evans, In Defence of History, p. 163. On politics and the political, especially but not only in ancient Greece, see P. Cartledge, 'La Politica', in S. Settis (ed.) I Greet, Vol. I, No; e I Greci (Turin: Einaudi, 1996), pp. 39-75.

(٧) I mention, but shall not discuss, the congruent opinion, expressed recently by the classically inspired literary critic Roberto Calasso, Literature and the Gods (London: Vintage, 2001), p. 173, in specific relation to the rise of totalitarian regimes, that 'the very notion of society has appropriated an unprecedented power, one previously the preserve of religion'. The 'daily life' genre runs the risk of being merely antiquarian; but that it need not be so is shown by, for example, R. Garland, Daily Life of the Ancient Greeks (Westport, CT: Greenwood Press, 1998).

(٨) Quotation from E.J. Hobsbawm, 'From Social History to the History of Society" (1972), reprinted in his On History (London: Weidenfeld & Nicolson, 1998), chapter 6, at p. 99. The desired goal, as he phrases it, should be 'the formulation of the nature and structure of societies and the mechanisms of their historic transformations (or stabilizations)' (ibid., p. 109).

(٩) P. Burke, The French Historical Revolution: The Annales School 1929-1989 (Cambridge: Polity Press, 1990); a work to be reconsidered in the light of B. Lepetit (ed.) Les formes de {'experience: Une autre histoire sociale (Paris: Albin Michel, 1995), as reviewed by G. Stedman Jones, Annales HSS (mars-avril1998), pp.383-94.

(١٠) LJ. Griffin and M. van der Linden (eds) New Methods for Social History (International Review of Social History Supplement) (Cambridge: Cambridge University Press, 1999). The contents in full: LJ. Griffin & M. van der Linden 'Introduction' L. Isaac, L. Christiansen, J. Miller & T. Nickel 'Temporally recursive regression and social historical inquiry: an example of cross-movement militancy spillover' HJ. McCammon 'Using event history analysis in historical research: with illustrations from a study of the passage of women's protective legislation' G. Deane, E.M. Beck & S.E. Tolnay 'Incorporating space into social histories:how spatial processes operate and how we observe them' R. Franzosi 'Narrative as data: linguistic and statistical tools for the quantitative study of historical events' C.C. Ragin 'The logic of qualitative comparative analysis' C. Wetherell 'Historical social network analysis' LJ. Griffin & R.R. Korstad 'Historical inference and event-structure analysis'. Phraseology within the articles can be as verbally rebarbative and method ologically dubious as the articles' titles; for example, McCammon's 'The level of over-time aggregation in event history data ... ideally should be determined by the nature of the research question or by the time frame in which the event of interest occurs' (p. 35).

(١١) A. Wilson, Rethinking Social History: English Society 1750-1920, and its Interpretation (Manchester: Manchester University Press, 1994).

(١٢) 1 suppose the reductio ad absurdwn of the parcelling or compartmentalization of History was the monthly magazine History Today's 'What is [social, and so on] History Today?' series of articles, edited as a book under that title by Juliet Gardiner, What is History Today? (London: Macmillan, 1988); see Evans, In Defence of History, pp. 170, 351. The contribution on social history, coinci dentally by an ancient historian, was predictably jejune.

(١٣) P. Burke and A. Briggs, A Social History of the Media: From Gutenberg to the Internet (Cambridge: Polity Press, 2001).

(١٤) P. Steams, Encyclopedia of European Social History from 13SO-2000 (six vols) (New York: Scribner's, 2001).

(١٥) That may be an accurate and fair judgement in this particular case. But on the day I delivered the original oral version of this chapter an obituary notice appeared in the London Times for 1'eter Laslett, which began by labelling him 'the social historian' - principally, one assumes, because of Laslett's distinguished work in the areas of demography and family history. (However, his early career,

almost as distinguished, had been in the history of political thought - or 'politics, philosophy and society', as the essay collections he co edited were entitled. He was a founder withJ.G.A. Pocock of the 'Cambridge School' discussed by Annabel Brett, this volume.) Moreover, the Social History Society referred to by Sir Keith Thomas still flourishes, so one member of the audience at the Institute of Historical Research informed us. I add that King Alfred's College, Winchester, offers an MA in Social History (information courtesy of its Director, Dr C.M. Haydon).

(١٦) See below, note 32.

(١٧) Finley, 'Progress in Historiography'.

(١٨) P. Abrams, Historical Sociology (London: Open Books, 1982) contended in a proto-postmodernist way that history and sociology were divided, not by logic, but only by rhetoric; history for Abrams was not just a factual presentation of the past but the social reconstruction of the past. A conventional rejoinder by Frank Parkin pontificated that 'social theory is to history as the philosophy of science is to science' (Times Literary Supplement, 23 July 1982, p. 801).

(١٩) Time in history, time(s) of history: L. Jordanova, History in Practice (London: Edward Arnold, 2000), chapter 5; M. Pearson and M. Shanks, Theatre / Archaeology (London: Routledge, 2001), especially pp. 41-4.

(٢٠) A.D. Momigliano, Time in Ancient Historiography (History & Theory, Beiheft, [supplement] 1966).

(٢١) P. Burke, The Renaissance Sense of the Past (London: Edward Arnold, 1969).

(٢٢) D.P. Henige, Oral Historiography (New York and Lagos: Longman, 1982); M. Herzfeld, The Poetics of Manhood: Contest and Identity in a Cretan Mountain Village (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1985); and cf. P. Burke, Varieties of Cultural History (Cambridge: Polity Press, 1997), chapter 3 ('History as Social Memory' (originally 1989)); his thesis in brief is that 'all of us have access to the past (like the present) only via the categories and schemata - or as Durkheim would say, the "collective representations" - of our own culture'(ibid., pp. 45-6).

(٢٣) T.W. Gallant, Modem Greece (London: Edward Arnold, 2001), p. 75; chapter 5 is devoted to 'Greek Society in the Nineteenth and Early Twentieth Centuries'. For Gallant in his earlier role as ancient social and economic historian of Greece, see his Risk and Survival in Ancient Greece: Reconstructing the Rural Domestic Economy (Oxford: Polity Press, 1991).

(٢٤) P. Burke, Eyewitnessing: The Uses of Images as Historical Evidence (Ithaca, NY, and London: Cornell University Press, 2001) might be read as a cautionary manual on the fickleness of images.

(٢٥) A small illustration: E. Le Roy Ladurie, Le Territoire de l'historien (Paris: Gallimard, 1973), pp. 169-86 ('Evenement et longue duree dans 1'histoire sociale: 1'exemple chouan') (English translation, 1979); cf. Burke, The French Historical Revolution, pp. 61-4. A typical, conservative criticism of this type of history is that, as it is concerned with structures rather than events, it cannot easily convey a sense of change over time, let alone explain it, without connecting with the established narratives of political or economic history.

(٢٦) W.G. Runciman, A Treatise on Social Theory, 3 Vols (Cambridge: CambridgeUniversity Press, 1983, 1989, 1997). The quotation is from Perry Anderson, London Review of Books, 6 July 1989, p. 6, reviewing Vol. II. But the entire work is overlooked, remarkably, by Jordanova in History in Practice, an otherwise excellent primer, and even by Evans in In Defence of History.

(٢٧) 'The need for precision in terminology is no less acute where the subject under discussion is an individual action than where it is an institution orpractice' (vol. I, p. 20) nicely captures this constant preoccupation.

(٢٨) P. Cartledge, 'Democratic Politics Ancient and Modern: From Cleisthenes to Mary Robinson', Hermathena, vol. 166 (Summer 1999 (2000)), pp. 5-29.

(٢٩) M. Midlarsky, The Evolution of Inequality: War, State Survival and Democracy in Comparative Perspective (Stanford, CA: Stanford University Press; Cambridge: Cambridge University Press, 1999). War for the ancient Greeks was an agdn, a contest, whence we derive our word 'agony'; it was typically 'people's' warfare, if not total warfare. On ancient Greek warfare, see recently H. Van Wees (ed.) 'War and Violence in Ancient Greece (London: Duckworth, 2000); and for two very different comparativist collections, K. Raaflaub and R. Rosenstein (eds) War and Society in the Ancient and Medieval Worlds (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1999); and D.R. McCann and B.S. Strauss (eds) War and Democracy: A Comparative Study of the Korean War and the Peloponnesian War (Armonk, NY: M.E. Sharpe, 2001).

(٣٠) Midlarsky also thinks A.C. Renfrew, 'Polity and Power: Interaction,Intensification, and Exploitation', in C. Renfrew andJ.M. Wagstaff (eds) An Island Polity: The Archaeology of Exploitation onMelos (Cambridge: Cambridge University Press, 1982), to be worth citing on the spread of democracy in theAegean islands under

'Ionian' influence - alas, poor Melos ... which in actual fact was an unreconstructed Dorian oligarchy.

(٢١) As Evans, In Defence of History, p. 182, notes, advocates of social history such as Steams 'claim that social history is the only approach that combines intellectual excitement with scholarly solidity'. Conversely, E.H. Carr 'clearly thought the history of ordinary people was not worth studying until they became organized in political movements and so contributed to the making of the modem world' (my emphasis) - a view powerfully rebutted by Evans himself (ibid., pp. 164-5).

(٢٢) G. Levi, 'On Microhistory' in P. Burke (ed.) New Perspectives on Historical Writing (Cambridge: Polity Press, 1991), pp. 93-113. P. Burke, History and Social Theory (Cambridge: Polity Press, 1993) identifies four general approaches to the conjoining of history and social theory: comparative analysis, modelling, quantitative analysis, and microhistory ('the employment of the social microscope').

(٢٣) J.C.G. Rohl, 'Ordinary Germans as Hitler's Willing Executioners? The Goldhagen Controversy' in W. Lament (ed.) Historical Controversies and Historians (London: University College London Press, 1998), pp. 15-21; R. Eaglestone, Postmodernism and Holocaust Denial (Duxford: Icon, 2001), pp. 30-4; and above all C. Browning, 'German Memory, Judicial Interrogation and Historical Reconstruction: Writing Perpetrator History from Postwar Testimony', in S. Friedlander (ed.) Probing the Limits of Historical Representation: Nazism and the 'Final Solution' (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1992), pp. 22-36, and Ordinary Men: Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland (original edn 1992; new 'Afterword' 1998) (London: Penguin, 2001).

(٢٤) D. Goldhagen, Hitler's Willing Executioners: Ordinary Germans and the Holocaust (New York: Alfred Knopf; London: Little, Brown, 1996).

(٢٥) Jordanova, History in Practice, chapter 6; cf. the two concluding sentences of the personal 'Postscript': 'History in Practice has attempted to bring some of the key issues of historical practice to a wide audience. In this respect it is a modest contribution to public history' (p. 207).

(٣٦) Perhaps the same will be said in due course for what seems to be the current contender for the Most Universal Form of History crown - cultural history (about which see Miri Rubin's contribution to this volume). See, for example, Burke, Varieties of Cultural History; though perhaps even he would not have anticipated D.M. Friedman, A Mind of Its Own. A Cultural History of the Penis (New York: The Free Press, 2001).

(٣٧) Evans, In Defence of History, chapter 6, 'Society and the Individual', with the bibliographical discussion at pp. 361-2, is an exemplary rejoinder.

(٣٨) Evans, In Defence of History, especially pp. 165-70 (different constructions of 'social history'), 183-90. Yet note his observation that 'Even in the 1990s, the view that history is essentially political history remains widespread within the profession' (p. 162). J. Arnold, History: A Very Short Introduction (Oxford: Oxford University Press, 2000), p. 86, gives a rather wider than Evans's -perhaps a too wide - interpretation of the scope of social history as people's 'family structures, their conduct in daily life, the way they arrange and give meaning to the social spaces around them'. J. Tosh, The Pursuit of History: Aims, Methods and New Directions in the Study of Modern History (2nd edn) (London: Longman, 1991) p. 96, (3rd edn, 1999), cautiously ventures that 'Social history is less self-evident in its identity and scope than any of the categories discussed so far'; cf. ibid., pp. 209-17 (oral history). M. Bentley (ed.) Routledge Companion to Historiography (London: Routledge, 1997) notably has no separate entry for 'social history'.

(٣٩) Cartledge, 'La Politica'.

(٤٠) However, to call it a 'dead end', as does W.G. Runciman, 'Doomed to Extinction: The Polis as an Evolutionary Dead-End', in O. Murray and S. Price (eds) The Greek City from Homer to Alexander (Oxford: Oxford University Press, 1990), pp. 347-67, is a bit too strong; for a dead-end, the ancient Greek city had and indeed retains an awful lot of vitality, as an imagined eu-topia (place of well-faring) as well as an ou-topia (no-place): Cartledge, 'Democratic Politics Ancient and Modern'. Runciman's earlier essay, 'Origins of States: The Case of Archaic Greece', Comparative Studies in Society and History, vol. 24 (1982), pp. 351-77, is more successful.

(٤١) This is notwithstanding the best efforts of G.E.M. de Ste. Croix, The Class Struggle in the Ancient Greek World. From the Archaic Age to the Arab Conquests (London: Duckworth, 1981) to find a definition of 'class' that would capture both ancient and modern situations and conditions with equal validity and explanatory force.

(٣)

ما التاريخ السياسى الآن ؟

سوزان بدرسن Susan Pedersen

من المؤكد أن التاريخ السياسى هو الذى لايحتاج إلى تبرير من بين جميع أشكال الكتابة التاريخية ، فبما أنه يتناول مسائل القوة والمقاومة، والسلطة والشرعية ، والنظام والطاعة ، وكل من يأمل فى أن يعيش أيامه بقدر من السلام والازدهار له نصيب فى مثل هذه الدراسة التى لاتقتصر على المؤرخين وحدهم . إن الأسئلة التى تُطرح عن الطرق التى تتطور بها النظم السياسية وتكتسب الشرعية ، وشخصية قادتها وأفعالهم، وظروف انهيارها وعواقبها، ربما تبقى أسئلة مشوقة . إذ إن المناقشات حول شخصية الدولة النازية أو أسباب الثورة الفرنسية لن تنتهى أبداً بشكل حاسم ، ولن تتوقف مثل هذه الموضوعات عن أن تكون العمود الفقرى فى المقررات التى نعلمها لطلابنا فى أى وقت قريب .

ولكن عندما يطرح المرء هذه التأكيدات التى يدركها العامة ، على مؤرخى التاريخ السياسى فربما ينالها الإخفاق . ويبدو أن التاريخ السياسى يعانى من أزمة أيضاً . إذ إن من يمارسونه يضعُون العربات فى دائرة(*) ضد هجوم أولئك الماركسيين الجدد السابقين ممن صاروا الآن من أنصار ما بعد الحداثة الذين يجعلون من الدوائر الأكاديمية مكاناً مزعجاً للعيش . وهناك قلة قد يذهبون بعيداً جداً مثل زميلى بالقسم

(*) إشارة إلى ما يحدث فى أفلام «الكاوبوى» حينما يتم تجميع العربات فى دائرة يتحصن بها البيض ضد هجمات الهنود الحمر . (المترجم)

وليم جيناب William Ginapp المؤرخ المتميز للحزب الجمهورى الباكر فى الولايات المتحدة ، ويعلنون أن التحول تجاه التاريخ الاجتماعى فى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين كان شرًا مطلقًا لم نشف منه، بيد أننا نجد فى كل مكان إيماءات دفاعية[1]. وعلاوة على ذلك ، يمكن للمؤرخين السياسيين أن يشيروا إلى الأساس الذى يقوم عليه مثل هذا القلق. ففى كثير من الميادين واجه التاريخ السياسى على مدى عدة عقود صعوبات فى اجتذاب طلاب الدراسات العليا، الذين نفهم سبب انجذابهم إلى مناطق بحثية تبدو أكثر حسمًا . وفى جامعتى، كانت البحوث فى مجال التاريخ الدستوري والقانونى الأمريكى تنتهى بشكل متكرر بأيد خاوية الوفاض.

ومجال التاريخ البريطانى الحديث ، منطقة دراستى وموضوعى هنا بالتالى، ليس متحررًا تمامًا من مثل هذه الاتجاهات . خذ ، مثلاً ، الأدلة التى تقدمها الأوراق المقدمة إلى مؤتمر أمريكا الشمالية فى الدراسات البريطانية (NACBS) ، وهو اللقاء المحترف الرئيسى للباحثين فى التعليم البريطانى فى الولايات المتحدة وكندا، ففى السنوات الثلاث الماضية كانت أقل من ربع الحلقات الدراسية عن التاريخ البريطانى الحديث تصبُّ بشكل مريح فى مجال التاريخ السياسى حسب التعريف التقليدي له . أو خذ ما قدم لجائزة المجلس البريطانى لأحسن كتاب فى التاريخ البريطانى كتبه باحث من أمريكا الشمالية. فعلى مدى عامين، كان معظم ما تقدم لهذه الجائزة من الكبار كتبًا فى مجال التاريخ الثقافى– مؤلفات مثل ما قدمته سوزان جرايزل عن تقريرها المقارن عن استخدامات شخصية الأم فى أثناء الحرب العالمية الأولى فى بريطانيا وفرنسا. ودراسة ميخائيل سالر Michael Saler عن جهود فرانك بيك لكسب العامة إلى جانب الحداثة من خلال مبانى وتزيين مترو الأنفاق فى لندن. وتقرير إريكار بابورت Erika Rappaport المدهش عن الصراع بين بائعى التجزئة المتعهدين والمصلحات من النساء على كسب عقول وقلوب النساء أواخر العصر الفيكتورى ومعهم الوقت والمال بأيديهم، وتحقيق إسرائيل كالى الحاذق عن القراءات المتعددة الممكنة لحياة إميليا ديلكى[2].

أو خــذ ، أخـيـراً ، حــالة المؤتمر الذى عـقـد عن «تحــديد مكان الڤـيـكتـوريـين» بلندن الصيف الماضى. ومـا كـان مـذهلاً هـنا لم يكن مـجـرد الحـيِّز المتـواضـع الذى خـصص لأسـئلة السـيـاسـة، ولكن أيضًـا أن ذلك الحـيـز قد وجد فـقط بسـبب إصـرار منظمى المؤتمر . فـثـمــة دعـوة للأوراق والمنظمـين جـذبت فـى النهـايـة حـوالى إحـدى وعشـرين ورقـة تراوحت مـا بين «الألم والمتعة» إلى «المعـرض الكبيـر» . وفى البـداية لم يكن هـناك اقـتـراح بورقـة واحـدة فى التـاريخ السـيـاسـى. واسـتـعـداد بيـتر مـاندلر **Peter Mandler** وحده بأن يتقـــدم وينظــم جلســـة يـــوم واحـــد عـــن «الحرية والسلطة» هو الذى أنقــذ هـذا المؤتمر من أن يصبح ممارسة حقيقية فى التاريخ مع استبعـاد الأمور السـيـاسية.

ولكن مـا إن نعلن أن التـاريخ السـيـاسـى فى حـالة سـيـئـة ، فـإن هذه الحـجـة تجـد بسـرعة من يفندونها . ويبادرون بالرد بـأن التاريخ الســياسى لم يتم التخلى عنه بقــدر مـا تمت إعادة تعريفه وإعادة اكتشـافه . ولأن المؤرخين الاجـتمـاعـيـين مقتنعون بعلاقة الرأى الشـعـبى والعـمل الشـعـبى بالعـوائد السـيـاسـيـة، ولكنهم يشكون الآن فى إطار يستخـرج مثل هذه الآراء من أعماق طبقة مـا، فإنهم قد رجعوا فيمـا سبق إلى دراسـة السيـاسـات الشـعـبيـة بطـاقـة جـديدة. وبالمثل ، فـإن المؤرخين الثـقـافـيين ، الذين اقـتنعـوا بحـجـة فوكو عن الطبيـعـة المتـعـددة التى تشـبـه الشـبكة لعـلاقـات القـوة ، يقـرءون الآن الإنجـازات العـامـة أو خطابات الانتـخـابات ، والأغـانى الشـعـبيـة أو روايات ويلكى كولينز **Wilkie Colins**، بحثًا عن أى مـصـادر تكشف عن الطـرق المتعـددة التى تتم بها ممارسـة السلطة والسيطرة واكتسـابها الشرعـيـة . ولو أن ربع حلقـات المؤتمر القـومى الأمـريكى للدراسـات البريطانية فقط تناول التـاريخ السـياسى بتعـريفـه الضيق، فربمـا زعم مـعظم المشـاركين – أيًا مـا كـان موضـوعهم، أو تنـاولهـم ، أو قـاعـدة مـصـادرهـم – أنهـم مهـتمـون بالتـأكيـد بمسـائل السلطة والشـرعيـة والقـوة. وفى مـقـابل أولئك الذين كـانوا يرون أن التـاريخ السـيـاسى عـرضـة للهـجوم، فـإن المتفــائل ســيبـادر بالــرد بأنه على العكس ، نحن الآن جميعًا مؤرخون سياسيون.

هذا الفصل يدرس هذه المشاجرة مع اهتمام خاص بتخصصى فى التاريخ البريطانى الحديث. وهناك نقطتان أساسيتان : أولاهما تجادل بأن منظور الأزمة أو الجدل الكبير فى هذا المجال مضلل بدرجة كبيرة ؛ فإذا كانت الاتجاهات النظرية والتحليلية فى العقود القليلة الماضية قد جلبت شيئًا فإنها قد جعلت مؤرخى «السياسة العليا» اليمينيين ، والطلاب ذوى الميول اليسارية الذين يدرسون السياسة الشعبية يتقاربون معًا . فهناك أرضية مشتركة كبيرة بين اكتشاف مؤرخى ما بعد الماركسية لـ «الاستقلال الذاتى النسبى» للساحة السياسية والفروض التى كانت تبنى دائمًا التاريخ «السياسى العالى» ؛ فضلاً عن أن كلاً من تاريخ النوع، و«المنعطف اللغوى» قد تمت مواءمتها بطرق (مهما كانت مارقة من الناحية النظرية) جعلت فهمنا للأعمال التى تجرى فى الساحة السياسية أكثر حذقًا . ولكن إذا كان التاريخ السياسى بالفعل ليس مزدهرًا فقط وإنما هو محل إجماع متزايد ، فإن هذا لايعنى أن هذه الحركة باتجاه الوسط لم تجلب المتاعب الخاصة بها . وبالنسبة للنقطة الثانية لدىَّ فهى أن هذا التاريخ السياسى «الجديد» يخاطر عندما يدير ظهره للتفسير البنيوى بشكل حاسم ، بارتكاب، أو إعادة ارتكاب ، ما أظن أنهما الخطيئتان المحيطتان بالتاريخ البريطانى- خطيئة ضيق الأفق **Porochialism** وخطيئة ما يمكن تسميته نزعة المظهرية الكاذبة **Panglossianism** ، بقبول الشخصية الاستثنائية التى لاتقبل المقارنة للمؤسسات البريطانية وترك فهمنا لموضوعاتنا التاريخية لتلك المؤسسات عوضًا عن فهمنا الخاص.

ومهما كانت أوجه الضعف ، فإن النظرية الماركسية والمقارنة التاريخية- وهما اثنان من الآلهة التى سقطت فى سبعينيات القرن العشرين- قد أجبرت المؤرخين السياسيين على المجاهدة لحل الأسئلة عن بناء الدولة والقوة الجبرية على الأقل . هذه المقاربات الآن مرفوضة بشكل حاسم ؛ والأسوأ ، أن المؤرخين قد ابتعدوا عن التاريخ تمامًا ، وتبدو مصادر التجديد فى هذا المجال غائبة بشكل يدعو إلى القلق. ولأسباب سوف أشرحها ، فإنه ليس حتى «المنعطف الإمبريالى» هو الذى يفعل كل ما قد يدفع بالأسئلة عن الحكم والإلزام ، بدلاً من الشرعية والقيادة، إلى قمة أجندة المؤرخ .

وليس كل شيء على ما يرام فى حديقة التاريخ السياسى، إذن، وعلى الرغم من أننى قد أجادل بأن الخطر يتأتى من اتجاه مختلف عن الاتجاهات التى تقيم مهنة التاريخ دفاعاتها ضدها .

- ١ -

فى الجدل من أجل صحة التاريخ السياسى فى بريطانيا ، ينبغى على المرء أن يبدأ بالاعتراف بأن هذا المجال كان دائمًا، بصورة مقارنة ، قويًا بشكل مدهش . فقد كانت دراسة الشئون السياسية دائمًا محل الاهتمام الأول للمؤرخ البريطانى . وإذا كان المؤرخون الفرنسيون هم رواد دراسة السكان والحياة الريفية ، وإذا كان الباحثون الألمان هم رواد التاريخ القانونى والكنسى، فليست هناك أمة نافست بريطانيا فى الدراسة الجادة للتاريخ السياسى. وسواء لأن تاريخ بريطانيا الحديث عن الصبغة البرلمانية المستمرة لم يترك لمؤرخيها سوى القليل من الأحداث الكارثية التى تجتذب انتباههم ، أو لأن مؤرخى بريطانيا السياسيين صاروا جزءًا من «الإنتليجنسيا المندمجة»، ومن ثم نزعوا إلى إيجاد تعبير عن ميولهم السياسية التى تفتنهم و«مألوفة» (بالمعنى الدقيق للكلمة) لديهم على السواء، فإن التاريخ السياسى فى بريطانيا قد استوعب شطرًا كبيرًا غير عادى من اهتمام الباحثين . وبطبيعة الحال، فإن الكثير من ذلك العمل يقع ضمن نوع يمكن أن نسميه تاريخ الزعامة السياسية ، سواءً كان يتخذ شكل السيرة السياسية (وهو نوع بريطانى متفرد فى قوته وشعبيته) أو شكل دراسات الشئون السياسية الحزبية والحكومة.

ومن وجهة نظر المؤرخين الأوربيين الآخرين، يبدو الكم الذى تم فى هذه الدراسات مذهلاً . إذ إن الرفوف الكثيرة من الكتب التى تحلل ظهور وتكوين الاستراتيجيات الانتخابية وممارسات الحكم وموت الحزب الليبرالى أدهشت مؤرخى الراديكالية الفرنسية (وهى قوة مهمة بالمقارنة مع هذا) المضطرين إلى الاعتماد على كتاب سيرج برستين **Serge Berstein** المسمى **Histoire du Parti Radical** وعدد قليل من الكتب ذات

الموضوع الواحد. وبالمثل؛ وعلى الرغم من أن جوستاف ستريسمان Gustav Stresemann ربما يكون قد وقف بجانب لويد چورچ أو على الأقل أوستن تشامبرلين فى تأثيره على السياسات الوطنية والعالمية، فإن المؤرخين الألمان لم يولوه سوى القدر الضئيل من اهتمامهم العلمى مقارنة بما أغدقه نظراؤهم البريطانيون من الاهتمام بكل قول أو فعل للسياسيين الأقل أهمية أوائل القرن العشرين . حقًا عندما ينظر الباحثون فى المجالات الوطنية الأخرى (دعك من طلاب الدراسات العليا الذين يدخلون هذا المجال) لايخلو إعجابهم دائمًا من الضيق؛ لأن هذا نوع من تدوين التاريخ يكتسب أهميته من داخله ولا يشير إلى اتصاله بما هو معاصر ، ويرفض صراحة إغراء «النظرية» (وإلى درجة ما التنظيم أو التعميم من أى نوع) ويعلن ضمنيًا أنك إذا لم تستطع أن تعرف من يكون اللاعبون الصغار فإنك لايجب أن تشاهد اللعب. ومع هذا ، على أية حال، فمهما يبدو هذا المجال داخليًا ذا مرجعية ذاتية، فإنه فى رأيى ، لايبارى فى معاييره البحثية وإنجازاته . فمنذ نامبير Namier على الأقل، افترض المؤرخون السياسيون فى بريطانيا أنه يجب على المرء ألا يفهم فقط القواعد المنطوقة واللامنطوقة للعبة السياسية وقدرة لاعبيها وشخصياتهم؛ بل عليه أيضًا أن يستمد فهمه وأن يختبره من خلال البحث الأرشيفى الدؤوب. وإذا كان التاريخ السياسى اليوم قد حافظ على مكانته ، فإن هذا يرجع جزئيًا على الأقل إلى أن هذه هى الأسس التى يقوم عليها .

ولكن السبب الثانى لصحته اليوم هو أن التاريخ السياسى لم تكتب له النجاة فقط ولكنه بالفعل أفاد من الهياج النظرى الذى ثار حديثًا داخل مهنة التاريخ. وعلى العكس مما قد يفترضه المرء، فإن الاتجاهات النظرية فى السنوات العشرين الماضية، التى لم يكن موريس كولينج Maurice Couling بالتأكيد متعاطفًا معها، هى التى جاءت أساسًا بمن يعارضونه إلى هذا الباب . وقد يبدو هذا تخمينًا مضادًا ، لأن الأصول والانتماءات السياسية لما قد يسميه المرء التاريخ السياسى «الجديد» ليست هى أصول وانتماءات مدرسة «السياسة العليا» ، ولكنى أظن بالفعل أن هذه هى الحال . وليس هناك اتجاه لفت الانتباه فى التاريخ البريطانى على مدى السنوات العشرين الماضية أكثر من التحول بعيدًا عن «الطبقة» ، سواءً باعتبارها موضوعًا للدراسة أو أساسًا للتفسير.

هذا النقد للتفسير المرتكز على الطبقة قد جاء من اتجاهات مختلفة واتخذ أشكالاً مختلفة، ولكن سواءً كان الباحثون مدفوعين بـ «المنعطف اللغوى» أو بإدراك متزايد لأهمية الأسس الأخرى فى التعريف والحراك الاجتماعى (مثل النوع) ، فإن إحدى النتائج تمثلت فى اهتمام أشد كثافة وحذقًا بالشئون السياسية. وكما يعرف كل طالب دراسات عليا ، فإن هناك لحظة حاسمة فى هذا التحول جاءت مع نشر مقالة جاريث ستيدمان جونز **Gareth Stedman Jones** سنة ١٩٨٣م تحت عنوان **"Rethinking Chartism"** ، وهى قطعة لافتة للنظر ليس فقط بسبب الطريقة الحاذقة التى استبدلت بها سردًا شاملاً (أى بروز الوعى الطبقى) بسرد آخر (أى استمرار الراديكالية السياسية) ، ولكن أيضًا بسبب ثراء الجدل والبحث الذى تولد عنها[٣] .

وقد التقط رفض ستيدمان جونز للتناول التفسيرى – الذى يرى اللغة السياسية محسومة بمعنى من المعانى، أو انعكاسًا ، للأحوال الاجتماعية، ومجادلته حول الاستقلال الذاتى النسبى وامتداد عمر النقد الرايكالى للآثار المفسدة لاحتكار السلطة السياسية – عدد كبير من الطلاب والأتباع الذين – من مواقعهم فى كامبردج وبرينستون وليڤربول ولندن – مدوا نطاق «أطروحة الاستمرارية» المرتكزة على الشئون السياسية والتى راجت حتى أواخر القرن التاسع عشر[٤]. وفى الوقت نفسه، وفى الولايات المتحدة بصفة خاصة ، بدأ المؤرخون والنقاد الأدبيون المتأثرون بنظريات ما بعد البنيوية يدرسون المجادلات السياسية؛ ليس باعتبارها وصفًا لبعض الحقيقة الاجتماعية التأسيسية، ولكن بسبب ما قد تكشفه عن المواقف الاستراتيجية لشركائهم والفروض الثقافية التى تبنى المجتمع بأسره. وهكذا ، على سبيل المثال فى كتاب درور واهرمان **Dror Wharman** ، يتم النظر إلى الخطاب البلاغى عن الحقوق السياسية للطبقة الوسطى التى ظهرت أثناء الثورة الفرنسية باعتباره نتيجة لتغير فعلى فى علاقات الطبقة، وهو أقل فائدة من المناقشات الأخرى فى أزمنة أخرى. وبالمثل تناول چيمس ڤرنون **James Vernon** وباتريك جويس **Patrick Joyce** العالم متعدد اللغات للثقافة الشعبية فى القرن التاسع عشر باعتبارها تعبيرًا عن المصالح الاجتماعية بدرجة أقل من اعتبارها ساحة لصراع بلا سياق تشكلت من خلاله هويات خاصة وذاتيات خاصة وحققت الظهور الاجتماعى[٥].

ولكن من يعملون فى مجال التاريخ السياسى لم يجيئوا فقط من بين أولئك الذين أثارهم تحليل الطبقة من خلال حاجز لغوى ، ولكن أيضاً من بين أولئك الشغوفين بتتبع أثر معنى المحاور الأخرى للتفرقة الاجتماعية ، ولاسيما محور النوع . حقًا إن الأعمال الأولى عن النوع داخل التاريخ البريطانى كانت تقليداً ومحاكاةً أكثر منها تحدياً لنموذج «تكوين الطبقة» ، لأن الباحثين سعوا لتقديم ممارسات الأعمال، واختيارات الزواج ، والحركات الدينية واستراتيجيات اتحاد التجارة التى أقرت التحول تجاه ثقافة «المجالات المنفصلة» عبر خطوط الطبقة[٦]. ومع هذا فإن هذه الحكاية السائدة ما إن تحددت معالمها حتى واجهت التحدى من أولئك الشغوفين بتوثيق انشغال المرأة الحميم فى الشئون السياسية الأرستقراطية، والراديكالية وحتى الليبرالية، لكى تبين كيف أن «انعطافاً تجاه الحياة العائلية» يمكن فى حد ذاته أن تكون له عواقب سياسية وانتخابية ، أو لتجادل فى سبيل مركزية النوع فى التعبئة الوطنية، أو الشرعية السياسية[٧]. ومع استبعاد التفسير الاجتماعى فإن مؤرخى المرأة ومؤرخى النوع عملوا «منعطفهم السياسى» الخاص سعياً وراء اكتشاف العلاقات الانتخابية بين المثل الخاصة للنوع والمعتقدات أو الأشكال السياسية .

وسواءً كانوا نتاجاً للتخلص من أوهام التفسيرات الماركسية أو خارجين من غمار الهياج الفكرى لمذهب المساواة بين الرجل والمرأة ، فإن هؤلاء المؤرخين السياسيين «الجدد» ، قد مالوا آنذاك إلى التركيز على موضوعين رئيسيين اثنين: على طبيعة النظام السياسى باعتباره تعبيراً عن علاقات القوى، وعلى الثقافة والأفكار السياسية. بيد أن هذين هما أيضاً الاهتمامان الرئيسيان لأولئك الذين نفكر فيهم عادة على أنهم مؤرخو «السياسة العليا» . وقد تناول مؤرخو «السياسة العليا» دائماً البناء الرسمى للسياسات بجدية ، وإذا كان معظم المؤرخين قد قبلوا وجهة نظر موريس كولينج **Maurice Couling** عن النظام السياسى فى أوائل القرن العشرين بوصفه «يتألف من خمسين أو ستين من السياسيين الذين تربطهم علاقة توتر واعية كل منهم بالآخر»[٨]، أو الصورة التى رسمها كوك **A.B. Cooke** وچون ڤنسان **John Vincent** «لـ «عالم السياسيين»، فى سنة ١٨٨٥م باعتباره «عالماً مغلقاً»[٩]، فإن البعض على الأقل عرفوا

(وليس أكثر من كولينج نفسه) أن جميع السياسيين بعد سنة ١٨٣٢م عاشوا بالكلمة، يسعون من خلال البلاغة إلى تبنى ورعاية الإيمان بمؤسسات الحكومة البرلمانية عمومًا وزعامتهم هم على وجه الخصوص . وكما أدرك ميخائيل بنتلى **Michael Bentley** ، فإن كتاب كولينج على الأقل «يلمح» إلى أن «الملامح توجد بين القصة المفتوحة» للممارسات السياسية للبرلمان البريطانى منذ سنة ١٨٦٧م «والكوزمو لوجيا لدى القائمين بهذه السياسات»[١٠]. ولاغرابة ، إذن ، فإن بنتلى وغيره قد سعوا إلى اقتفاء أثر هذه الملامح ، كما أنهم أولوا اهتمامًا كبيرًا بالكوزومولوجيات «أى العوالم الظنية» و«المذاهب» التى يعتنقونها بشأن المناورات والمكائد البرلمانية[١١]. والواقع، إنه إذا كانت هناك حركة مميزة داخل مدرسة «السياسة العليا» فى السنوات العشر الأخيرة، فإنها كانت باتجاه «مزيد من الانتباه إلى السياق الفكرى الذى يجرى فيه النشاط السياسى» ، على حد تعبير جوناثان بارى **Jonathan Parry**[١٢]. وبعبارة أخرى، فإن ما حرك الاتجاه الجديد والمكثف بـ «الثقافة السياسية» بين المؤرخين لم يكن «المنعطف اللغوى» وحده .

وما يمكن أن نراه يتطور، إذن هو أرضية مشتركة جديرة بالاعتبار تمامًا . ولست أقصد القول بأنه لاتوجد هناك اختلافات وفروق بين بيترهاوس **Peterhouse** وبرنستون **Prinseton** ، مثلاً : ذلك لأن المواريث الثقافية ، والقناعات المنهجية ، و(غالبا) الانتماءات السياسية ، تستمر فى الفصل بين المؤرخين «السياسيين الجدد» ومؤرخى «السياسة العليا»[١٣]. ومع هذا يبدو لى أن هناك ما هو أكثر من العلاقة الطفيفة بين المقاربة التى لا سياق لها التى يصر عليها جاريث ستيدمان جونز **Gareth Stedman Jones** وتناول السياسة العليا باعتبارها لعبة مغلقة محكومة بالقواعد ، أو بين (مثلاً) إيوچينيو بياجينى **Eugenio Biagini** فى اهتمامه بالأفكار الأخلاقية الكامنة وراء الليبرالية الشعبية ، و (مثلاً) إصرار بارى **Barry** على الأهمية المركزية للعقائد الدينية والمجادلات داخل الفريق نفسه . وبشكل قاطع يفضل كل من المعسكرين وضع «المؤرخين الماركسيين» ، أو بعض الفصائل الأخرى الشائنة من أنصار الحتمية الاجتماعية فى وضع من ينشرون الخطأ الذى يكافحون ضده بشجاعة ، مهما كان عددهم ضئيلاً

(أو فى هذه الأيام ليسوا من ضمن المؤرخين) وقد تكون هذه المعارضة الفكرية ضدهم(١٤). (والواقع أن إيوجينيو بياجينى اعترف بشكل خلاب بالكثير فى كتابه الذى يحمل عنوان **Liberty Retrenchment and Reform** عندما أشار إلى أن «المؤرخين الماركسيين» الفعليين ربما يصعب تحديدهم الآن، على الرغم من أن ذلك لم يوقفه عن وضع نفسه ضد خيال المأتة الخاص هذا)(١٥).

ولكن هل يهم هذا التلاقى ؟ هل كسبنا شيئًا من التقارب ؟ دعنى أُجب هذا السؤال بذكر الطريقة التى تم بها إثراء موضوعين يحظيان باهتمام تاريخى قوى – دراسة ليبرالية جلادستون ودراسة السياسات فيما بين الحربين– وكيف تم تحويلهما. لقد سار الحزب الليبرالى الجلادستونى كما نعرف جميعًا إلى النصر على منصة السلام والتجارة الحرة ، وخفض النفقات المالية والإصلاح الانتخابى. ومنذ ثلاثين سنة مضت ، عندما قبل معظم المؤرخين (هكذا قيل لنا) أن شيئًا يسمى الطبقة العاملة الإنجليزية قد «صُنعت» بشكل حاسم فى منتصف الفترة الڤيكتورية ، وأن وعيها الطبقى موجود تمامًا ويعمل حسابه ، بدأ نجاح هذه المنصة أكثر مدعاة للحيرة ؛ فمع كل هذا كانت السياسة المالية الجلادستونية شحيحة كما أن سياسة جلادستون الاجتماعية تحاشت لغة الطبقة ، وكان المؤرخون، وهم يحاولون التعويل على نجاحها ، مسوقين يتبعون خطوات چون ڤنسنت **John Vincent** ، إلى المجادلات حول التحالف التنظيمى تُعميهم البلاغة الرنانة ، أما أولئك الذين يقيمون قضية عادلة من أجل الليبرالية – مثل بيتر كلارك **Peter Clarke** – فكانوا مجبرين على المبالغة فى التأكيد على الجوانب الراديكالية اجتماعيًا فى البرامج «الليبرالية الجديدة» البازغة مادام من المفترض أن هذه الجوانب فقط يمكن أن تكون قادرة على الإبقاء على ولاء الطبقة العاملة الواعية طبقيًا(١٦).

واليوم، على أية حال، لم يبق سوى القليل من هذا التفسير، ولو أن كولين ماتيو **Colin Matthew** حذرنا من الأصول المحافظة والقشرية لأفكار جلادستون وسياساته ، وأكد بويد هيلتون **Boyd Hilton** على أسسها الأنجليكانية(١٧)، لكان المؤرخون «الجدد» ، أصحاب السياسات الشعبية ، قد تحرروا من الافتراضات السابقة عن الطريقة التى

تكمن بها المصالح المادية بالضرورة وراء الانتماء السياسى ، ولكانوا قادرين على أن يوضحوا كيف أن المنصة السياسية التى برزت من هذا الأساس- وهى منصة تمركزت حول التسامح الدينى، والعمل المدنى، والصرامة المالية، والامتداد البطىء للحقوق السياسية - كان يمكن أن تكون لها جاذبية شعبية واسعة . مثل هذا البرنامج ، على الرغم من هذا، قد تسبب فى حدوث انشقاق قديم ، هو عداء الطبقة العاملة والراديكاليين للدولة القاهرة والأبوية ؛ ففى ميزانيات جلادستون الشحيحة ، لم يدرك قطاع عريض من المواطنين الفرصة لممارسة السلطة، ولكن بدلاً من ذلك رأوا فيها تخفيفًا رحبوا به فى حكم القوة التعسفى . مثل هذا التفسير ينبه إلى النفوذ المستقل والقوى للمفاهيم السياسية الموروثة والعبارات السياسية المتوارثة باعتبارها «وعيًا زائفًا» ؛ والمهم أنه يعترف بأنه حتى المتواضع نسبيًا يمكن أن يكون ما أسماه ماكس فيبر «مثاليا» وكذلك المصالح المادية، واستطاع أن يجد تأكيد الحزب على الاستقلال والرجولة أمرًا شديد الجاذبية. هذا التفسير لهيمنة الحزب الليبرالى الطويلة يستكمل الروايات السياسية العليا عن أهمية الحكومة البرلمانية بدلاً من أن يطيح بها.

والواقع إن الضعف الحقيقى الوحيد فى هذا التفسير ، فى ظنى، يتمثل فى المزاعم المغالية أحيانًا عن «الجدة» فيه . كان چون ڤنسان سنة ١٩٦٦م ، وليست كاترين هول فى سنة ١٩٩٢م ، هو الذى كتب أن «الفكرة الأخلاقية العظمى لليبرالية كانت الرجولة»:

«بالنسبة لرجل القرن التاسع عشر ، كانت علامة أو ملحوظة أن تكون إنسانًا كاملاً هى أنه يجب أن يعول أسرته، وأن تكون له ديانته الخاصة وسياساته ، ولاينادى أى إنسان بلقب سيدى. إنه بمثابة حالة دخول فى هذه الإنسانية الكاملة أن الحزب الليبرالى الجلادستونى يزعم احترامنا أكثر من غيره»[١٨].

وقد وضع چون لورنس **John Laurence** ومايلز تايلور **Miles Taylor** ، ڤنسان على أنه من وضع أصلاً «التناول الاجتماعى» للشئون السياسية الذى يفترض أن هناك «تناسقًا مرتبًا - فى الحقيقة علاقة وظيفية - بين التغير الاجتماعى وسياسات الحزب»[١٩]. والواقع أنه يبدأ كتابه الشهير عن حق **Formation of the Liberal Party** بتقرير أن

الجاذبية الشعبية لليبرالية لايمكن فهمها بالرجوع إلى البرنامج أو التنظيم السياسى وحده، ولكن يجب السعى من أجلها أيضًا فى مجال الأفكار. وكما يعترفون (فى أكثر لحظاتهم كرمًا) فإن المؤرخين السياسيين الجدد ما يزالون يعولون على رؤى ڤنسان حتى وهم يقومون بتعديلها .

وتدوين تاريخ الليبرالية فى منطقة واحدة كهذه أثمر فيها هذا التقارب ، وفى منطقة ثانية – وهى الجهد المبذول لتفسير سيطرة المحافظين – كانت الفوائد مذهلة أكثر. ومن المؤكد أنه كان هناك الكثير من فرص التحسن. فمن النقطة الممتازة التى شهدت «وفاق» ما بعد الحرب ظهرت سيطرة ستانلى بلدوين (ودعك من رامزى ماكدونالد) فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين وكأنها غير قابلة للتفسير أو تكاد ، أما أولئك الذين حاول تفسيرها حقًا فقد كان بهم هوى إلى الاعتماد، مرة أخرى ، على المجادلات حول المهارة السياسية، والتصويت «الانصياعى» ، أو استغلال بلدوين البارع للبلاغة «الإنجليزية»[٢٠]. وكون أن النزعة المحافظة البسيطة لم تكن هى ، وإنما النزعة المحافظة الدستورية الشحيحة التقشفية التى شهدتها سنوات بلدوين، التى كانت جاذبة إيجابيًا (بشكل متزايد) نحو انتخابات ديموقراطية جديدة، إنما هو أمر لايرد على البال . بيد أنه بينما بدأ المؤرخون يتخلون عن الافتراضات حول الجاذبية الضرورية فى سياسات إعادة التوزيع والإحصاء فى عيون الطبقة العاملة (وفى عيون النساء بدرجة أقل) أخذت منابع النفوذ الأيديولوچى والثقافى القوى للمحافظين فى الظهور .

وهنا كذلك ، طرح مؤرخو «السياسة العليا» ، ومؤرخو «الطبقة»، بل ونقاد الأدب بعض الملاحظات المشتركة : انظر ، مثلاً ، إلى الاهتمام الشديد الذى أبداه فيليب ويليامسون، وروس ماكيبين، بل ومن اتجاه مختلف تمامًا الباحثون الناشطون فى مجال حقوق المرأة «أليسون لايت» و«سوزان كينجسلى كنت» ، نحو الطرق التى يمكن بها قبول خطاب المصالحة الوطنية، والروابط الخاصة، والروابط المدنية، والتوازن الاقتصادى والنزاهة ، حتى من جانب الناخبين من غير النخبة بعد النضال الاجتماعى والعسكرى الذى شهدته الحرب العالمية الأولى[٢١]. وبطبيعة الحال، تبقى الاختلافات المهمة ، لأنه بينما يؤكد ويليامسون بشدة على قدرة بلدوين فى الإقناع باعتباره من

«المتخصصين فى الأخلاق العامة»، فإن ماكيبين- الذى يتمسك بماضيه «الاجتماعى» - يشير إلى الطرق التى تمكن بها المحافظون أنفسهم ، من خلال سياسات التقشف ، من توسيع الدوائر الانتخابية الموالية التى تضم المنضمين إلى اتحادات والناخبين المستائين قليلاً ، التى اعتمدوا عليها بصورة غير متكافئة. ومع هذا ، وحسبما اعترف وليامسون نفسه، هناك صلة حقيقية بين هذه التفسيرات(٢٢). والأهم من ذلك ، مع أخذ محتوى خطب المحافظين بجدية (وليس سياستهم فحسب) وقبول الأرضيات ، المعقدة و«غير المادية» غالبًا ، التى تقوم عليها الانتماءات وروابط الولاء السياسية الفردية ، أن هؤلاء المؤرخين والنقاد الأدبيين قد بنوا تفسيراً أكثر إقناعًا - وقد أضيف أكثر احتراماً - للسبب الذى دعا معظم الناس فيما بين الحربين لأن يظنوا أن رجلاً مثل ستانلى بلدوين يمكن الوثوق به فى الدفاع عن مصالحهم .

- ٢ -

فما التاريخ السياسى، إذن ، فى بريطانيا الآن ؟ إنه ، وآمل أن أكون قد بيَّنت ، مزدهر ويحظى بالاتفاق بشكل مطرد . فله بالفعل أساس قوى فى دراسة الشئون السياسية الحزبية والفكر السياسى ، وقد أثرته الدراسات الجديدة فى الشئون السياسية الشعبية والثقافية السياسية التى كتبها المؤرخون الاجتماعيون الذين لايرضون الآن بالقوة التفسيرية لـ «الطبقة». ولم يعد التاريخ السياسى منقسماً بين أولئك الذين يرون الشئون السياسية باعتبارها فقط مباراة محكومة بحسابات دقيقة إلى حد كبير ، وأولئك الذين يرون فيها ظاهرة عابرة تخرج من طيات العلاقات الاجتماعية ، فالمؤرخون أصحاب التقاليد المختلفة وجدوا فى الدراسة الدقيقة للخطاب السياسى والثقافة السياسية أرضية مشتركة واسعة . وما قد نأمل فيه هو أنهم سوف يعترفون ، فى المستقبل ، بهذه الأرضية المشتركة بمزيد من الصراحة ، وينشغلون بشكل أكثر استقامة كل منهم بعمل الآخر، ويكفون عن الهرولة نحو شخص چون فوستر المغبر عندما يبحثون عن مثال لتلك المدرسة «المسيطرة» المفترضة للحسم

الاجتماعى والتى يناضلون ضدها . وبطبيعة الحال، فإن لهذه الأمانة الفكرية ثمنها بالضرورة . لأننا لو عرفنا درجة قبول المؤرخين السياسيين للاستقلال الذاتى النسبى للأمور السياسية ومنهج الدراسة التى تهدف إلى فهم الأفكار السياسية والثقافة السياسية للفاعلين التاريخيين حسبما رأوا هم أنفسهم، فقد نبدأ فى التساؤل ليس فقط عما أعطاه لنا هذا الوفاق الجديد، وإنما نسأل أيضًا عما لم يقدمه لنا . فأنا عن نفسى ، أظن أنه كان ينبغى علينا أن نبدأ بطرح هذا السؤال . لأننى وأنا مقتنعة بجدارة هذا العمل الجديد، لابد أن أكون من علماء الاجتماع بحيث أدرك مدى الخسارة الناجمة عن طرح التفسيرات الاجتماعية – البنيوية، وليس فقط التفسيرات القائمة على الطبقة جانبًا. وفى الجزء المتبقى من هذا الفصل ، إذن ، سوف أركز على ما يبدو لى أنها النتائج المزعجة ، وإن لم تكن مقصودة ، للاتجاهات الفكرية الجارية .

وقبل أن أفعل هذا، على أية حال، دعونى أتوقف أمام نقطة تعريفية مختصرة ؛ ما الذى نعنيه بالأمور السياسية **Politics** ، وما الذى ينبغى على التاريخ السياسى أن يفعله؟ دعونى أتحول لطلب المساعدة من عالم الاجتماع الألمانى ماكس فيبر، الذى يبدأ مقالته الشهيرة عن «الأمور السياسية بوصفها مهنة» **"Politics as a Vocation"** بصفحات قليلة مفيدة عن المصطلحات الجوهرية والمفاهيم التى يجب أن نستخدمها إذا ما كنا نرمى إلى دراسة الشئون السياسية. إذ إن فيبر يتناول الأمور السياسية، فى الجوهر، باعتبارها تلك الترتيبات التى من خلالها تتجلى السيطرة وتتم ممارستها . وفى زعمه أن أى تحليل اجتماعى ملائم لهذه الترتيبات ينبغى أن يأخذ فى الحسبان التفاعل المركّب بين ثلاثة عوامل: أولها ، الزعامة السياسية ، سواءً كانت فردية أو كانت للأحزاب؛ وثانيها ، بناء الدولة وقدرتها على الإلزام ؛ وثالثها ، طبيعة دعاوى الشرعية وأسسها . وربما أجادل أنا بأن أى تاريخ سياسى مناسب لابد أن يحتاج إلى الانشغال بهذه الجوانب جميعًا على السواء. إذ إن العمليات والتطورات السياسية وطرق تأثير الرجال والنساء على تلك التطورات وتحد من حركتهم أيضًا، أمور لايمكن فهمها تمامًا سوى بأن يأخذ المرء فى حسبانه البناء الدستورى، وبنية الدولة، إلى جانب الزعامة السياسية والأفكار السياسية.

بيد أننا هنا يمكن أن نبدأ فى تحديد مشكلة آخذة فى الظهور، ذلك لأنه إذا كان وفاق مؤرخى السياسة العليا وأولئك المؤرخين السياسيين «الجدد» قد أحيا جانبين من جوانب التاريخ السياسى، وراجعهما أيضًا – وهما دراسة الزعماء السياسيين والأحزاب السياسية ، ودراسة الثقافة السياسية والأفكار السياسية – فإن هذا الوفاق لم يقدم سوى القليل لتشجيع (بل ربما يكون مسببًا للتاريخ بطريقة أو بأخرى) الدراسة الجادة لما قد نسميه الحكم أو السلطة– فى بناء الدولة، ومدى قدرتها وممارساتها . هذه هى القضية، فى رأيى، لأن المناهج والمقاربات المستخدمة بشكل مشترك بين كل من مؤرخى «السياسة العليا» و«المتحولين اللغويين» والتى برهنت على مدى فائدتها الكبيرة فى دراسة الأمور السياسية الحزبية والثقافية السياسية، ليست ملائمة لهذه المجموعة الأخيرة من المشكلات . وكما أوضحت ، فإن كلتا المجموعتين الآن توليان اهتمامًا شديداً بلغة الشئون السياسية ، سواءً على مستوى النخبة أو على المستوى الشعبى، على افتراض أنه من خلال مثل هذه التأويلات والتفسيرات، والتناول الوصفى الكثيف ، يمكننا أن نسترد المعتقدات السياسية والتصرفات التى أتاها الفاعلون التاريخيون «كما كانوا هم أنفسهم يفهمونها» ؛ وبالمثل ، يهتم الفريقان اهتماماً شديداً بالتقاليد الثقافية والمفاهيم المتوارثة التى تبنى تلك الممارسات والمعتقدات . ومرة أخرى، حسبما عرضت رأيى ، فإن هذه المناهج والمقاربات قد أدت دورها وانتهت؛ فليس هناك سؤال سوى أننا يمكن أن نشرح المعتقدات والولاءات السياسية بهذه الطريقة أفضل من أن نفترض أنها تعكس بشكل خالص حسابات آلية، أو بقراءتها خارج سياق العلاقات الاجتماعية.

والمشكلة هى أن هذه المقاربات لاتقدم سوى القليل نسبيًا لمساعدتنا على فهم طبيعة مؤسسات الدولة ومدى قدرتها ، وربما تقودنا إلى الضلال العلمى، بقدر ما تقنعنا بأن نأخذ فهم موضوعاتنا الذى أعيد بناؤه بعناية لما كان يحيط بهذه الموضوعات من أمور سياسية على أنه فهم «دقيق» فى معنى تحليلى ما. لأن بناء الدولة، وقدرتها، وممارساتها ، يمكن دراستها على أفضل وجه ليس من خلال «الوصف الكثيف» وإنما ببعض الجهد فى التجريد، ليس بالتتابع الزمنى، وإنما بالتزامن والمقارنة .

والأسئلة المتعلقة عن «المعنى» ليست بلا أهمية هنا، ولكنها أقل أهمية، لأننا حين ندرس (مثلاً) السجن، أو التعليم، أو التجنيد ، فإن ما نود أن نعرفه ليس مجرد كيف كانت هذه النظم مفهومة من جانب الخاضعين ، وكيف تكون (تلك الدول) ملتزمة بالقانون، أو متعلمة أو منتصرة . إن «اختبار» مؤسسات الدولة ، فى نهاية الأمر، ليس بمدى حسن انسجامها مع الفهم التاريخى، ولكن بالكيفية التى بها صمدت فى مواجهة الدول الأخرى فى الساحات التنافسية والحرجة ، مثل الإنتاج وإعادة الإنتاج والحرب . وعندما ندرس الدولة، إذن، يجب على المرء أن يمضى دائمًا مع سياق عالمى ومقارنة مبنية فى ذهنه ضمنياً على الأقل .

ولكن هنا ، مرة أخرى نواجه مشكلة ، لأنه عندما يتعلق الأمر بالتحليل المقارن والعالمى، لا يكون للمؤرخين البريطانيين تقاليد فكرية خاصة قوية (اللهم إلا إذا احتسب المرء الخيال المفتوح والتبادل الأنجلو - أمريكى) يمكن أن نعول عليها. وبدلاً من ذلك ، فإنهما يعكسان كلاهما ويعانيان من التقاليد الحاكمة فى الحياة الفكرية البريطانية بشكل أكثر عمومية . إذ تنصرف المقارنة بشكل طبيعى نحو السياسيين ورجال الصناعة الألمان واليابانيين فى سعيهم لبناء اقتصادياتهم وإمبراطورياتهم، ونحو رجال الدولة الفرنسيين وهم ينظرون بعيون قلقة عبر نهر الراين، ونحو المفكرين الروس وهم يوازنون بين القيم النسبية للنزعة السلاقية والتحول نحو الغرب . وباستثناء لحظات نادرة وفى دوائر محدودة ، على أية حال، لم يكن الأمر طبيعياً بالنسبة إلى البريطانيين (أو بالنسبة للصينيين فى تلك المسألة) الذين كانوا دائمًا أميل إلى التفكير تاريخياً بدلاً من التفكير بطريقة مقارنة ، وإلى الحكم على مؤسساتهم السياسية إما بحسب رواية أو صيغة مثالية عن ماضيهم، وإمّا بمقياس أمثلة كلاسيكية ، وعلاوة على ذلك فإن المؤرخين البريطانيين ، قد نهجوا نهجهم ، إذ إنهم بشكل عام تجنبوا التحليل المقارن وفضلوا بدلاً منه تتبع تطور الممارسات السياسية والمؤسسات السياسية على مرٍّ الزمان ، وقليل من الدهشة ينبع إذن من أن أفضل التقارير البنيوية عن مؤسسات بريطانيا السياسية ، من كتاب لويس ناميير **Lewis Namier** الذى يحمل عنوان **Structure of Politics** ، إلى كتاب صمويل بير **Samuel Beer** بعنوان: **Treasury Control** ،

كانت مكتوبة بأقلام المهاجرين والأجانب أو الذين انتقلوا للعيش فى الولايات المتحدة ، والذين تبدو المؤسسات السياسية الغربية بالنسبة لهم ولبريطانيا إلى حد ما (بل أكثر من هذا ، قدرتها على كسب الموافقة وتشجيع الاستقرار والازدهار) غير واضحة بحد ذاتها وأقل استحقاقًا للدراسة[٢٤].

ودعونى أجعل هذه النقاط ، عن تكاليف «تحول سياسى» بدون اهتمام مصاحب بالمقارنة عبر الدول ، أكثر وضوحًا بأن أناقش باختصار ثلاثة أنماط منفصلة من التدوين التاريخى: ذلك الذى يتناول الفساد السياسى فى بواكير العصر الحديث، وما يتناول تكوين دولة الرفاهية ، وسياسات الاستهلاك زمن الحرب وفيما بعد الحرب . و«الفساد القديم» ، بطبيعة الحال، مصطلح يرجع إلى القرن التاسع عشر يدل على إساءة الممارسات السياسية فى القرن الثامن عشر ، وبقى حسبما أشار ستيدمان جونز وآخرون، مركزيًا فى التحليل الراديكالى للدولة البريطانية حتى منتصف القرن على الأقل. وكنقطة للدخول فى الوضع الذهنى للراديكالية البريطانية ، فإن مفهوم «الفساد القديم» يحمل (وقد أفاد من) قدراً كبيراً من الاهتمام الحديث: إذ إن المشكلة تثور عندما يبدأ المؤرخون (مثلما فعل ثومبسون E.P. Thompson) فى التعامل معه بوصفه «مصطلحًا جاداً فى التحليل السياسى»، وهو مصطلح يصف على نحو ما عمل الدولة فى القرن الثامن عشر[٢٥]. لأنه بينما كانت الدولة فى القرن الثامن عشر فى حقيقة الأمر وراثية وتقوم على الرعاية، فإنها كانت أيضًا، حسبما أوضح چون بروبور John Brewer وتوماس إرتمان Thomas Ertman عالية الكفاءة نسبيًا . إذ إنها لم تكن فقط قادرة على استخراج نسبة كبيرة مذهلة من الناتج القومى العام لتمويل وظائف الدولة (وبشكل واضح للإنفاق على حروبها) ، بل إن جمع هذه الميزانيات وتوزيعها لم يكن أبداً (مثلما كان الحال فى فرنسا) موجهًا بالفعل إلى المصالح الطفيلية الخاصة. والواقع ، إنه بقدر ما كان يتم جمع هذه الميزانيات من خلال ضرائب مقيمة ذاتيًا يدين بها الجميع ، فإنه يبدو واضحًا ، وببعض الأساليب المهمة ، أن الدولة لم تكن ببساطة (من حيث المقارنة) «نظيفة» نسبيًا وإنما كان ينظر إليها على أنها نظيفة (ومن ثم فإنها جديرة بالثقة) من جانب قطاع عريض من الناس[٢٦]. وكون أن

أولئك الناس أنفسهم ربما يكونون قد انتقدوا بقسوة «الفساد القديم» لكى يوقفوا أية اتجاهات صوب الكسب غير المشروع ولكى يصرُّوا على مزاعمهم السياسية الخاصة ، أمر لايجب أن يكون مفاجأة لنا، بل ولايجب أن يؤدى بنا إلى مساواة هنرى فوكس بقائد الفلاحين ولا حتى مقارنة برلمان «والبولى» Walpole مع ساحات القضاء الإسبانية Spanish Cartes . فإذا ما فعلنا هذا، يصبح عمل الدولة فى ذلك العصر وكذلك الأداء العسكرى المدهش لبريطانيا غير مفهومين بالقدر ذاته . وفى دراسة تطور الدولة ، إذن، يكون بعض الانتباه إلى بناء المنافسة السياسية وأدائها - التى أعنى بها دولاً أخرى فى القرن الثامن عشر وليس الفرقاء المتعارضين فى البرلمان - أمراً جوهرياً وقد برهن بالفعل على أنه أمر مثمر.

ويمكن طرح الحجة ذاتها بالنسبة لدراسة الدولة فى القرن العشرين ، على الرغم من أن القضية هنا هى قدرة الدولة على «تشجيع الحياة ورعايتها» من خلال سياسات السكان والسياسات الاجتماعية وليست مجرد قدرتها على شن الحرب التى تشد انتباهنا[٢٧]. ومع هذا ، فى هذا المجال أيضًا، كان المؤرخون البريطانيون أقل ميلاً من غيرهم فى البلاد الأخرى إلى التفكير بطريقة المقارنة . وعندما بدأت أعمل فى البداية على دولة الرفاهية البريطانية، أذهلنى تركيز البحوث فى هذا المجال بدرجة كبيرة جداً على التطورات الوطنية عبر الزمان- عن العلاقة بين التخفيف عن الفقراء فى العصر الفيكتورى والسياسة تجاه البطالة فيما بين الحربين ، مثلاً- بدلاً من التركيز على تأثير الأمثلة العالمية المناظرة أو «الصدمات الخارجية التى تعرض لها النظام» مثل الأزمة الاقتصادية والحرب العالمية[٢٨]. وفى هذا ، كان الباحثون فقط تحت قيادة موضوعاتهم؛ ذلك أن مهندسى بناء دولة الرفاهية البريطانية كانوا يميلون إلى المجادلة دفاعًا عن برامجهم بطريقة تاريخية بدلاً من الأسلوب المقارن ، كانوا يستشهدون بشرور الماضى التى تحتاج إلى الإصلاح بدلاً من ضغط المنافسات عبر مياه القنال الإنجليزى[٢٩]. وقد أدى هذا بالفعل إلى نوع من قصر النظر. لأن المذهل فى السياسة الاجتماعية البريطانية كما تكشف عنه الرؤية المقارنة هو الدرجة التى صارت بها، فى العقود الأخيرة من القرن العشرين ، نوعًا من السياسة العمالية القائمة خفية على

أساس النوع ، والتدابير المتخذة فى مجال الصحة ، ومحاربة الفقر، ورفاهية الطفل، كلها رهن جهد متعمد لدعم وهم نموذج الذكر المُعيل .

هكذا عالجت بريطانيا المشكلات الاجتماعية الناجمة عن الأزمة الاقتصادية العالمية فى فترة ما بين الحربين من خلال فوائد البطالة (التى على الرغم من استهجانها بسبب البخل ، كانت أكثر كرمًا من السياسات المشابهة فى أى مكان آخر بشكل لافت) بدلاً من سياسات الأسرة التى تبنتها دول أخرى[٣٠]. ولكن لأن السياسيين، والمواطنين البريطانيين والمؤرخين (فيما بعد) كانوا معتادين على هذه التقاليد بهذا القدر، فقد غابت الطبعية الفريدة وغير المعيارية للتطورات البريطانية عن الأنظار . وبعبارة أخرى فإن الفهم الشعبى لمؤسسات دولة الرفاهية ، مهما كانت أهميته من الناحية النقدية بالنسبة للتاريخ الاجتماعى والشئون السياسية للأحزاب فى تلك الفترة ، لايقدم لنا أى فهم تحليلى جيد لهذه الدولة ؛ كما أنه لايخبرنا كيف كان أداؤهم جيداً أو سيئًا فى تحقيق الأهداف التى ربما كانت تلك الحكومات والجماهير نفسها قد حددتها . والمقارنة وحدها هى التى يمكنها تقديم الإجابة على السؤال ، وإذا ما كان المؤرخون يشعرون بأية مسئولية للمبادرة بمناقشات علنية حول الخيارات السياسية بمزيد من الواقعية وبقدر أكبر من المعلومات، فإنهم سيبذلون المزيد من الجهد «للتفكير بطريقة مقارنة».

وأخيراً ، تأمل السؤال المثير عن العواقب السياسية للسياسة الاستهلاكية فى بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية. فهنا كان هناك تأثير كبير بشكل خاص للمؤرخين الذين انسجموا مع الطرق التى يمكن بها تشكيل هويات النوع وتعبئتها. فمنذ خمس عشرة سنة مضت، حكت كارولين ستيدمان **Carolyn Stedman** ، بأسلوب مؤثر فى كتابها الذى يحمل عنوان **Landscape for a Good Woman** ، عن الانحيازات الذاتية فى فترة ما بعد الحرب، وكيف أن إصرار حكومة العمال على أن تجعل للبن المجانى لأطفال المدارس الأسبقية على توفير ثياب النساء حسب الموضة قد شجعها هى فى شبابها على حين أبعد أمها المتعبة التى ذبلت نضارتها- وقد بنت البحث الحديث الأكثر منهجية فوق نظرتها الثاقبة[٣١]. وهكذا ، فى كتاب جديد فاز بجائزة عن المؤلفات التى تتناول نظام الحصص التموينية منذ الحرب العالمية الثانية حتى إلغائه نهائيًا فى ظل

حكم المحافظين ، تكشف إينا زوينجر - بارچيلوسكا Ina Zweiniger- Bargielowska أن مثل هذه السياسات الاستهلاكية قد أرهقت النساء على وجه الخصوص بالأعباء وفى نهاية المطاف أبعدتهن ، ولكى نضعها على نحو أشد فجاجة ، فإن حكومة العمال خسرت فى صناديق الانتخابات بسبب عجزها عن فهم لماذا، بعد ما يقرب من اثنتى عشرة سنة ، يمكن أن ينفد صبر النساء مع مصانع الأدوات المنزلية ومصانع السمن النباتى[٣٢]. وهنا مرة أخرى، إذن ، ثمة انتباه للنوع وثمة وعى بالطرق التى يمكن بها للرغبات الذاتية أن تُربك أو تنتهك وصفات «الطبقة»، وهو انتباه ووعى أمدنا بتفسير أكثر إقناعًا واحترامًا للخيارات السياسية الخاصة .

ومع هذا ، فإن هذا العمل الجديد له جوانب قصوره. لأنه إذا ما كان الاهتمام الشديد لتأثيرات التفرقة النوعية والتجارب الشعبية يوضح النتائج الانتخابية، فإنه يكون أقل فائدة عندما نسعى إلى تقييم أهمية هذه البرامج الأوسع اجتماعيًا ، بل وعسكريًا فى هذه الحال ، لأن اختبار السياسات الاستهلاكية زمن الحرب وفيما بعد الحرب لايكون فقط اختبار الكيفية التى تعايشت بها هذه السياسات جيداً مع تبريراتها البلاغية (سواء كانت اشتراكية أو على أساس السوق) ولا حتى كيف نجحت فى الانسجام مع استراتيجيات حزب بعينه ، ولكن بالقدر ذاته كيف دعمت بشكل جيد نسبيًا الصحة والإنتاجية - وبالتالى، قدرة الدولة نفسها واستقرارها - فى فترة من المنافسة العسكرية والاقتصادية المدعومة . وبصراحة ، وقبل أن يفوز حزب العمال فى انتخابات سنة ١٩٤٥م، كان على بريطانيا أن تفوز فى الحرب. وقد لعبت سياسات الاستهلاك دوراً فى النصر الأخير بقدر الدور الذى لعبته فى النصر الأول، ولكن ماهية هذا الدور بالضبط أمر لايمكن فهمه بشكل حقيقى سوى عندما توزن السياسات والإنجازات البريطانية مقابل سياسات البلاد الأخرى وإنجازاتها، وخاصة ألمانيا. وأية دراسة كاملة عن آثار الحصص التموينية والتقشف يجب بالتالى أن تحمل بُعدا مقارنًا ، ولكن حتى الآن كان المؤرخون العسكريون والاقتصاديون هم الأكثر ميلاً للتحرك فى هذا الاتجاه من المؤرخين السياسيين أو مؤرخى النوع[٣٣].

- ٣ -

لقد أمضيت بعض الوقت في هذه الموضوعات الثلاثة المنفصلة في الدراسة لأبين كيف أن البؤرة المقارنة، أو ببساطة بعض الاهتمام بشبكة العلاقات الاقتصادية والسياسية العالمية التي تمسك بتلابيب الأمم جميعًا ، يمكن أن يُعمِّق فهمنا لطبيعة المؤسسات والممارسات السياسية وعملها، بل يمكن أيضًا أن يكون بمثابة السيطرة على بعض التشوهات والضعف الذي قد يتعرض له تاريخ «السياسة العليا» و«التاريخ السياسي الجديد» على السواء . ومع هذا، أدرك أنني ، وأنا أدافع عن الأسلوب المقارن ، أسير عكس المد التاريخي الراهن. فقد ولدت الدراسة المقارنة من رحم التفاؤل السياسي في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، ومن انشغال المؤرخين بمناهج العلوم الاجتماعية – وقد انتهت كل من هذه اللحظة المتفائلة وتلك التحالفات بشكل حاسم. وفي عصر من التشاؤم الثقافي نسبيًا، كان المؤرخون أشد اهتمامًا بالمعنى منهم بالسببية ، كما وجدوا في نقاد الأدب وعلماء الأنثروبولوجيا رفاقًا أكثر ملاءمة من علماء السياسة . ومن المؤكد أن الأخيرين قد ردوا المعاملة بجفاء ، إذا طرحوا المقاربات التاريخية جانبًا من أجل الصياغة الشكلية ، والتناول الكمي ونظريات الخيار العقلاني. إن الاهتمام بالتاريخ المقارن ليس ضعيفًا فقط، بل إن مصادر إحيائه أيضًا تبدو ضعيفة بشكل يدعو إلى القلق .

بيد أن المرء قد يتساءل : وماذا عن الاهتمام الراهن بالإمبراطورية في التاريخ البريطاني– وهو اهتمام ملحوظ بشكل خاص في الولايات المتحدة حيث استجاب الباحثون من بريطانيا لتدني عدد الطلاب المقيدين وتحول اهتمامات الطلاب بإعادة تجهيز الكل على أنهم مؤرخون إمبراطوريون؟ فإذا ما كان التاريخ المقارن على طريق الذبول ، فعلى الأقل يجب أن يكون الانشغال الجاري بتورط بريطانيا الإمبريالي تحديًا لأي نزعات «صغيرة» نحو التركيز على إنجلترا، مرغمًا لنا على أن نعتبر أن الأفكار والمؤسسات الحاكمة في بريطانيا ربما كانت قد لفقت في كيب تاون، أو كالكوتا وكذلك في ليڤربول أو لندن ، ومن ثم نبدأ في صياغة إطار تحليلي قادر على تضمين التطورات

فى كل من الموقعين . والواقع أننى سوف أوافق على أن هذه هى المنطقة التى اجتمع فيها التفسير البنيوى مع الاهتمام بالثقافة السياسية ، وعلى الرغم من أن كلاً من بايلى C.A. Bayly فى كتابه Imperial Meridien ، وبيتر كاين Peter Cain وأنتونى هوبكنز Anthony Hopkins فى كتاب British Imperialism ، ومارينا لينى سينها Marinalini Sinha فى كتاب Colonial Masculinity،يختلفون تماماً فى أساليبهم فإننا يمكن أن نقرأ مؤلفاتهم جميعًا على أنها محاولات لوضع التطورات المحلية والإمبراطورية فى الإطار التحليلى ذاته(٣٤).

وعلى أية حال ، فإن كلاً من الضغوط المؤسسية والفكرية ، مرة أخرى– من الممارسة التقليدية بتناول التاريخ المحلى والتاريخ الإمبراطورى باعتبارهما مجالين منفصلين للدراسة إلى نزعة ما بعد السيدية Post- Saidian لمعالجة النصوص الأدبية والأعمال الفنية (بدلاً من التطورات السياسية والممارسات السياسية) باعتبارها حاملة النزعة الإمبراطورية الدقيقة– فى سلسلة من المقالات المهمة أبدت لينى سينها ، المناضلة ضد مثل هذا الدمج ، على الرغم من أنها هى نفسها ابنة للحركة السيدية من عدة جوانب ، قلقها حول هذه المشكلة بالضبط. وهى تشير إلى أن المؤرخين الحديثين الذين تأثروا بـ «المنعطف الإمبراطورى» ، قد طرحوا بالتأكيد أسئلة عن الإمبريالية التى عادت مرة أخرى إلى المركز فى التاريخ الوطنى لكل من بريطانيا والهند ؛ أما ما لم يفعلوه حقًا فهو «أن تجمعوا بين العاصمة والمستعمرة» فى إطار تحليلى موحد(٣٥). وبسبب جميع مشكلات البحث الماركسى والبنيوى فى سبعينيات القرن العشرين التى مالت إلى وضع السلطة إما فى الجهاز القهرى للدولة أو فى العلاقات الاقتصادية العالمية ، كان التصارع مع شخصية الحكم وجوانب القصور فيه أفضل أحيانًا من التفسيرات الثقافية الجارية. وحقيقة أن هناك تاريخًا إمبراطوريًا أقدم يتم الآن استبعاده غالبًا باعتباره «تقليديًا»، وهى التى حافظت على ذلك الاهتمام بالبنى الاجتماعية والعلاقات الاقتصادية أمر جيد فى مجمله ، ويجب دعمه وتوسيع نطاقه، بدلاً من الاستهزاء به.

بدأ هذا الفصل على أنه مديح ، وأخشى أنه قد تحول إلى نواح، ولم يكن هذا قصدى، لأن ما يسمى الآن تناولاً «اجتماعيًا» أو المدخل «الحتمى» ، عندما يُطبق على المعتقدات والانتماءات السياسية للبشر الموجودين فعلاً، تبدو فعلاً غير ممتعة عقليًا وغير موحية: وإذا كانت الزعامة والثقافة مشاغلنا الرئيسية ، فإننا نفضل استبعادها . بيد أن التحليل البنيوى كان وما يزال ضروريًا لبعض الأشياء، وبشكل فائق لدراسة ممارسات الحكم ومؤسساته، وهى الممارسات والمؤسسات التى لا تكون دائمًا مفهومة جيدًا سواء من جانب الحكام، أو من جانب المحكومين ، والتى إما أن تكون مناهضة للتغيير أو يمكن أن تتغير فى اتجاهات غير مقصودة أو متوقعة . وإذا ما كان المؤرخون السياسيون البريطانيون عليهم أن يسألوا بشكل أكثر روتينية كيف أن الأحوال العالمية، وبناءات الدولة والمنافسة بين الدول ربما تكون قد أثرت على قصتهم الخاصة، أو كان عليهم أن يضعوا تلك القصص فى إطار مقارن أو إمبراطورى، فربما نكون قادرين على الحفاظ على المكاسب التى حققها «المنعطف السياسى» الراهن دون أن ترتكز على ضحالة ضيق الأفق والمظهرية . هذه مسألة فيها بعض الإلحاح وطارئة إلى حد ما . واليوم عندما تكون العلاقة بين الثقافات السياسية الوطنية وعلاقات القوة العالمية خادعة بشكل خاص ويصعب فهمها، أظن أن لدىَّ المبرر لأقول إننا بحاجة إلى هذا النوع من التاريخ السياسى الآن.

ملاحظات وهوامش

(*) I wish to thank Thomas Ertman, Peter Mandler, Robert Travels, and especially Philip Williamson for their helpful comments on this chapter, and Jeremy Knowles for trying to ameliorate the conditions under which it was written.

(١) William Gienapp, 'The Myth of Class in Jacksonian America', foumal of Policy History, vol. 6, no. 2 (1994), pp. 232-9, 277-81.

(٢) Susan R. Grayzel, Women's Identities at War: Gender, Motherhood, and Politic in Britain and France during the First World War (Chapel Hill: University ol North Carolina Press, 1999); Michael T. Saler, The Avant-Garde in Internal England: Medieval Modernism and the London Underground (New York: Oxford University Press, 1999); Erika Rappaport, Shopping for Pleasure: Women inthi Making of London's West End (Princeton, NJ: Prmceton University Press, 2000); Kali Israel, Names and Stories: Emilia Dilke and Victorian Culture (New York: Oxford University Press, 1999).

(٣) Gareth Stedman Jones, 'Rethinking Chartism', in his Languages of Class: Studies in English Working Class History, 1832-1982 (Cambridge: Cambridge University Press, 1983), pp. 90-178.

(٤) For one important statement of this thesis, see Eugenio Biagini and Alastaii Reid, 'Currents of radicalism, 1850-1914', introduction to their Currents of Radicalism: Popular Radicalism, Organised Labour and Party Politics in Britain, 1850-1914 (Cambridge: Cambridge University Press, 1991), pp. 1-19; also, among other works, Miles Taylor, The Decline of British Radicalism, 1847-1860 (Oxford: Clarendon Press, 1995); Jon Lawrence, Speaking for the People: Party, Language and Popular Politics in England, 1867-1914 (Cambridge: Cambridge University Press, 1998); Eugenio Biagini, Liberty, Retrenchment and Reform: Popular Liberalism in the Age of Gladstone, 1860-1880 (Cambridge: Cambridge University Press, 1992).

(٥) Dror Wahrman, Imagining the Middle Class: The Political Representation of Class in Britain, c. 1780-1840 (Cambridge: Cambridge University Press, 1995); Patrick Joyce, Visions of the People: Industrial England and the Question of Class, 1840-1914 (Cambridge: Cambridge University Press, 1991); James Vernon, Politics and the People: A Study in English Political Culture, c. 1815-1867 (Cambridge: Cambridge University Press, 1993).

(٦) The landmark work being Leonore Davidoff and Catherine Hall, Family Fortunes: Men and Women of the English Middle Class, 1780-1850 (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1987). Anna dark and Sonya Rose both extended this approach, more or less uncritically, to the working class: see Anna dark, The Struggle for the Breeches: Gender and the Making of the British Working Class (Berkeley: University of Califomia Press, 1995); Sonya Rose, Limited Livelihoods: Gender and Class in Nineteenth-Century England (Berkeley:University of California Press, 1992).

(٧) This historiography is far too extensive to summarize here. One particularly fine early study of women's involvement in radical politics is Barbara Taylor, Eve and the New Jerusalem: Socialism and Feminism in the Nineteenth Century (New York: Pantheon Books, 1983); on aristocratic women, see K.D. Reynolds, Aristocratic Women and Political Society in Victorian Britain (Oxford: Clarendon Press, 1998). The suffrage and feminist movements have their own very large literatures, but women's involvement in the realm of formal politics has been less well studied. For women in local government, the gold standard remains Patricia Hollis, Ladies Elect: Women in English Local Government, 1865-1914 (Oxford: Clarendon Press, 1987), but there is also a burgeoning literature onwomen in twentieth-century parliamentary and international politics. 'Gendered' interpretations of British national politics remain exceptional, but for the period of the First World War, see Susan Grayzel, Women's Identities at War, and Susan Kingsley Kent, Making Peace: The Reconstruction of Gender in Interwar Britain (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1993).

(٨) Maurice Cowling, The Impact of Labour, 1920-1924: The Beginning of Modem British Politics (Cambridge: Cambridge University Press, 1971), p. 3.

(٩) Tt was closed to those outside, in terms of direct access and influence: it was closed also in that politicians were bound to see more significance in the definite

structure of relationships at Westminster, than in their contacts with the world outside.' Cooke and Vincent, The Governing Passion: Cabinet Government and Party Politics in Britain, 1885-86 (Brighton: Harvester Press, 1974), p. 21.

(١٠) Michael Bentley, 'Politics, Doctrine, and Thought', in Michael Bentley and John Stevenson (eds), High and Low Politics in Modern Britain (Oxford:Clarendon Press, 1983), p. 130.

(١١) See, notably, the festschrift edited by Michael Bentley, Public and Private Doctrine: Essays in British History presented to Maurice Cowling (Cambridge: Cambridge University Press, 1993), and Bentley's exemplary, almost anthro pological, Lord Salisbury's World: Conservative Environments in Late-Victorian Britain (Cambridge: Cambridge University Press, 2001).

(١٢) Jonathan Parry, Democracy and Religion: Gladstone and the Liberal Party, 1867-1875 (Cambridge: Cambridge University Press, 1986), p. 3.

(١٣) Probably the major difference being the 'new' political historians' continued, probing engagement with both Marxism and linguistic theory. In a recent essay, for example, Stedman Jones defends his claim that 'politics occurs wholly within discourse' while also offering a trenchant critique of Foucault's genealogy of modernity as a 'bleak dystopian inversion of liberal optimism' whose appeal can only be explained in light of the twentieth century's horrors. See Gareth Stedman Jones, 'Anglo-Marxism, Neo-Marxism and the Discursive Approach to History', in Alf Ludtke (ed.). Was bliebt van marxistichen Perspektiven in der Geschichtsforschung? (Gottingen: Max-Planck Institut fur Geschichte/Wallstein Verlag, 1997), especially pp. 194, 197, 205.

(١٤) Biagini and Reid, in Currents of Radicalism, insist that the Marxist interpreta tion of politics as a direct expression of class interests has been 'surprisingly dominant' (p. 3); similarly, Miles Taylor claims - citing two accounts - that 'many studies' of mid-Victorian politics 'routinely' assume clearly distinct class-based strategies (The Decline of British Radicalism, p. 3). Jonathan Parry, more realistically, admits that political historians have been warning of 'the perils involved in attempting to explain political activity in "class" terms' since the 1960s (Parry, Democracy and Religion, pp. 1-2).

(١٥) Biagini, Liberty, Retrenchment and Re form, pp. 6-7.

(١٦) John Foster, Class Struggle and the Industrial Revolution: Early Industrial Capitalism in Three English Towns (London: Weidenfeld and Nicolson, 1974); John Vincent, The Formation of the Liberal Party, 1857-1868 (London: Constable, 1966); Peter Clarke, Lancashire and the New Liberalism (Cambridge: Cambridge University Press, 1971).

(١٧) H.C.G. Matthew, Gladstone, 1809-1874 (Oxford: Clarendon Press, 1986), especially chapter 5; Boyd Hilton, The Age of Atonement: The Influence of Evangelicalism on Social and Economic Thought, 1785-1865 (Oxford: Clarendon Press, 1988), chapter 9. Two excellent summary statements of this new narrative of liberalism's birth are Peter Mandler, The Strange Birth of Liberal England: Conservative Origins of the Laissez-Faire State, 1780-1860, Harvard University Center for European Studies Working Paper Series No. 19 (Cambridge, Mass., 1989); Pat Thane, 'Government and Society in England and Wales, 1750-1914', in F.M.L. Thompson (ed.) The Cambridge Social History of Britain, 1750-1950, vol. 1, Social Agencies and Institutions (Cambridge: Cambridge University Press, 1990), pp. 1-61.

(١٨) Vincent, The Formation of the Liberal Party, pp. xiv, xiii. Catherine Hall would agree, but would not conflate masculinity with 'full humanity' in this way: see her 'Competing Masculinities: Thomas Carlyle, John Start Mill and the case of Governor Eyre', in her White, Male and Middle Class: Explorations in Feminism and History (London: Routledge, 1992), pp. 255-95.

(١٩) Jon Lawrence and Miles Taylor, 'Introduction: Electoral Sociology and the Historians', in Jon Lawrence and Miles Taylor (eds), Party, State and Society: Electoral Behaviour in Britain since 1820 (Aldershot: Scolar Press, 1997), p. 2.

(٢٠) For the latter, see especially, Bill Schwarz, 'The Language of Constitutionalism: Baldwinite Conservatism', in his Formations of Nation and People (London: Routledge, 1984), pp. 1-18.

(٢١) Philip Williamson, Stanley Baldwin: Conservative Leadership and National Values (Cambridge: Cambridge University Press, 1999); Ross McKibbin, 'Class and Conventional Wisdom: The Conservative Party and the "Public" in Inter-war Britain', in his Ideologies of Class: Social Relations in Britain, 1880-1950 (Oxford: Clarendon Press, 1990), pp. 259-93; Susan Kent, Making Peace; Alison Light, Forever England: Femininity, Literature and Conservatism Between the Wars (London: Routledge, 1991).

(٢٢) Williamson, Stanley Baldwin, pp. 350-7.

(٢٣) Max Weber, 'Politics as a Vocation', in H.H. Gerth and C. Wright Mills (eds), from Max Weber: Essays in Sociology (New York: Oxford University Press, 1946), pp.77-9.

(٢٤) Lewis B. Namier, The Structure of Politics at the Accession of George III (London: Macmillan, 1929); Samuel H. Beer, Treasury Control: The Co-ordination of Financial and Economic Policy in Great Britain (Oxford: Clarendon Press, 1956).

(٢٥) E.P. Thompson, 'Eighteenth-Century English Society: Class Struggle Without Class?', Social History, vol. 3 (1978), p. 141, quoted in Philip Harling, The Waning of 'Old Corruption': The Politics of Economical Reform in Britain, 1779-1846 (Oxford: Clarendon Press, 1996).

(٢٦) John Brewer, The Sinews of Power: War, Money and the English State, 1688-1783 (New York: Alfred Knopf, 1988); Thomas C. Ertman, Birth of the Leviathan: Building States and Regimes in Medieval and Early Modern Europe (Cambridge: Cambridge University Press, 1997).

(٢٧) I'm drawing on Michel Foucault's rough distinction here: see his History of Sexuality, vol. 1, An Introduction (New York: Vintage, 1980), part 5.

(٢٨) See, for example, Maurice Bruce, The Coming of the Welfare State (London: B.T. Batsford, 1961); Derek Fraser, The Evolution of the British Welfare State (1973) (2nd edn, London: Macmillan, 1984). By contrast, Pat Thane explicitly acknowledges the global context within which social policy developments occur by including (as Brewer did) comparative sections in her study, The Foundations of the Welfare State (London: Longman, 1982).

(٢٩) The classic example being, of course, T.H. Marshall's famous 1949 lecture, 'Citizenship and Social Class', reprinted in his Class, Citizenship and Social Development (Garden City, NY: Doubleday, 1964), pp. 71-134.

(٣٠) For which, see my earlier study, Family, Dependence, and the Origins of the Welfare State: Britain and France, 1914-1945 (Cambridge: Cambridge University Press, 1993).

(٣١) Carolyn Kay Steedman, Landscape for a Good Woman: A Story of Two Lives (1986) (reprinted, New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1987), especially pp. 29-30, 121-4.

(٢٢) Ina Zweiniger-Bargielowska, Austerity in Britain: Rationing, Consumption and Controls, 1939-1955 (Oxford: Oxford University Press, 2000).

(٢٣) See, especially, RJ. Overy, War and Economy in the Third Reich (Oxford: Clarendon Press, 1994), particularly chapter 9.

(٢٤) C.A. Bayly, Imperial Meridian: The British Empire and the World, 1780-1830 (London: Longman, 1989); PJ. Cain and A.G. Hopkins, British Imperialism, 2 vols (London: Longman, 1993); Mrinalini Sinha, Colonial Masculinity: The 'Manly Englishman' and the 'Effeminate Bengali' in the Late Nineteenth Century (Manchester: Manchester University Press, 1995).

(٢٥) Mrinalini Sinha, 'Britishness, Clubbability, and the Colonial Public Sphere: The Genealogy of an Imperial Institution in Colonial India', Journal of British Studies, vol. 40 (October 2001), especially pp. 491, 521.

(٤)

ما التاريخ الدينى الآن ؟

أولوين هوفتون

عندما كنت طالبًا بجامعة لندن، كان التاريخ الدينى تاريخًا سياسيًا إلى حد كبير . والواقع إنه بالنظر إلى الوراء ، كان ما يقدم عن بواكير تاريخ بريطانيا الحديث بالجامعة أواخر خمسينيات القرن العشرين هو ما يمكن تسميته اصطلاحًا إنجيل سير چيوفرى إلتون **Geoffry Elton**. أما ما كان يدرس عن أوربا فكان فى أكثره الدين والنتائج السياسية ، متزامنًا مع كلمات مثل تحول الخبز والنبيذ إلى جسد المسيح ودمه ومهاجمة *العقائد الدينية* لنقل محتوى *العقيدة والصراع* . وهناك حقائق بعينها ما تزال محفورة فى عقلى من تلك التجربة ، مثل محاضرة ألقاها رينيير **Renier** كان القصد منها أن تطبع فى ذهن الطلاب أن واحدًا فقط من كل عشرة من الناس فى الأراضى الواطئة كان يؤمن بالذهب الكالفينى(*) عندما نشبت الثورة الهولندية. وربما كنت مبالغًا إلى حد ما بشأن جوانب القصور فى مقررات الدراسة . وأتذكر ، دونما إحالة دقيقة إلى المحتوى، بعض المحاضرات الرائعة جدًا ألقاها دوم ديڤيد نولز **Dom David Knowles** ، فى لامبث بالاس ، عن الديرية الإنجليزية وإدراك أنه فى أوراق الامتحان كان الدين وصعود الرأسمالية محل الأسئلة بشكل مستمر. ومن المؤكد أن فيبر وتاونى **Tawny** والشخصية الاعترافية للتغير الاقتصادى كانت شاخصة وموجودة .

(*) نسبة إلى چون كالڤن ، وهو مؤسس أحد فروع البروتستانتية .

لقد كنت مهتمًا على استحياء ولم تلهبنى الحماسة . إذ إن ما كان مثيرًا بالنسبة لى عندما بدأت تاريخى المهنى بعد التخرج ، هو ما كان يجرى على الجانب الآخر من القنال الإنجليزى (أى فى أوربا) فى مقاربة مدرسة «الحوليات Annales»(*)، كما كنت مشدودًا إلى العمل الذى أثارته الماركسية على كلا ضفتى القنال الإنجليزى. وفيما يتعلق بالماركسية ، فإننى كنت أظن دائمًا أن الأسئلة التى تولدت عنها أهم كثيرًا، بالنسبة لى، من التفسير المتعالى. لقد صار التاريخ من أسفل موضوعًا مهمًا يُشكل تحديًا فى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين ، وهناك كنت أقف . إذ إن كلاً من مدرسة الحوليات وما تولد عن الماركسية من أسئلة آنذاك قد انحبس فى «المادة» وعلى الرغم من أن لوسيان فيبفر Lucien Febvre مقاوم عنيد للمقاربة «الذهنية». ومع كل هذا ، كانت الآفاق آخذة فى الاتساع ، وكان جزء من تلك التجربة الآخذة فى الاتساع بالنسبة لى نوعًا جديدًا من الدراسة التاريخية.

لقد تفتح الطريق إلى غايتى أوائل ستينيات القرن العشرين ، عندما انشغلت وأنا طالب دراسات عليا بكتابة تاريخ بلدة نورماندية وتجربتها الاجتماعية السياسية فى أثناء الثورة (وهى بلدة أمضيت بها بعض الوقت تلميذًا فى مدرسة ديرية)، وبدأت العمل فى قسم الوثائق فى كالفادوس Calvados . وحول الطاولة ربما كان هناك دستة من الرجال المسنين المحترمين ؛ كان بعضهم فى مسوح الرهبان ، والبعض الآخر فى ملابس القساوسة . كانوا جزءًا من عالم اختفى الآن، مجموعة متفرغة من العلماء الرهبان والقساوسة يكتبون فى سنواتهم الآفلة تاريخًا عن نظامهم الرهبانى اعتمادًا على سجلات الدير ووثائقه وسجلات الأراضى، أو عن مصير واحد من أولئك الذين سجنوا أو تم نفيهم إبان الثورة . وما يزال باستطاعتى أن أتمثل المشهد. لقد سيطروا فى ضوء الأعداد والوقت على إنتاج تاريخ دينى من الداخل . ولم يكن بالدقة تاريخًا محايدًا فى ضوء ما ركزوا عليه وكان بعض منه يدخل فى نطاق سير القديسين hagiography

(*) إشارة إلى المدرسة التاريخية التى مثلها الباحثون الذين أصدروا الحوليات فى فرنسا Annales . (المترجم)

بشكل صريح . ولكن باعتباري واحداً قضى بعض الوقت منذ زمن قريب مع المجلدات الضخمة في مجموعة : **Archivium Historicum Societatis Ieus** يمكنني أن أشهد أنه كان هناك بعض العمل التاريخي الاستردادي العظيم الذي كان قائماً على أساس الوثائق بشكل مكثف . وعلاوة على ذلك ، فإن المؤرخين من أمثال شور هامر **Schurhammer** ، وراهنر **Rahne**، وتاكشي فينتوري **Tacchi Venturi** لم يتم استبدالهم لأن الغرب رفض بدرجة كبيرة النداء الديني.

لقد جئت إلى كالفادو من باريس، حيث كنت قد حضرت حلقة نقاش (سمنار) يسارية جداً عن التاريخ الثوري الفرنسي، وصرت واعياً بقراءة التاريخ الديني من خارجه . وقد حدث هذا في شكلين : أولهما ، كان هناك التراث الجمهوري الذي أوضحه ميشيليه **Michelet** رسمياً ، وثانيهما ، المدخل الماركسي الذي تبناه صف طويل من المؤرخين من أولارد **Aulard** إلى ماتييز **Mathiez** . هذان الخيطان اجتمعا سوياً لكي يقدما حكاية سائدة عن التاريخ الديني من خارجه ، لأنه بالنسبة للجمهوري الفرنسي والماركسي كان الديني هو الحرمان الكنسي وكانت الكنيسة والدولة قوتي استقطاب تتنافسان على تحقيق ارتباط الناس بهما . وكانت مثل هذه المقاربة ترى الناس مغفلين، مفعولاً بهم أكثر من كونهم فاعلين . كان الدين في وجهات النظر هذه أفيون الشعب. وكان انتصار الدولة على الكنيسة، وانتصار الحداثة على علمنة المجتمع، بعد مواجهة مريرة وطويلة في فرنسا، مطروحاً على أنه انتصار قد تحقق إلى حد كبير دون صدامهما. وبدقة أكثر كان هذا النصر الذي لم يكن منه بدٌ قد عرقلته مقاومة الفلاح الجاهل . ففي النهاية كان الانتصار انتصاراً للعقل، أو بعبارة أخرى، كان انتصار الدولة على الكنيسة.

فمن ناحية ، إذن، كان هناك النشاط الداخلي، ومن ناحية أخرى ، أي الخارج، كان هناك تفسير سياسي متجاوز. وما كان على وشك الحدوث كان شيئاً غيَّر بوضوح وجه الدين في التاريخ . ومنذ ذلك الحين فصاعداً ، كان هذا توطئة لافتقاد الوجود إلى حد كبير، فقد كان تاريخاً دينياً من وجهة نظر المستهلك (المعروف باسم جماعة المؤمنين) .

هذا التوسيع فى إطار المرجعية، وإن لم يكن التغير الوحيد، كان فى رأيى التغير الحاكم فى تحويل كتابة التاريخ الدينى فى الحضارة الغربية فى القرن العشرين. فقد حرك كتابة التاريخ الدينى بعيداً عن موضوع المؤسسة ، إكليروسياً ، علمانياً، وذكورياً ، إلى وسط السوق . كما أنه شكل سطحًا مشتركًا مع اهتمامات تاريخية أخرى كانت من سمات الفترة ولم تتمايز عنها فى بعض الحالات. كان الدين بحلول ثمانينيات القرن العشرين يفسر على أنه جزء جوهرى من الثقافة كما أنه من نتاج الثقافة . وكان ينظر إلى النساء والرجال على أنهم مصنوعون ، وليسوا مولودين، وفى هذه العملية التشكيلية فى الغرب، يكون المعتقد الدينى مركز عملية الصنع هذه .

- ١ -

إن التتابع الزمنى لتحول بؤرة الاهتمام من التراتبية الكنسية والأمور السياسية العليا إلى جمهور المؤمنين والديانة «الشعبية» لا يمكن أن يكون دقيقًا تمامًا . وربما كانت الوثبة الأولى، التى سنأخذها فى الاعتبار أولاً، القوة الكبرى التى تُملى تغير الرؤية من القسيس إلى الناس. لقد جاءت من داخل المجتمع الكاثوليكى نفسه وكانت أصولها فى فرنسا. وقُيِّض لهذه القوة أن تقذف بالكتابة عن التاريخ الدينى فى منطقة شئ يفهمه أتباع مدرسة الحوليات ، لأنه صار فى الحال **histoire Sérielle** (أى التاريخ الذى يمكن عده وبالتالى يمكن أن يستقر على أساس من التوالى الرقمى) ولكنه صار أيضًا **histoire des mentalités** (تاريخ العقليات) . وفى سياق عالمى أوسع – على الرغم من أن الفرنسيين كانوا قادةً فى جزء من هذا المجال كذلك– كان هناك تطور آخر؛ وهو تطور ربما كان أكثر فتنة بالنسبة للباحثين الإنجليز والأمريكيين لأنه لم يستلزم أن يحبسوا أنفسهم على مدى عشرين سنة فى أرشيفات الإدارة قبل أن يكتبوا **doctorot é lettres** أى دكتوراه فى الآداب ، وقد أدى هذا التطور إلى دخول أحد فروع الدراسات التاريخية مجال العواطف الإنسانية والعوامل المؤثرة على هذه العواطف ومحركات التغيير. ويجد المرء نفسه أمام إغراء بأن يلخص هذا التغير الصارخ بالقول إن لورنس ستون كان منهمكًا فى العمل على تاريخ العائلة(١) – الأسرة.

وأود للحظة أن أفصل بين هذين التطورين وأن أركّز على أولهما. فمن بين القساوسة الذين كانوا حول الطاولة فى أرشيف أقسام الكالڤادوس كان رئيس الرهبان برتيلوت دى شسنى Abbé Berthelot du Chesnay ، الذى كان أصغرهم ، كما كان مدرسًا وباحثًا نشيطًا.، وقد اهتم بما كنت أقوم به لأننى قرأت كتابه عن القس والمصلح التعليمى چان إيديس Jean Eudes الذى عاش فى القرن السابع عشر. وفى يوم من الأيام أعارنى مؤلفات عالم الاجتماع الدينى جابرييل لوبراس G. Le Bras . وفى ثلاثينيات القرن العشرين كان اهتمام لوبراس منصبًا على شرح عدد من المشكلات التى برزت فى فرنسا بعد الحرب . وتمثلت إحدى تلك المشكلات فى التسرب الدينى الشعبى ؛ إذ كان شعب الكنيسة يغادرها ، بيد أن هذا كان واضحًا فى بعض الأماكن بقدر أكبر منه فى البعض الآخر. وكانت المشكلة الأخرى تتمثل فى أزمة الخطاب الدينى، وكان أخطر تجلياتها النقص فى عدد القساوسة الأبرشيين ، وكذلك نقص عدد الراهبات اللاتى كنَّ مدرسات الجيل التالى (والواقع أن خروج الراهبات من الكنيسة لم يكن سوى فى بدايته عندما كان عالم ما بعد الحرب يرى فى دعوات تحرير المرأة نوعًا من الطنين الخافت) .

كانت الخطوة الأولى لحل هذه المشكلات أن نفهمها ، حسبما رأى لوبراس فى خمسينيات القرن العشرين. وبحث فى أهم الدراسات التاريخية والجغرافية والاجتماعية عن مفاتيح حركة رفض العقيدة الكاثوليكية. وفى دراسته بعنوان «دراسات فى علم الاجتماع الدينى Etudes de Sociologie Religieuse[٢]، اقترح منهجًا – وهو منهج قذف الكرة فى ملعب التاريخ والتاريخ المتسلسل histoire Sérielle – سوف يتيح بناء خريطة أو خرائط توضح حادثة التسرب الدينى فى أوقات بعينها ؛ إذا ما تم اتباعه. على أن تكون مصادر هذا الجانب من البحث هى سجلات الزيارة . وكان سجل الزيارات قد نتج عن بحث دورى يقوم به الأسقف، أو من ينوب عنه، عن الحالة الدينية للأبرشيات، وكان يمكن ربط الصورة الأبرشية بالصورة الأسقفية التى كانت بدورها جزءًا من الصورة البطريركية الأوسع . وكان لابد أن يكون المنتج النهائى للثمار المتراكمة من مثل هذه السجلات نوعًا من الجغرافيا الدينية، وهو شىء عزيز «علينا نحن

فى الحـوليـات "nous des Annales" وليس أقل من الزواج بين التـاريخ المتـسلسل histoire Sérielle والذهنيـات mentalités» وثانيًـا ، أن سـجـلات دخـول الطامـحين فى الانضمام إلى سلك القساوسة يمكن دراستها (وأيضًا بالرجوع إلى التصنيف المتسلسل) ؛ وكان يمكن دراسـة الواقعة ، ومكانة الأسـرة ومستويات التعليمات، وحيث ومتى أمكن رسم خارطة التردى الحاصل. وباختصار ، كان يمكن للمرء أن يمتلك خريطة ترتبط بأية فترة من القرن السـادس عشر (فقد صارت الزيارة أكثر شيوعًا بعد أن تغيرت أدوار الأسـاقفة بقرار من مجمع ترنت الكنسى) حتى العصر الحديث، وظهرت سلسلة من الخرائط أوضحت فى أية نقطة بات التسرب من الكنيسة واضحًا للعيان.

تطلبت هذه الممارسـة قرارات معينة تتعلق بقصور عملية الدراسـة الكمية. أولاً بأية معايير يمكن قياس الالتزام والاتسـاق الدينى؟ لقد حُسم مقياس لوبراس جزئيًا بنوع الأسئلة التى طرحها الأسـاقفة الزائرون على قساوسـة الأبرشيات الذين كانوا يزورونهم . وقد سجلوا الممـارسـة وفقًا لمعـايير مـعينة. وقـد جعل هذا من الممكن تصنيف درجات الالتزام ونقص الالتزام . وكان المعيـار الأول هو Croyant / Pratiquant أى أولئك الذين تم تعـميـدهم ، وتزوجـوا ومـاتوا وقـد حـصنتـهم طقـوس الكنيسـة وكـذلك المواظبـة على الاعتراف بالصوم الكبير وعلى المشاركة فى العشاء الربانى والحضور الأسبوعى فى قـداس يوم الأحـد وفى أيام الأعـيــاد . والفـئـة الثــانيـة Conformisme Saisonnaire والتى كان المعنى بها هـو الشـخص الذى ربما يقوم بالتزامـات عيد الفصح وقد يلتزم بطقـوس الانتـقـال ، والزواج فـى الكنيسـة ويجـعل أطفـاله يُعـمـدون ، ولكنه قـد لايعبـأ بممارسة يوم الأحد بانتظام أو بالحماسة المتطرفة . والفئة الثالثة كانت تتمثل فى أولئك الذين لاتهمهم الممارسة الدينية.

ومع خطر المبالغة فى تبسيط مـا كـان مهمـة عمـلاقة، هـى التى لايقوم بها سـوى رجل فرنسى سعيًا وراء المعرفة، كان عمل لوبراس قد أزاح النقاب عن متدينين بالشرق والغرب وبعض المناطق المعينة المتقدة بـالحمـاسـة حـيث كـان الكاثوليك والبروتسـتانت متـجاورين. وفى منتصف خمسينيات القرن العشرين كانت مـدن معينة وجزيرة فرنسا Ile de France وبوش دى رون ومـدينة تروى، وهلم جرا ، أولى المدن التى شهدت نسـبة كبيرة من التسرب الدينى.

وربما يكون أهم ما في الأمر، أن أكبر نقطة تسرب قد انفتحت كثيراً منذ أواخر القرن التاسع عشر بل في القرن العشرين، إلى الحرب العالمية الأولى أو حتى الحرب العالمية الثانية وما تلاها . وقد أظهرت الخصائص التالية . أولاً ، وبشكل عام ، ولكن مع بعض الاستثناءات أن العزوف عن الكنيسة قد حدث بشكل كبير في المدن الكبرى قبل المدن الصغرى، وفي هذه المدن الصغرى قبل القرى . وقد خرج الرجال عن سلطة الكنيسة قبل النساء، على الرغم من أن النساء تركن الكنيسة في المدن الكبيرة قبل الرجال في القرى. وصارت عبارة **dimorphisme Sessuel** جزءاً من المفردات المستخدمة في التحليل. وباختصار، مضت عشرون سنة قبل أن تتناول فروع أخرى من التاريخ الموضوع، كما أن لوبراس احتضن المفهوم قبل الكلمة. كما أنه سلّم بأسباب التسرب الأسبق للرجال؛ ومنها على سبيل المثال، فترات الخدمة العسكرية ، أو الروح الاجتماعية القائمة على الحانات والتي طرحت نموذجاً منافساً للمخالطة الاجتماعية.

وفوق هذا ، أوضح عمله أنه عشية الثورة الفرنسية لم تكن هناك قرية تقريباً في فرنسا كان غير المتدينين فيها غير الممارسين **non Pratiquants** يتجاوزون ثمانية بالمائة من جمهرة السكان الذكور، وكانوا متمركزين في وظائف بعينها مرتبطة بتجارة المشروبات أو النقل بالسفن، أو كانوا من الباعة الجائلين . ولم يحطّ المفكرون قط من شأن الإحصائيات. والحقيقة أنه بالنظر إلى هذا العمل يمكن للمرء أن يقول إن المرء لايرى أي دليل على عمليات ترك المسيحية أو تأثيرات حركة التنوير قبل تسعينيات القرن الثامن عشر؛ إذ إن الثورة عرقلت الممارسة الدينية ووضعت المتدينين في علاقة معادية مع الدولة الجمهورية ، ولكن على العموم، كانت كنيسة أوائل القرن التاسع عشر قادرة على استعادة معظم أتباعها .

وحيثما كان يوجد تسرب ديني، كانت توجد أزمة خطاب ، ولكن تدني أعداد القساوسة كان ملحوظاً أكثر في المدن الثرية وبين البورجوازيين؛ إذ كانت الكنيسة آنذاك، بعد أن تم تجريدها من أرضها ومن هيراركيتها ، تدفع مرتبات متواضعة وكانت أقل جاذبية للعائلات القادرة . وربما كانت هناك أسباب أخرى. وأظن أن الراهب برتيلوت شسناي هو الذي أعطاني فكرة أنه عندما كفّت الأمهات عن توجيه خطوات

الابن الذى لم تكن تردن خسرانه لصالح امرأة أخرى تجاه الكنيسة والعزوبية الدائمة (التبتل) ، كان لابد من حدوث أزمة فى الخطاب . ويؤكد المؤرخون الإيطاليون فى القرن العشرين أن الأزمة حدثت فى الخطاب عندما فهمت العائلات الريفية أن وجود قسيس فى العائلة لم يعد يعنى ارتفاع مكانتهم . وقد وصلت أعداد النسوة اللاتى دخلن فى المنظمات الدينية النشطة إلى ذروتها سنة ١٩٤٧م ثم تدهورت بسرعة بعد ذلك . وكانت هذه بالنسبة للكنيسة ضربة شبه قاضية . فقد نجت المنظمات الرهبانية النسائية من عملية فصل الكنيسة والدولة (سنة ١٩٠٥م) وحل المنظمات الرهبانية التعليمية ، وبدأت مرحلة عودة مهمة ، لاسيما فى التعليم الابتدائى وتعليم البنات. وبتخفيف مورد الراهبات انقطعت الوسائط الأولية للعملية الاجتماعية.

ويجدر بنا أن نبدأ بلوبراس لأن التاريخ الدينى لم يعد كما كان أبداً . ذلك أن كتاب **Histoire Sérielle** قد تطفل على التواريخ الذهنية **mentalites** : كانت جماعة أتباع الكنيسة مرحلة مركزية . لقد طرحت الدراسات الإقليمية المنفصلة ، مثل تلك التى قام بها چيرارد شولڤى **Gérard Cholvy** لأسقفية مونبلييه(٣)، المواجهة بين سياسات الجناح اليسارى والدين فى مسألة المساواة. وثمة دراسات أخرى، مثل دراسة أسقفية لاروشيل، وهى معقل من معاقل البروتستانتية، قدمت التقاليد الدينية المتصادمة باعتبارها وسائط لاستمرار الالتزام من جانب كل من الفريقين(٤).

«كيف يمكن اختبار التدين وفهمه؟» . هذا السؤال الذى طرحه لوبراس فيما يتعلق بشعب الكنيسة لم تتم دراسته حتى الآن سوى من خلال الانصياع والممارسة فقط. هل كان يمكن أن يكون هناك مؤشرات أخرى لاختبار الإيمان وظاهر التسرب ؟. كان لابد للإجابة أن تكون «نعم»، ولكننى يجب أن أمسك السؤال مؤجلاً لأن جوانب أخرى من الاهتمام التاريخى كانت على وشك أن تفرض نفسها على التطور .

لقد زاد الاهتمام بتاريخ الأسرة وتاريخ العلاقات، والعواطف ، و- فيما بعد - العلاقة الجنسية منذ أواخر ستينيات القرن العشرين زيادة واضحة مع ظهور مؤلفات مؤرخين مثل لورنس ستون(٥) وفيليب آرييس **Philippe Ariés**(٦)، وچان لوى فلاندرين(٧)

الذين كان لهم أتباع كثيرون. وكان الهدف من تاريخ الأسرة الجديد هو التحقق من التغيرات التى طرأت على المركب الجوهرى فى الأسرة الغربية . وقد عَوَّل تاريخ الأسرة الجديد جزئيًا على المعلومات السكانية ، وعلى التاريخ المتسلسل **histoire Sérielle** ، ولكنه اعتمد بدرجة أكبر كثيراً على الأدب التأكيدى نفسه والمصمم لإرشاد المؤمنين فى مجال السلوك. هذا الأدب ، الذى انساب من المطابع الأولى، كان قاسيًا. فقد وضع الواجب تجاه الرب فوق حب الرجل أو المرأة، كما أنه يرى الطفل على أنه ينبوع الخطيئة الذى يجب تنظيمه فى السلوك الصحيح . وكان يتم تحذير الأبوين ضد الإحاطة العاطفية بالطفل ويتم حثهم على رؤية قصدٍ إلهى فى خسارة الأطفال أو فقدانهم . كما كان يسعى إلى وضع الكنيسة ، باعتبارها المتعهد بالعقيدة المسيحية، فى موضع السيطرة على المسألة الجنسية . وقد غمس چان لوى فلاندرين قراءه فى الأدب الاعترافى الكئيب الذى منع كل السلوك الجنسى الذى لم يكن موجهًا إلى استمرار النوع البشرى بشكل مشروع . هذه الصورة الكئيبة خفَّت حدتها، بحسب ما يقول لورنس ستون، فى القرن الثامن عشر (ثمة جدل بأنه «قرن الطفل») ، مع العلمنة والسلام الوطنى والنزعة الاستهلاكية.

ولست بحاجة إلى المجادلة ضد بناء التاريخ فوق رمال التأكيد ، ولكن الاهتمام بتاريخ الأسرة وتاريخ أهل المنزل أدخل البحث فى المنطقة المشتركة بين الدين والسلوك ، وشدد على أن سيطرة الكنيسة على الشئون الجنسية قد ثبتت فى الأچندة ، بسبب حركات الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر ووسائل الإقناع الجديدة بما هو مطبوع ، وبأساليب الدعاية . وأكدت تطورات التاريخ السكانى **demographic history** نجاح حركات الإصلاح الدينى فى إدخال الزواج إلى الكنيسة (والتحكم فيه منذ ذلك الحين) ، ونجحت بشكل تدريجى - لأن الأمر استغرق قرنًا من الزمان أو يزيد- فى تخفيض العلاقات غير الشرعية إلى مستوى استثنائى (أقل من واحد بالمائة من المواليد) فى أوربا الغربية القرن السابع عشر . حقًا إن هذه المستويات عاودت الارتفاع فى القرن الثامن عشر بين الطبقات العاملة فى المدن . وعلى أية حال ، بدا أن ما سجله القرن السابع عشر تأكيداً على وجود العائلة المؤمنة حقًا - وهو انتصار للنواهى الدينية،

أى لعبارة «لايجب عليك أن ...» "Thou shalt not." على حد تعبير ديلان توماس Dylan Thomas . كان تاريخ الأسرة قد قاد حركة تخلت عن التحليل والتعليق على عملية تحكم كل من الدولة والكنيسة، أو اتباع الطريق المستقيم فى البيت وفى المجتمع ، كما بعدت عن الاهتمام بالإحصائيات وحدها . وصارت مادة التأكيد النوعية ، والمعلومات المختارة التى تقدم العينات هى الأكثر شيوعًا من التجميع القاسى للأرقام .

- ٢ -

وثمة اهتمام بالدين باعتباره قوة للتحكم الاجتماعى فى المنزل وفى الجماعة الأوسع صار نغمة قوية فى تدوين التاريخ فى جميع أنحاء الغرب منذ سبعينيات القرن العشرين ، والواقع أنه بقى كذلك[٨]. لقد كانت تحديدات الكيفية التى تحقق بها السلوك الدينى القويم من خلال الاعتراف ومحاكم التفتيش ، والتوجيه بطريقة الاستجواب، وإهانة الخصوم فى المجتمع، هى التى وفرت المعلومات لبعض أفضل الكتابات التاريخية فى القرن العشرين[٩]. إذ إن مثل هذه المؤلفات درست الخطوط بين الإجبار على الانصياع الذى تحقق - مثلاً، كما تبرهن عليه محاكم التفتيش أو فى التأكيد الجديد على التهديد التطهرى - والأمل ؛ أى الوعد بالخلاص لأولئك الذين يطيعون الأحكام ويلتزمون بالقواعد. ومن خضم الأدبيات الوافرة سوف أختار ثلاثة كتب، وكلها فرنسية ، ولكنها جميعًا ترجمت إلى كثير من اللغات الأوربية، وكل منها مهم بشكل حيوى فى تحديد شكل مجال الدراسة .

ويتناول أول هذه الكتب السؤال غير المريح : «عند أية نقطة فى الزمن يمكن للمرء أن يعد جمهرة الناس الذين اعتنقوا المسيحية ؟» كانت هذه دراسة قام بها إيمانويل لو روى لادُرى Emmanuel de Roy Laduri بعنوان :

Montaillon, Cathars and Catholics in a French Village, 1294- 1324.

اعتمدت هذه الدراسة بشكل أساسى على سجل الزيارات لمنطقة جبال البرينيس فى القرن الرابع عشر، وهى المنطقة التى شهدت تجربة الكاثاريين(*). وقد سعت الدراسة إلى نقل الحالة الأخلاقية فى منطقة نائية كانت قد اعتنقت الهرطقة فى القرن الثالث عشر. وكان الكتاب مقروءاً للغاية وإن كان مزعجاً إلى حد ما . كما كان أيضاً يحمل قدراً ضئيلاً من المخادعة من حيث إنه التقط جميع القصص الأكثر إثارة فى مقاطعة بأكملها وركزها فى قرية واحدة . وكانت بعض هذه القصص مثيرة للغاية ، مثل أن شهادة امرأة كانت مقبولة ، ولم تؤد إلى إلصاق خطيئة ممارستها الجنس مع قسيس بها (وكذلك زوجها) لأنه ببساطة كان قسيساً . كذلك كان هناك جهل بصلوات الرب والوصايا العشر وعجز عام عن مباركة الذات بشكل صحيح ، وهكذا. وباختصار فإن المحتوى المؤثر للعقيدة الدينية كان غاية فى الضعف . ويعنى هذا ، بقدر من التساهل الكريم، أن هذه الدراسة سمحت بتشكيل مقولة مؤداها أن أوربا لم تنتصر بشكل فعَّال قبل إصلاح الكنيسة الكاثوليكية . هذا صوت مقاومة ضد هذه النظرية الكبرى، بيد أنه ما يزال يحظى بموافقة واسعة النطاق .

والمثال الثانى مأخوذ من أعمال چان دلومو **Jean Delumeau**، كاتب العديد من الدراسات عن الدين[١١]. والعمل الذى أظن أنه الأكثر تأثيراً على الرغم من أنه قد لا يكون أحسن مؤلفاته ، كتابه «الخطيئة والخوف» **Sin and Fear** (١٩٨٣) . وأول أعماله عن روما القرن السادس عشر له مكانة كلاسيكية باعتباره تناولاً بمنهج أصحاب مدرسة الحوليات **Annales** للبنى الاجتماعية – الاقتصادية والسياسية المؤسسية

---

* الكاثاريين (الأطهار) حركة مسيحية شهدها الجنوب الفرنسى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، واعتبرتها الكنيسة الكاثوليكية حركة هرطقة وتحالفت مع الملكية الفرنسية ، التى كانت ما تزال ملكية إقطاعية تسعى لإقامة سلطة حقيقية، لشن الحرب على الجنوب الفرنسى. وقد تمكنت «الحملة الصليبية الألبيچنسية» ضد المسيحيين الكاثاريين من تدمير الجنوب الفرنسى، وكان نصيب الملكية الفرنسية من أملاك المهزومين وأملاكهم كبيراً بحيث دعم سلطة التاج على الأمراء والنبلاء الإقطاعيين . ولأن الذين سجلوا تاريخ الكاثاريين كانوا أعداءهم من رجال البابوية والملكية ، فإن الحقيقة ما تزال غير معروفة إلى حد كبير. (المترجم)

فى المدينة السماوية. ومؤلفه عن الإصلاحيين الكنسيين، الذى تمت ترجمته سنة ١٩٧٧م ، ربما ما يزال أفضل تفسير عام لتلك الفترة . وعلى النقيض من ذلك فإن كتاب الخطيئة والخوف **Sin and Fear** أحد الكتب المتحيزة ذات الغرض **parti pris** ، ومن حين لآخر يكون مفككًا على نحو ما. ومع هذا فقد كان له تأثير كبير للغاية . ويقوم الكتاب أساسًا على المواعظ وكتيبات الاعتراف والأدبيات الأخرى ويتناول العلاقة بين المعترف والطفل الروحى. وهو يطرح السؤال : كيف نجحت كنيسة القرن السادس عشر (وهو يطرق موضوع الإصلاحات الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء) فى (تنصير) جمهرة من السكان يفتقرون إلى المعرفة الدينية الصحيحة ؟ والإجابة بالغة التبسيط هى من خلال تطور مفاهيم الخطيئة والشر (السحرة والزناة) والخوف . حتى الذين هم من الأبرياء الذين لا لوم عليهم يتم تحريضهم على إماتة الجسد، ومن خلال الخوف من تنويعة كاملة من العقوبات هنا والآن وفى الحياة الآخرة على السواء، كانوا فى حال من القلق المستمر . كانت عقوبات الخطيئة هى الموت . وبهذه الطريقة ، حسبما جادل دلومو ، نجح المذهبان (البروتستانتى والكاثوليكى) فى زرع الانصياع لتعليماتهما. وباختصار، كان التحكم الاجتماعى بالنسبة لدلومو هو الذى فرض الانصياع لأى من المذهبين (البروتستانتى والكاثوليكى) من خلال الخوف وتطور مؤسسات مثل صندوق الاعتراف ، وممارسة الاعتراف وكذلك محاكم التفتيش . وقد كانت هذه القضية قد نوقشت من قبل ، ولكن فى شكل أقل فظاعة وإيلامًا، فالأخلاق (لايجب أن تفعل... **Thou shalt not**) كانت تفرض مفاهيم مرعبة تسبب الشلل عن التطهر وعن نيران الجحيم الأبدية.

كان تاريخ التطهر تاريخًا عن الفضاء فيما بين الموت والحياة الخالدة حيث يعذب الخاطئ حتى يتطهر (ومن هنا جاء المصطلح) ويكون قادرًا على أن ينعم بالسلام. لقد كان التطهر فى جوهره تطورًا كاثوليكيًا **Promotion catholique** لأن المصلحين البروتستانت اعتبروه مفتقرًا إلى المساندة الروحية الكافية. وقد رفضه مارتن لوثر تمامًا . والواقع أن كل اللاهوتيين البروتستانت قد رفضوه ، مع أنهم كانوا متشددين فى مسألة الخطيئة وكانوا من أبطال فكرة العذاب فى الجحيم. وقد تم تحويل التطهر إلى عملية تجارية على مستويين فى أواخر العصور الوسطى: أولهما، عن طريق بيع صكوك

الغفران التى تمنح الإعفاء من أسوأ أنواع العذاب ، وثانيهما ، شراء صلوات القداس لراحة المؤمنين الراحلين، على أن يكون الرهبان فى مقدمة من يقومون بالقداس. وقد أعاد مجمع ترنت التأكد على وجود منطقة المطهر، ومن ثم فإن الاعتقاد فى «المطهر» كان يُنظر إليه على أنه الفارق الأساسى بين الإيمان البروتستانتى والإيمان الكاثوليكى. وفى مجمع ترنت تم توضيح أن الاعتراف هو العامل الحاسم فى تحديد مدى طول الفترة التى يقضيها المرء فى هذا المكان المرعب ، إلى جانب الندم وتعديل السلوك، كما يجب أن يكون الموت الكاثوليكى مقترنًا بتنقية الضمير تمامًا . بيد أن شروط تخفيف الاحتمالات الرهيبة فى منطقة المطهر - أى الصلاة وطيبات الأعمال،. ونحوها - بقيت كما هى. وقد اهتم كتاب ديلومو عن الخطيئة والخوف بأن يجعل عاطفة الخوف المحرك الوحيد فعلاً للانصياع الدينى أما أفكار الأمل أو الحصول على النعمة أو السلوان فى عالم صعب- أو أى نوع من *الراحة* فى *الواقع*- فلم يكن لها مكان. وفى رأيى أن ديلومو مذنب هنا بسبب بعض التشويش، على الرغم من إعجابى بثراء كتابه ، والسؤال *الذى* طرحه. ومع *هذا*، فإنه قد أسهم بقوة فى نشأة عمل تاريخ الموت.

كانت الفترة الباكرة فى العصور الحديثة، بالنسبة لديلومو، هى فترة زرع الخوف من عدم الانصياع وبناء التحكم الذى فرضته تعاليم الكنيسة. وإذا كانت الكآبة قد غطت روايتى كل من ستون وفلاندرين عن العلاقات *الإنسانية* الناجمة عن حركة الإصلاح الدينى وتعاليم الإصلاح الكاثوليكية، فقد كانت رواية ديلومو عن طقوس إماتة الجسد والكفارة الفردية عن الذنوب ذات تأثير مدمر . ومع هذا لايمكن رفض أطروحته تمامًا ، والواقع أن التدوين التاريخى الكاثوليكى الجارى يعترف ، بشكل أو بآخر بالعنصر القوى الذى يمثله الخوف والذى تجلى فى الجهد المبذول لتحويل الجماهير إلى مبشرين. وعلاوة على ذلك ، فإنه نجح على مدى ثلاثة قرون فى فرض *الانصياع الدينى* والأخلاقى على الجماهير . وتخطى حركة الإصلاح الدينى والإصلاح الكاثوليكى باعتراف واسع بأنهما يمثلان انتصار فترة الصوم الكبير. وقد تجلى الإيمان بالشر (وربما كان أقوى من الإيمان بالخير) فى محاكمات السحرة، والتفتيش فى الضمائر بصورة متكررة ، وقبول الكفارة عن الذنوب ؛ كما أن منع المتعة الجنسية بصفة خاصة،

والخزى من عدم الامتثال للمعايير التى يفرضها الكتاب المقدس، كان بمثابة التصديق على أطروحة ديلومو. وعلى أية حال ، فإنه يترك بالتأكيد لجانب واحد من جوانب أكثر إيجابية للتغير.

والكتاب الثالث الذى اخترته ، دكتوراه فرنسية **doctorat és lettres** – وهى رسالة اقتبس منها عدد من الناس أكثر من الذين قرءوها بالفعل – وهى الرسالة التى كتبها ميشيل ڤوڤيل **Michel Vovelle** بعنوان[١٢] **Piéte barouque et déchristianisation** وقد اعتمد ڤوڤيل (وهو ماركسى لطيف وباحث من الطراز الأول) حرفيًا على آلاف الوصايا فى البروڤنسال (كان هذا مؤلفًا آخر عن التاريخ المتسلسل) فى توسيع لمدى البحث عن بدء عملية التخلى عن المسيحية أو علامات العلمنة. وقد اختار أن يعرّف الكاثوليكى من خلال الكيفية التى يحتاط بها للموت. وكانت رسالته استثنائية فى ثرائها فى موضوع الموت **ars moriendi** . وقد اعتمدت على فن الأيقونات المرسومة على المقابر أو الآثار الجنائزية ، وسعت إلى تحليل وحصر كمى للديباجة التمهيدية الرسمية لآلاف الوصايا . هذه الوصايا تم تصنيفها بحسب المدينة، والبلد، والنوع وما إلى ذلك .

كانت الديباجة تحتوى على تعليمات من أجل جنازة الميت بلغة المواكب (عادة فى عدد رمزى من الفقراء الذين يسيرون وراء النعش) والهبات لتوزيع الصدقات يوم الموت، وكذلك، شروط صلوات القداس من أجل راحة الروح فى المطهر، على مدى فترة زمنية كبيرة. ولم يقدم عينات من مصادره ، ولكنه كان يهدف إلى أن يكون شاملاً. وإعادة قراءة ڤوڤيل تعنى أن تكون واعيًا بالمدى الذى كانت دكتوراه الدولة التى ألغيت فى فرنسا تحرك المعرفة التاريخية إلى الأمام؛ إذ إنه أوضح فى البداية الانهيار الأسلوبى للمقبرة الباروكية فى القرن الثامن عشر، وتبسيط موكب الجنازة ، وتخفيض عدد صلوات القداس من أجل راحة الروح فى سبعينيات القرن الثامن عشر فيما بين النخب الذكورية فى المدن . وقد رأى فى هذه الاتجاهات نذيراً بالتخلى عن المسيحية / الاتجاه نحو العلمانية ورأى فيها فعلاً علامة البداية على تضاؤل الإيمان بالمطهر . كما أنه حقق اضمحلالاً خفيفاً فى المبالغ المتاحة فى ديباجة الوصية من أجل أعمال الإحسان والخير. كان مدى عمل ڤوڤيل باهراً ، وكان يتم نسخه بشكل انتقائى على مدى صغير نسبيًا

(عدة مئات قليلة من الحالات وليس عدة آلاف) لرؤية ما إذا كانت الاتجاهات التى اقترحها لها تطبيق أكثر عمومية . وهناك عمل على باريس بمبادرة جماعية نظمها بيير شونو[١٣] Pierre Chaunu اقترح أن العاصمة ربما كانت أكثر من الأقاليم قليلاً فى النضج.

كان تفسير ڤوڤيل أكثر توافقًا مع رأى أسبق عن تأثير فكر التنوير على السلوك الاجتماعى. والحقيقة أنه يقدم القليل لتحدى الصورة التى قدمها لوبراس عن الانصياع حيث يحتمل أن يكون ما نراه ليس سوى تغير فى الأساليب الفنية التى انتصر فيها النفوذ الكلاسيكى على أسلوب الباروك المنمق . لقد سعت حركة التنوير الكلاسيكية نفسها إلى تبسيط الاحتفالات . وقد تأكد تدهور هبات الإحسان الذى حققه ڤوڤيل على مستشفيات البروڤانس من خلال دراسة دانييل روش Daniel Roche عن باريس قبل الثورة. وعلى أية حال ، لاحظ ڤوڤيل نفسه أن الهبات كانت تمنح بشكل مُطرد إلى النظم الرهبانية النسائية بوازع اجتماعى، ولكن لأن هذا لم يكن موجوداً فى بداية دراسته ، فإنه لم يكن قد ضمنها تحليله. وما أوضحه ڤوڤيل بالفعل هو أن ذلك التغير كان ملحوظًا فى ممارسات النخب من الذكور.

لقد جعل ڤوڤيل من دراسة صعود وسقوط الطقوس المحيطة بالموت انشغالاً كبيراً. وقد مضى البعض شوطًا أبعد . إذ إن سام كوهن Sam Cohn فى كتابه الموسوم[١٤] Death and Property in Siena 1205-1800: Strategies for the Afterlife انتقد ممارسة ڤوڤيل فى استخدام ديباجة الوصية ، التى يتم فيها توزيع مجرد جزء بسيط من ضيعة بأسرها فقط، لأنها حجبت عدد الموصين الذين أعطوا هبات كبرى أو حولوا المؤسسات الخيرية إلى erede universalis . وفى هذا الرأى ، أن ڤوڤيل حجب القيمة الحقيقية للهبات الممنوحة للمساعدة . وقد أثار كوهن السؤال المثير عن تحديد الأولويات المتغيرة فى الهبات الخيرية فى فترة زمنية طويلة تغطيها الوصايا فى تتابع زمنى. فقد تبين ، على سبيل المثال، أنه فى سيينا القرن الخامس عشر، كانت أديرة النساء أفضل متلقى لوصايا التوريث ، ولكن هذا تغير فى القرنين السادس عشر والقرن السابع عشر إلى هبات بمبالغ بالمهور لمساعدة الفتيات على الزواج. (وفى رأيى أن أحد أسباب هذا ربما كان الرفض الواسع للقسوة الجديدة فى النُسك التى فرضها مجمع ترنت) .

ومهما كانت التحفظات التى يبديها المرء حول أطروحة ڤوڤيل ، فربما يكون قد اقترب بقدر الإمكان من تحديد خريطة ضعف وجمود المطهر . وعلاوة على ذلك، فعلى الرغم من أنه كانت هناك مؤلفات أكثر تواضعًا من حيث عدد وثائق الوصايا التى تم فحصها واتخاذ عينات من مجموعات بعينها والخصوصية الكرونولوچية ، فإن أحدًا لم يقترب من مؤلفه بنفس الاتساع الجغرافى والفترة الزمنية. ومع هذا ، فإن اتخاذ العينات بطريقة انتقائية من مدريد القرن السادس عشر على يد كارلوس إير **Carlos Eire** قد غيَّر بكثافة خاصة وثراء فى التفصيل الفهم الإسبانى للحياة الآخرة(١٥).

- ٣ -

وهناك ملاحظة مختلفة ، وهى أن التطورات التى جرت على تاريخ الأسرة والمنعطف اللغوى تولَّد عنها اهتمام بالسير الذاتية، والخطابات واليوميات (الوثائق المركزة على الذات) – وكانت اليوميات فى البداية تسوَّق باعتبارها أداة لحفظ السجل الروحى. وبالإضافة إلى ذلك، فإن المعترفين ، الذين واجهتهم امرأة متدينة ملتزمة بالأعمال الطيبة ولها نزعة روحية ، حثوها على كتابة تجربتها الدينية من أجل المناقشة. وفى معظم الحالات ، كانت مثل هذه النساء لهن حظ من التعليم . وأية قراءة قاسية لهذه الممارسة ربما تكشف عن أن المعترف كان يأمل فى وجود شخصية مميزة أمامه يمكن أن يجعل منها المرشد الروحى لقديس أو زاهد فى المستقبل. أما القراءة الأكثر عطفًا فقد تكون أنه كان يقصد مناقشة أهمية أفكارها أو تجاربها المزعومة وفى هذا النوع من الكتابة قدر أقل من الكآبة وقدر أكبر من الأمل مما يجده المرء فى أدبيات الوعظ . والواقع إن المؤرخات النساء الإيطاليات(١٦). ترى فى هذا النوع من التمارين خطوة أولية نحو تخصيص النساء لأنفسهن نوعًا من **auto conscienza** ؛ أى تعلم التفكير بصورة مجردة وإيجاد القيمة فى أفكارهن الخاصة.

لقد أثارت العلاقة بين التاريخ والأدب أسئلة عن معرفة القراءة والكتابة والفروق بين الأقاليم والبلاد. إذ إن الموضوع السائد فى المنشورات الصادرة عن مطابع

المذهبين (البروتستانتى والكاثوليكى) كان دينيًا . وصار الناس فى أوربا «أهل الكتاب» . وقد أكد على أهمية السجلات المختلفة فى المناطق البروتستانتية والكاثوليكية الإنجليز والهولنديون وبعض الولايات الألمانية لتسبق السجل الكاثوليكى بخصوص القدرة على القراءة. وقد أوضحت مارجريت سبوفورد Margaret Spufford كيف أن معرفة النساء القراءة والكتابة فى قرى شرق أنجيليا نمت من خلال القراءة الجماعية للكتاب المقدس[١٧]. وعلى أية حال ، فإن التباطؤ الذى اتضح بين معرفة الكاثوليك ومعرفة البروتستانت القراءة والكتابة طرح السؤال القائل لماذا وُجد هذا التباطؤ ؟ والحقيقة أن كلمات «لماذا» بدأت تتكاثر بشكل دال فى أواخر الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين.

وثمة تطور مهم زاد من الأسئلة كان هو تطور تاريخ المرأة والنوع وما يتصل به من اهتمام بـ «التاريخ الثقافى» . كان تاريخ الأسرة قد عوّل بشدة على الوعظ الدينى، ولكن تاريخ النوع مضى خطوة أبعد ليستكشف العوامل الثقافية التى شكلت النساء والرجال . «النساء والرجال مصنوعون وليسوا مولودين»، إذن فما الذى صنعهم؟ كان من الصعب على المؤرخين الأوربيين، دعك من علماء الأنثروبولوچى أو الاجتماع أو مؤرخى الشرق الأوسط أو آسيا، ألاّ يبدءوا بالدين باعتباره المرجعية الثقافية الحاكمة. وكان تأكيد حركات الإصلاح الدينى على معرفة الكتاب المقدس أو التعليمات الدينية الشفاهية التى تجلت فى الأدب الوعظى الذى كانت تنتجه المطابع، مجرد جانب واحد من جوانب وجود النماذج المأخوذة من الكتاب المقدس فى التطور الاجتماعى. إن قصة آدم وحواء، التى جعلت المرأة هى المغوية سهلة الانخداع ، والجنس الأكثر خطيئة دشّنت هذا الخطاب . ففى سفر التكوين، وهو ما أكده القديس بولص ، كان على النساء أن تجلسن صامتات فى الكنيسة ، وأن يكن تحت سيطرة الرجل وأن يقاسين الآلام فى ولادة الأطفال. هذا النص ، حتى فى القرن الثانى عشر ، أدى إلى مناقشات فيما بين رجال الكنيسة حول ما إذا كانت للنسوة أرواح .

ومن حسن الحظ أن تم حسم هذه المسألة بالإيجاب. وأسطورة حواء هى السبب فى النظر إلى المرأة باعتبارها الجنس الأدنى. وكان حتمًا اعتبار تسرب التفرقة بين الجنسين فى المسئولية داخل مجموعات القوانين، والمعايير المزدوجة فى طهارة الذكر

وطهارة الأنثى ، والميل إلى اعتبار النساء وكيلات الشيطان ، حزمة من عوامل العجز التى تواجه النساء. لقد كان الدين جزءاً من الإرباك الثقافى الذى يكبل الطفلة الأنثى بالقيود والمسئوليات التى يجب عليها أن تتحايل عليها لضمان وجودها . لقد بات سفر التكوين ، والإصحاح الحادى والثلاثون فى سفر الأمثال الذى يضع مواصفات ربة البيت الصالحة جزءاً من الوثائق التى تجب دراستها فى تاريخ المرأة. وعلاوة على ذلك ، فقد وفر الدير، بوصفه مؤسسة دينية، وظيفة تطهيرية لخدمة ضحايا الطموح فى الأسر الحاكمة فى كثير من البلاد الأوربية ؛ وربما يلفت النظر، أن إيطاليا حيث كان نظام المهور يحدُّ من عدد البنات اللاتى قد تزوجن فى كل عائلة . إذ كانت واحدة بين كل ثلاث بنات ، أو واحدة بين كل خمس بنات ، من بيوت النبلاء التى ترجع أصولها إلى المدن الإيطالية الرئيسية فى بواكير العصر الحديث ، ينتهى مصيرها بالذهاب إلى الدير . كيف كانت مشاعرهن إزاء ذلك ؟ كيف كن يقضين أوقاتهن؟ ما الذى كان هذا الفراغ الأنثوى يتعلق به ؟ فى أخريات القرن العشرين تم تكريس قدر كبير من حشو الكلام لتاريخ الراهبة، وتصاعدت الإثارة والاهتمام ، عندما تم التعرف على بعض شخصيات من النساء الراهبات باعتبارهن أوائل الكاتبات ، والرسَّامات ، والموسيقيات اللاتى يمكن ذكر أسمائهن – هيلدجارد من بنيين **Hildegarde of Bingen** ، وسور چوانا **Sour Juana** من مكسيكو سيتى، وبلوتيلا نيلى من فلورنسا **Plautilla Nelli** . وكان هناك سؤال آخر مطروحُ : هل كانت القلاية التى تصطف بها الكتب غرفة مملوكة لإحداهن ؟ إن ثقل الأدلة الظاهرة يتمثل فى أنها قدمت بعض الإمكانيات، وخاصة للدراسة الأدبية، ولكن كونه فى الحقيقة فراغًا للتأمل ، والانغلاق من الصارم الذى فرض لبضع سنوات بعد مجمع ترنت، قطع الاتصال بالخارج والذى كانت هناك حاجة إليه .

إن دراسة الرهبنة والزُّهد زادت فى حجمها وتمت معالجة ما ظهر من تناقض . لماذا كانت ديانة بدا أنها لاتقدم للنساء سوى مشاركة من الدرجة الثانية، تجتذبهن ؟ لقد برهنت الإجابات على مثل هذه الأسئلة على تنوعها واختلافها، إذ إن الدراسات التى ظهرت عن «فقد شهوة الأكل المقدسة»(١٨)، وهى الحالة التى تكون عليها المرأة الباحثة عن تجربة نُسكية من خلال الحرمان من الطعام – حتى تيريزا من آڤيلا

Teresa of Avila اعترفت بأنهن فئة متمايزة- كانت بقصد الحصول على التقدير من الناس. والبعض، ولاسيما من المؤرخين الأمريكيين، شرحوا هذه الظاهرة فى ضوء الحماسة داخل مجتمع لايقدم سوى القليل من البدائل . ولكن كانت هناك تفسيرات أخرى لجاذبية الدين بالنسبة للنساء. وثمة خط مثمرٌ من البحث جعل الدين جزءًا من عمل السلوان بقدر ما يتيح بناء علاقة بين النساء فى المجتمع والقديسين الذين نسبت إليهم تجارب معينة . وحتى هذا اليوم، إذا ما كان المرء يقف أمام ضريح سانت ريتا فى كاسكيا ويقرأ ex votos (أى التقدمة التى يقدم بها النذر) ، فإنه يكون واعيًا بالعلاقة بين المعاناة والسلوان . وإذ ما تزال سانت ريتا تتفوق فى شعبيتها حتى على العذراء ، فإنها قد صارت، شعبيًا وإن لم يكن رسميًا ، قديسة الزوجة المقهورة[١٩] وأوربا المسيحية مرصعة أيضًا بالأضرحة والمزارات التى تقدم السلوى للعاقرات . وكانت النساء تأخذ أطفالهن الذين ولدوا موتى إلى حرم الكنيسة Sanctuaries á répit ويصلين من أجل حدوث معجزة قد تعيدهم إلى الحياة بحيث يمكن تعميدهم ولاتُضطر أرواحهم الصغيرة أن تهيم فى موطن الأطفال المحرومين من دخول الجنة لأنهم لم ينالوا المعمودية[٢٠]. فما الذى على المحك هنا ؟ هل هو الخوف ؟ هل هو الأسف والرغبة فى أن يبذل المرء ما فى وسعه ؟ إن تاريخ الأمومة وتاريخ إظهار التدين مرتبطان بشكل واضح .

كانت المؤرخات الإيطاليات سريعات فى توفيق مفهوم أن الدين فى المنزل من اختصاص الأم. إذ يتعلم الأطفال صلواتهم وكيف يباركون أنفسهم من أمهاتهم ؛ كما أن الطهى والإعداد للولائم الدينية تقوم به الأمهات ، وهكذا . وباختصار ، يمكن للمرء أن يمضى وقتًا طويلاً حول هذا الموضوع، فإن ما فعله تاريخ المرأة وتاريخ النوع كان تجزئة رعايا الكنيسة على نحو أكثر تمييزًا مما كان لوبراس وفوفيل قد فعلاه ، إلى ذكور وإناث، وفى افتراض أسباب مختلفة للالتزام ، وأشكال مختلفة للمشاركة. وتطور تاريخ الذكورية والاهتمام بالشذوذ الجنسى أيضا تم إقحامه ، وهنا يعرض دوافع مختلفة للتخلى عن الالتزام الدينى .

ولم تتوقف التجزئة عند هذا الحد. وربما حتى التصور المسبق للاهتمام بالنوع كان الاهتمام بالطبقة ومفهوم ثقافة النخبة والثقافة الشعبية. وكان تاريخ اضطهادات السحرة قد وضح لفترة طويلة على أنه لحظة ، من الناحية التاريخية ، يكون فيها انسجام بين الاثنين . كان هذا الانسجام ينقطع بسبب الشكوك التى تساور النخبة التى بدأت تقاوم الاتهام والإدانة القادمة من أسفل . لقد أعطانا تاريخ الاضطهادات والمفاهيم المحلية عن الشر وانتشاره فى كل مكان بالعالم على نطاق واسع الكثير لنفكر فيه فى مواجهة التصديق الشعبى. فهل يعتمد كل من مفهوم الخير ومفهوم الشر على كل منهما الآخر(٢١) ؟ لماذا كانت هناك نساء أكثر من الرجال تمت إدانتهن على أنهن ساحرات ، ولماذا كانت هناك نساء أخريات بارزات للغاية بين أولئك الذين أدانوهن؟

كان تاريخ ديانة الشعب أيضًا يستمد معلوماته من دراسة التدين الشعبى ورحلات الحج، والنقوش التى على مذابح الكنائس وخلفها ، ونصوص التقدمة التى كانت تقدم بها النذور، والقضايا القانونية ومحتويات الكنائس، والممارسات . وكان لوبراس نفسه قد حث على أن رحلات الحج تستحق الدراسة والفحص فى سبيل هذه الغاية ، ولكن ربما لم يحدث حتى منتصف تسعينيات القرن العشرين أن جرى تقويم منهجى للطرز المتحولة فى مواقع الحج والتغيرات التى جرت على جماهير الحجاج أنفسهم. وبالمثل ، فحص مؤرخو الفن محتوى الكنائس والأهمية الخاصة لأعمال فنية بعينها مثل العذراوات المنبطحات اللاتى جاءهن المخاض فى **Massif Central** والذى صار ناعمًا بفعل نساء الأبرشية وهن يكشطن الحجر لتشجيع المفهوم. وهناك دراسة لمحتويات الكنائس الأبرشية الإنجليزية وفّرت المادة الخام لدراسة إيامون دوفى **Eamonn Dffy** التى تحمل عنوان : **The Stripping of the Altars**(٢٢) ، الذى جادل ليثبت تذبذب الحياة الدينية الإنجليزية حينما اقتحمت حركة الإصلاح الدينى المشهد. كل هذه الطرق لمقاربة تجليات التدين بوضوح ترتقى بفهم ما كان الدين يعنيه بالنسبة للجماهير ويمكن المضى به شوطًا أبعد كثيرًا بالتأكيد.

إن تثبيت هذا النوع من المادة كسب القوة الدافعة مع النزوع الأنثروبولوجى للتاريخ أواخر سبعينيات القرن العشرين(٢٣). وقد أتاحت المثابرة على متابعة الرموز

والطقوس باعتبارها وسيلة لحل شفرة البنى الفكرية والديناميكية لمجتمعات بأسرها ظهوراً متميزاً جديداً لجوانب بعينها من الممارسة الدينية . وقد ركزت مثل هذه الدراسات على الاحتفالات بالمدينة، والكنيسة وحياة البلاط، والمواكب، ورحلات الحج، والشعائر والطقوس، والاحتفالات التى كانت تتم بمناسبة مرور الفرد بالمراحل المختلفة من دورة الحياة ، مثل المعمودية، التى كانت علامة على الدخول الاجتماعى فى الجماعة، ويضع الفرد فى سياق من القرابة ويعطى قدراً أوسع من الدعم من خلال الأبوين الروحيين؛ والزواج ، المؤسسة التى ناضلت الكنيسة على مدى قرنين من الزمان للسيطرة عليها لكى تنظم علاقات جنسية معينة وتضفى عليها الشرعية ، ولكنه أيضاً احتفال يدل على انتقال امرأة من سلطة رجل إلى سلطة رجل آخر وخلق وحدة جديدة فى قصة الجماعة. وكان يتجاوز هذين الاحتفالين (المعمودية والزواج) احتفال الموت أو بالأحرى الطقوس المحيطة به . وعلى أية حال ، كما يحدث فى التعميد والزواج، ربما يكون ما ننظر إليه فى طقوس المشاركة هذه جزءاً من عمل الانتماء ، أى جزءاً من الكينونة داخل الجماعة، ومساندة مزاعم الانتماء إليها .

- ٤ -

ارتبط بهذا الوعى بالدين باعتباره خاصية من خواص الانتماء اهتمام «طنين» آخر فى التدوين التاريخى فى القرن العشرين، وهو الاهتمام بتكوين «الهوية». وعلى الرغم من أننى عرفت بشكل قوى فى عدة مناسبات أن الهوية من خلق الحداثة ، فإننى أرفض تصديق هذا. فمن بين المتاع الثقافى للسكان الأوربيين، كان الإيمان الدينى والممارسة الدينية يُرضع مع لبن الأم، والفرق بين المذاهب هو الذى ميز شعباً عن شعب آخر. والتاريخ الدينى فى العصور الحديثة الباكرة ، إذا ما استخدمنا مفردات المدرسة الفرنسية، يضع حدود الكاثوليكية **frontiéres de catholicité**، أى المناطق التى عاش فيها الكاثوليك والبروتستانت فى جوار غير مريح كل منهما للآخر . وكانت مثل هذه المناطق مناطق تتعرض للانتقاد من مطاردى السحرة والإدانات.

كانت المجتمعات المختلطة ، من اليهود والأغيار ، من الكاثوليك والبروتستانت ، ومن البروتستانت وأشكال من البروتستانتية ، حتى عندما لم يكونوا متورطين فى صراع حقيقى ، على وعى بالاختلاف ووضعت حدود كل منها الأخرى عن قرب شديد. فالتعليم المدرسى المختلف والمصادر المختلفة للتخفيف عن الفقراء كانت مرتبطة بالاختلاف الدينى. كانت هناك أعمال معينة مرتبطة باليهودية – مثل تجارة الملابس المستعملة فى البندقية القرن السادس عشر وفى ڤيينا القرن التاسع عشر. وكانت عادات الأكل محفوظة ورسمت الحدود بين كل ديانة وأخرى. وفى رواية صدرت سنة ١٥٢٨م وصف دلجادو، وهو قسيس مصاب بمرض الزهرى ، لوزانا (وهى مسيحية كان أجدادها اليهود قد تحولوا إلى المسيحية) وعاهرة كانت قد هربت من إسبانيا عندما بدأت الاضطهادات ومارست مهنتها فى روما القرن السادس عشر. ولم تكن تعرف شيئًا عن الشعائر أو المعتقدات اليهودية ولكنها لم تأكل أبدًا النقانق المعمولة من لحم الخنزير. وكانت طرق الطهى وتنظيف الأوانى تفضح اليهودى المتخفى. وقد احتضنت القومية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين الاختلافات الدينية، مثلما هو الحال فى المجتمعات المختلطة ، مثل أيرلندا ، أو فى بولندا التى قاومت صبغها بالصبغة الروسية . ومفهوم الاختلاف الذى اتخذ اسمًا أكثر رشاقة ، هو الاعتراف بالآخر، صار أداة تحليلية رئيسية فى الدراسات الثقافية.

والواقع إن مسألة التاريخ الدينى وتحديد الهوية قد طفا على السطح باعتباره موضوعًا رئيسيًا حتى بدون دراسات الهولوكوست والإسلام. وغالبًا ما كان مكونًا مهمًا فى الكتابة التاريخية على مستوى مصغَّر ، أى قراءة الثقافة من خلال قضية قانونية أو حادثة. ونموذج هذه الأعمال وأكثرها نجاحًا كتاب كارلوجينزبورج **Carlo Ginzburg,** **The Cheese and the Worms (1992)** . والحوادث ، التى قصد بها وضع حادثة فى محيط ثقافى خاص تم بناؤه بحذر وضمن إطار زمنى، تكون مغلقة (مثل الكبسولة) فى قضية قانونية واحدة، أو يوميات محددة بشكل مؤقت ، أو حادثة مثل كرنفال انتهى بشغب بين مجموعتين دينيتين ، أو ملف للمصادقة على طلب ضم أحدهم إلى القديسين. ويُنظر إلى الالتزام الدينى والتعريفات الموصوفة بوصفها مفاتيح ثقافية حاسمة لفهم المجتمع بأسره .

لقد بات التوازن بين مفاهيم الاختلاف فى حال تجاور ديانتين لهما نسقان متعارضان من المعتقدات أمراً أساسياً لفهم المواجهات الثقافية للأوربيين عندما توسعوا فى آسيا والأمريكتين. وكنت قد انغمست حديثاً فى بعض أدبيات البعثات التبشيرية للچزويت فى القرن السادس عشر بنظرة لفهم كيفية تمويلهم. وعلى أية حال ، فإن المرء لايبتعد كثيرا جداً بدون إدراك الكيفية التى كانت البعثات التبشيرية ترى بها المجتمعات التى واجهتها ، ولهذا السبب فإن المؤلفات مثل كتاب شورهامر Schurhammer بعنوان[٢٥] Francis Xavier ، تم استغلاله لأغراض تتعدى كثيراً قصد المؤلف الأصلى. واعتبر كتاب سبنس Spence الموسوم Memory Palace of Matteo Ricci[٢٦] أحد أكثر الكتب التى قرأتها فى العقود الأخيرة من القرن العشرين جاذبية. إذ إن هدفه أن يكشف عن الوسيلة التى واجه به إيطالى نو تعليم عظيم وذكاء شديد حضارة لم تكن مسيحية، ولكنها مع هذا كانت حضارة يحترمها كثيراً . وبالفعل ، كانت الثقافة الصينية ، من بين كل الحضارات التى واجهها، هى الوحيدة التى كان على استعداد لأن يضعها فى مصاف الثقافات الكاثوليكية فى أوربا. ولم يكتب أكثر تعليق مؤثر عن حضارة الصين، حول التفكير الأوربى عن تلك القناة فحسب، بل سعى أيضا لإقناع المجتمع الصينى الراقى (بدأ الچيزويت من القمة لأنه لم يساورهم أى شك بأنه إذا لم توافق قمة المجتمع كان الجهد بلا طائل) بأن يتقبل المسيحية بمقارنة العناصر المشتركة فى الدين وفى القيم الأخلاقية الكونفوشيوسية وبإظهار المعرفة العلمية الأوربية. وقد أكد تودده إلى الطبقة الراقية من خلال تعليم الاستذكار لمساعدتهم فى امتحانات التعليم واستخدامه للبصر وسيلة تعليمية ، بمثابة أداة لتأكيد الاختلاف الثقافى.

ومن بين الطبعات الخمس التى كانت بحوزة ريتشى، كانت اثنتان منها – هما Piscatio (صيد السمك من أجل الرجال) والعشاء فى إيمايوس (كرم الضيافة وإحياء الذكرى) – هما اللتين لقيتا قبولاً حسناً من الصينيين . ولكن الكتب عن العذراء والطفل وعن صلب المسيح، كانت مصدر مشكلات. وكانت العذراء لغزاً لأنها أعطت الانطباع بأن الشخصية المركزية فى المسيحية امرأة . أما صلب المسيح فلم يكن استهلالاً جيداً.

إذ كان الصلب عقوبة فى الصين لأدنى الأدنياء. فكيف كان يمكن لأحد أن يبدأ فى نشر ديانة من خلال مشهد يجلب الاحتقار؟ هذه المواجهة بين الثقافات حول مسائل فى قلب الممارسة المسيحية تسمح بتقدير عاجل جداً للاختلاف . إن حمل كتاب ريتشى فى ترجمة لاتينية إلى أوربا أحد اهتماماتى الحالية ؛ لأن من حمله ، وهو الأب تريجولت **Trigault** ، كان مشغولاً فى بعثة لجمع الأموال لصالح المشروع الصينى ، وكان نص ريتشى جزءاً ضرورياً لإثارة الحماسة وبالتالى جلب الأموال اللازمة للمهمة التبشيرية . ورحلة تريجولت الفعلية إلى روما ، التى كانت عن طريق البر فى محاولة لإيجاد طريق يتجنب الاضطرار إلى السفر على السفن البرتغالية، والخضوع للتدقيق العنصرى من جانب البرتغاليين الذين يحددون له من يستطيع أن يأخذه معه ومن لايستطيع، كانت رحلة مثيرة حقًا . بيد أن اهتمامى كان منصبًا على كيف أنه وجد ناشراً يعطيه مائتى نسخة مجانية لكى يعطيها لمن يحتمل أن يمنحوه الأموال فى البلاط وكيف كان يستجدى العطايا، ومن أى طراز؛ لكى يؤثر فى الطبقة الحاكمة الصينية بالتكنولوجيا المتقدمة للحضارة الغربية وكذلك لمكافأة من يساعدونه. كانت الساعات، والمرايا ، والآلات العلمية وكذلك المال والرجال اللازمون للبعثات والأعمال الأكاديمية لساندتهم ، كلها كانت مهمة وحاسمة للمشروع. وكان كتاب ريتشى قد تم تهذيبه بشكل ما فى ترجمة تريجولت بحيث يجعل الصين مقبولة أكثر لدى الأوربيين . وما تم حذفه فى موضوعات الجنس والعنف يصير مهمًا فى فهم الاختلاف الثقافى بنفس قدر أهمية ما تم الإبقاء عليه. وصار الكتاب واحداً من أحسن الكتب مبيعًا، لدرجة أن الناشر لم يخسر فى النسخ المجانية .

وكان يمكن القول بقدر كبير من العدل إننى لم أتناول التاريخ الدينى **tout court** وبالفعل فإننى منذ البداية أكدت على أن قصدى متابعة الدين باعتباره جزءاً من المسألة بدلاً من كونه شيئًا فى حد ذاته. وإننى أدرك تمامًا أن هناك تاريخًا دينيًا كلاسيكيًا من النوع الذى يتابعه من يشغلون الكراسى الأكاديمية والمناصب . إن دراسة رجال الكنيسة الأفراد والكنائس الوطنية، ودراسة تطور الرهبنة والديرية والتعقيدات اللاهوتية قد مضت خطوات إلى الأمام ، ولكن بعض هذه المفاهيم الجديدة قد احتضنت أيضًا

مقاربات تطورت خارج المجال. إذ إن تحليل الشبكة الذى قدمه وولفجانج رينهارد Wolfgang Reinhard[٢٧] فى ماليات البابوية، مثلاً، صارت جانبًا واحداً من التطورات الرئيسية فى السنوات الحديثة من تاريخ البابوية . وفى إيطاليا ، قدمت ماريا أنطونيتا ڤيسيجليا[٢٨] Maria Antonietta Visceglia عملاً تجديدياً حقًا عن استغلال البابوية للاحتفالات وقصدها منها فى عصر النهضة وعصر الباروك. إذ يكشف عملها كيف تم نسخ الموروث الإمبراطورى لخلق حلقة وصل بين البابا والأباطرة الرومان الذين انتصروا على أوربا. وقد نظرت ريناتا آجو Renta Ago إلى بناء المستقبل المهنى فى البلاط البابوى من جانب بعض الأسر بعينها[٢٩]. وكان البلاط البابوى فى القرن السادس عشر هو الأقوى فى إرسال السفراء واستقبالهم ، وتضمن كتاب آجو تفكيراً فى بنية مسيرة الحصول على رتبة الكاردينال ثم مناصب السفراء وما تجلبه من تبرعات فى هذه الفترة. وقد درست استراتيجيات العائلة (The, giochi di squadra ، أو ألعاب الفريق) التى تشمل الرجال والنساء، والأبوين وعائلات الطامحين إلى المنصب ؛ وكل والدين يمثلان فى شخصيهما عائلتين ويلعب كل منهما دوراً مختلفًا عن دور الآخر. كانت النساء فى البداية منضمات بشكل غير رسمى ، من خلال حفلات العشاء التى تُجلسهن إلى جوار الرجال أصحاب النفوذ بحيث تتيح لهن إطلاق الأفكار والمفاهيم، وفوق هذا وذاك، كتابة الخطابات إلى أقاربه ومن له بهم صلة – وهى مطاردة أنثوية – لمن يقدرون على الدفع قدمًا بقضية الفرد المختار من العائلة . وكانت النساء بنات العائلات الراقية تسافرن للزواج وحينئذ تصبحن كاتبات خطابات متمكنات، وهو ما ساعدهن على بناء علاقات نافذة . وعندما كان يُعرف أن الموضوع قد أثير ولقى قبولاً طيباً، كان الرجال يتقدمون– بما فيهم كبير المنزل عادة – لكى ينهوا العمل بدون المخاطرة بخسارة شرفهم من خلال الرفض.

ونعرف من خلال آجو محتوى حقيبة الكاردينال المسافر في سفارة من روما إلى باريس: *الزهور الحريرية التى أنتجتها الراهبات لتقديمها إلى النساء* اللاتى يمكنهن المساعدة، والحلى الذهبية القيمة التى اشتراها أبناء العائلة من الذكور لإعطائها للسفير الموفد إلى الملك الفرنسى، وآنية من البللور (تشتريها النساء) وزينة الحمام

للنساء الإيطاليات اللاتى تزوجن فى البلاط الفرنسى أو حتى للملكة نفسها . وباختصار فإن أداء مؤسسة البلاط لوظيفتها ، تمت دراسته من خلال تاريخ الأسرة والثقافة الأموية، من خلال إقامة الشبكات واقتصاد الهدايا.

- ٥ -

وأخيراً ، أود أن أختتم بملاحظة تتصل على نحو ما بلوبراس وبما بدأت به حديثى . لقد قيل إن أوربا لم تتنصر بالفعل بأسرها **en masse** حتى القرن الثامن عشر، وفى اللحظة التى كان أوائل المفكرين يخوضون حربهم مع مفهوم الرب ذاته . ومن بين المسائل التى حددت التاريخ الدينى فى السنوات الحديثة كان موضوع العلمنة - كيف خرج الغرب من نطاق الإيمان بالحقائق المطلقة والراحة أو الاعتماد على الآخرة وألزم نفسه بالتسامح مع المتسامح وعدم التسامح مع غير المتسامح ، ومن ثم تحركت إلى «الحداثة» . وغالبًا ما كان يُنظر إلى هذه العمليات باعتبارها أكثر كمالاً ونعومة مما كانت عليه فعلاً، وهناك الآن جهد عازم على دفعها للأمام فى القرن العشرين . والواقع أن حركة التنوير فى القرن الثامن عشر قد أنتجت بعض الأصوات الناقدة تحدَّت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية لاسيما بسبب عدم تسامحها وممارساتها الخرافية وكذلك النصيب غير العادل فى الثروة من الأراضى وفى الامتيازات . إلا أن مثل هذا النقد كان مركزًا فى أقلام قلة قليلة. والواقع أن حركة التنوير الألمانية وحركة التنوير الأسكتلندية كانتا دينيتين بشكل عميق وكان على المرء حقًا أن يذهب إلى باريس لشن الحرب على الرب، على نحو ما فعل دى أولباخ **d'Holbach** وهلفيتيوس **Helvitius** . وحتى فى ذلك الحين ، كان على المرء أن يختار الصالون المناسب لفعل هذا . وقد أوضحت الثورة الفرنسية والثورة المضادة حماقة محاولة التحلل من الالتزامات الدينية فى الماضى من أجل الأغلبية الساحقة من السكان.

فى دراسة حركات المقاومة هذه، يبدو المفهوم القائل بأن الدين يستمد كثافته الأولية من الخوف من المطهر غاية فى الضعف . ففى ذروة الرعب كانت صلوات

القداس السرية تقام بدون قسيس على يد مدرسٍ يعرف الشعائر وبمضمون أبرشي. وقد برهن العشاء الربانى ، والاعتراف والطقوس الأخيرة على أنه من الصعب تمامًا إعادتها بعد الميثاق الذى عقد بين السكان الذين كانوا مستعدين للقتال من أجل قرع الأجراس وإعادة وضع الصور المألوفة(٣٠). وتم تصوير ممارسات المجتمع الدينية بوصفها العنصر الأكثر بسالة . كان التقدم باتجاه «التفكير الحر» فى القرن التاسع عشر مبعثرًا للغاية ومقسمًا بحسب المكان الذى يعيش فيه المرء، فى أية مدينة أو بلد، وما إذا كان المرء ذكرًا أو أنثى . فقد كانت هناك ٢٢٠ ألف راهبة فى فرنسا فى سبعينيات القرن التاسع عشر يقمن غالبًا بخدمات التعليم والرعاية. وظاهرة الـ **Laurdes** ، على نحو ما أظهرت روث هاريس **Ruth Harris** حديثًا بشكل مثير جدًا للعواطف(٣١)، ورؤى ماربنجن(٣٢)، وأطفال فاتيما ، وهى النظم التى تولدت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، إن هى إلا تعبيرات عن الحماسة الشعبية (التى تقودها النساء) والتى كانت من ذكريات العصور الوسطى.

فإذا كانت نُخب المثقفين قد حركت باتجاه العلمنة من خلال المنطق والفلسفة العقلية، فإن مثل هذه الدوافع لم تكن من البواعث الشعبية. وربما كان بناء المدن والتصنيع عوامل تصعيدية منذ منتصف القرن التاسع عشر ، ولكن يمكن للمرء أن يبالغ فى مسافة مثل هذا الخروج من الممارسة التقليدية. إذ إن الدراسات عن مدن شمال إنجلترا الصناعية توضح كيف استمر عدم الاتساق فى التحكم فى الحياة الثقافية لغالبية السكان(٣٣). وفى الوقت الحالى، تعول دراسات الهولوكوست على استمرار الكثافة الدينية فى ألمانيا منتصف القرن العشرين. وفى الكثير من مناطق أوربا الكاثوليكية كانت النساء يتمسكن بالعقيدة التقليدية لفترة أطول من الرجال. فما الذى جعلهن يتركنها فى النهاية؟ ربما لاتكون هناك إجابة واحدة. وعلى أية حال، فبالنسبة للكاثوليك ، وبصورة متزايدة فى عشرينيات القرن العشرين، يمكن أن نرى أن الموقف المتشدد للكنيسة فى مسألة منع الحمل قد وضع مشكلات أمام المؤمن المنصاع. وفى سنة ١٩٩٥م نشر مارتين سيڤرجاند **Martin Sevregand** كتابين ، هما:

Les enfants du Bon Dieu ، وكتـاب L'amour en toute lettre, وفى هدوء شـديد وبدون انفعـال عـاطفى، سمـح للوثائق أن تتـحـدث عن نفسـهـا، وحلل خطابات مـخبوءة كانت مرسلة إلى قسيس كان مسئولاً عن عمود مشورة فى دورية كاثوليكية .

لقد كشف الاهتمام الذى أثاره الكتابان كيف كان العالم المعاصر فى تسعينيات القرن العشرين أقسى من عالم عشـرينيات القرن العشـرين . إذ وضـعت الدراسـات أيدينا على عذاب الأزواج – أجداد الجيل الحالى الذى ربما يبلغ بضعًا وعشرين سنة – الذين كانوا يرغبون فى الاتساق مع تعاليم الكنيسة ولكنهم كان لديهم وفرة من الأطفال لا يمكنهم إعالتـهم بشكل جيد أو الذين شكل مولدهـم خطرًا على حـياة الأم وجـعلهـا عـاجزة . وفى فرنسا كانت سياسـة الحكومة نفسـها مع زيادة المواليد حتى سبعينيات القرن العشـرين، وكان تخلى الدولة عن مثل هذه السياسات هو الذى جعل التحكم فى المواليد ممكنًا . وقد أعطى هذا للنسـاء مزيدًا من الاختيار والسيطرة على أجسادهن ، وربما كان من بين عوامل كثيرة ساعدت على زيادة سرعة التغيرات التى تركت الكنيسة معزولة باعتبارها النصير الوحيد للوضـع السابق. وباختـصار ، تحتاج العوامل الكثيرة إلى التفكير فى تقويم العلمنة والتحديث، وتسجيل أكثر دقة يأخذ فى الحسبان الكثير من العوامل الثقافية .

وفى القـرن الحـادى والعـشرين مـا زلنـا نعيـش مـع مشـكـلة أولسـتر Ulster ، وهى عبـارة عن تقسـيم ثقـافى كان أصلـه عوامل دينيـة، وهى مشكلة حدد مـلامحـهـا دراسـة مـاريان إليوت[٣٤] Marianne Elliott . الأخـيرة بدرجـة كبيرة ، وعـلاوة على ذلك كشفت مسائل أخرى عن الشقوق والتصدعات التى تفصل بين المغرب العلمانى والإسلام. وعندما نتطلع قدمًا إلى القرن الحادى والعشرين فإن التاريخ السياسى لمجتمعاتنا التـعددية يبـدو جـاهزًا لأن يكون أكثـر اهتـمـامًـا بما هو دينى. وعـلاوة على ذلك، فـإن المؤرخين الذين هم فى العـادة أبناء زمـانهم فى الأسـئلة التى يضـعـونهـا بـأنفسـهم، سيواصلون بلا شك عملية تفكيك الحدود القديمة للبحث التاريخى بحيث يدخلون الدين باعتباره فئة من فئات التحليل.

ملاحظات وهوامش

(١) L. Stone, The Family, Sex and Marriage in England 1570-1640 (abridged version, London, 1979).

(٢) G. Le Bras, Etudes de Sociologie religieuse, vol. I, Sociologie de la pratique religieuse dans les compagnes francaises (Paris, 1955).

(٣) G. Choivy, Histoire du diocese de Montpellier (Paris, 1976).

(٤) L. Perouas, Le diocese de la Rochelle 1648 - 1724. Sociologie et pastorate (Paris, 1964).

(٥) L. Stone, The Family, Sex and Marriage in England (1979).

(٦) P. Aries, Centuries of Childhood: A Social History of Family Life (New York, 1962).

(٧) J.L. Flandrin, Families in Former Times: Kinship, Household and Sexuality (Cambridge, 1979).

(٨) R. Po-Chia Hsia, Social Discipline in the Reformation: Central Europe, 1550-1700 (London, 1989); The World of Catholic Renewal 1540-1700 (Cambridge, 1998).

(٩) H. Schilling, 'Chiese confessional! e disciplinamento sociale. Un bilancio provvisoria della ricerca storica', in P. Prodi (ed.), Discipline dell'anima, disciplina del corpo e disciplina della societa tra medievo e eta moderna (Bologna, 1994), pp. 125-60; A. Prosperi, Tribunal! della coscienza: Inquisitori, confessori, missionari (Turin, 1996).

(١٠) E. Le Roy Ladurie, Montaillou: Cathars and Catholics in a French Village 1294-1324 (London, 1980).

(١١) J. Delumeau, La Vie economique et sociale de Rome dans la seconds moitie du XVIe siecle, 2 vols (Paris, 1957-59); Catholicism between Luther and Voltaire (Cambridge, W 7); Sin and Fear: The Emergence of a Western Guilt Culture (New York, 1990) (first published in French, 1983); Rassurer et proteger. Le sentiment de securite dans l 'Occident d'autrefois (Paris, 1989).

M. Vovelle, Piete baroque et dechristianisation en Provence 1750-1820 (Paris, 1973). (١٢)

P. Chaunu, La Morta Paris XVI, XVI let XVI 11 siecles (Paris, 1978). (١٣)

S.K. Cohn, Death and Property in Siena, 1205-1800: Strategies for the Afterlife (Baltimore, 1988). (١٤)

C. Eire, From Madrid to Purgatory: The'Art and Craft ofDying in Sixteenth Century Spain (Cambridge, 1995). (١٥)

L. Scarrafia and G. Zarri, (eds). Women and Faith (Cambridge, MA, 1999). (١٦)

M. Spufford, Contrasting Communities: English Villagers in the 16th and 17th Centuries (Cambridge, 1974). (١٧)

C.W. Bynum, Holy Feast and Holy Fast: The Religious Significance of Food to Medieval Women (Berkeley, 1987); R. Bell, Holy Anorexia (Chicago, 1995). (١٨)

L. Scarrafia, La santa degli impossibili. Vicende e signiftcati della devozione a Santa Rita (Turin, 1990). (١٩)

0. Hufton, The Prospect Before Her: A History of Women in Western Europe 1500-1800 (London, 1995). (٢٠)

L. Roper, Oedipus and the Devil: Witchcraft, Sexuality and Religion in Early Modem Europe (London, 1994). (٢١)

E. Duffy, The Stripping of the Altars: Traditional Religion in England 1400-1580 (London, 1992). (٢٢)

C. Geerz, The Interpretation of Cultures (New York, 1973). (٢٣)

C. Ginzburg, The Cheese and the Worms (London, 1992). (٢٤)

G. Schurhammer, Francis Xavier: His Life and Times, 4 vols (Rome, 1982). (٢٥)

J. Spence, The Memory Palace ofMatteo Ricci (New York, 1984). (٢٦)

W. Reinhard, Papstfinam und Nepotismus unter Paul V (1605 - 1621) (Stuttgart, 1974). (٢٧)

M.A. Visceglia, 'Ceremoniale romani: il ritorno e la trasfigutazione dei trionfi antichi', in L. Fiorini and A. Prosperi (eds), Roma la cittd del papa (Turin, 2000). (٢٨)

R. Ago, Carriere e clientele nella Roma barocca (Rome, 1990). (٢٩)

0. Hufton, Women and the Limits of Citizenship in the French Revolution (Toronto, 1992), chapters 2 and 3. (٣٠)

R. Harris, Lourdes: Body and Spirit in the Secular Age (London, 1999). (٢١)

D. Blackbourn, The Marpingen Visions: Rationalism, Religion and the Rise of (٢٢) Modem Germany (London, 1995).

S.J.D. Green, Religion in the Age of Decline: Organisation and Experience in (٢٣) Industrial Yorkshire, 1870-1920 (Cambridge, 1996); J. Morris, Religion and Urban Change: Croydon, 1840-1914 (London, 1992).

M. Elliott, The Catholics of Ulster: A History (London, 2000). (٢٤)

Further reading

Baroja, J.C., Las formas complejas de la vida religiosa. Religion, sociedad, y cardcter w.

las Espana de los siglos XVI y XVI 1 (Madrid, 1978).

Bell, R., Saints and Society. The Two Worlds of Western Christendom (Chicago, 1982).

Berthelot du Chesnay, Les missions de Saint Jean d'Eudes (Paris, 1967).

Burke, P., 'How to be a Counter-Reformation saint', in K. von Greyerrs (ed.)i

Religion and Society in Early Modem Europe 1500-1800 (London, 1984), pp. 71-83.

Chatellier, L., Tradition chretienne et renouveau catholique dans le cadre de l'ancim diocese de Strasbourg (1650-1770) (Paris, 1981).

Choivy, G. with Hilaire, Y., Histoire religeuse de la France contemporaine (Toulouse/1989).

Christian, W.A., Local Religion in Sixteenth Century Spain (Princeton, 1981).

Cousin, B., Le miracle et le quotidien. Les ex voto provencaux. Images d'une societe (Ail en Provence, 1983).

Gentilcore, D., 'Adapt Yourself to the People's Capabilities: Methods and Impact in the Kingdom of Naples, 1600-1800', journal of Ecclesiastical History, vol. 4i (1994), pp. 269-96.

Hufton, 0., Bayeux in the Late Eighteenth Century (Oxford, 1967).

Hufton, 0., 'The French Church', in WJ. Callahan and D. Higgs (eds), Church cmi Society in Catholic Europe in the Eighteenth Century (Cambridge, 1979), pp. 13-33.

Hufton, 0., 'The Reconstruction of a Church 1796-1801', in G. Lewis and C. Lucas (eds), Beyond the Terror (Cambridge, 1981), pp. 21-53.

Hufton, 0., 'Whatever Happened to the History of the Nun?', (Royal Holloway College Hayes Robinson Lecture, 2000).

Langlois, C., Le catholicisme au feminin: Les congregations a superieure generate au XIXe siecle (Paris, 1984).

Le Bras, G., Etudes de sodologie religieuse, vol. II, De la morphologic a la typologie (Paris, 1956).

MacCulloch, D., Thomas Cranmer: A Life (London and New Haven, 1998).

Peris, N., 'La religion populaire, mythes et realites. L'exemple de la France sous 1'ancien regime', Colloques Intemationaux du Centre National de la Recherche Scientifique (Paris, 1979), pp. 221-8.

Prodi, P., Lo sviluppo dell'assolutisino nello Stato Pontifido.I, La monarchia papale e gli organi centrali digoverno (Bologna, 1968).

Prodi, P., The Papal Prince: One Body and Two Souls. The Papal Monarchy in Early Modem Europe (Cambridge, 1987).

Queniart, J., Les hommes, l'eglise et Dieu dans la France duXVIII siecle (Paris, 1978).

Rahner, H., Ignatius Loyola: Letters to Women (London, 1967).

Rahner, H., Ignatius the Theologian (London, 1968).

Safley, T.M., Let No Man Put Asunder: The Control of Marriage in the German South-west. A Comparative Study 1550-60 (Kirksville, 1984).

Scattigno, A., 'Jeanne de Chantal: la fondatrice', in G. Calvi (ed.), Barocco al femminile (Rome, 1991).

Schmitt, T.J., L'Organisation ecclesiastiique et la pratique religieuse dans l'archidia- cone d'Autun (Autun, 1957).

Schultze, W., '11 concetto di "disciplinamento sociale" nel prima eta moderna', Annali dell'Istituto italo-germamco di Trento vol. 18, pp. 371-411.

Scribner, R.W., 'Ritual and Popular Religion at the time of the Reformation', foumal of Ecclesiastical History, vol. 35 (1984), pp. 49-77.

Tacchi-Venturi, P., Stбria della compagnia di Gesu in Italia, 3 vols (Rome, 1922-38).

Venard, M., Reforme protestante, reforme catholique dans la province d'Avignon au XVie siecle (Paris, 1993).

Vovelle, M., Religion et Revolution. La dechristianisation de Van 11 (Paris, 1976).

Vovelle, M., La Revolution centre l'Eglise: De la raison a l'Etre Supreme (Paris, 1989).

Zarri, G., 'From Prophecy to Discipline 1450-1650', in L. Scaraffia and G. Zarri (eds). Women and Faith (Cambridge, MA, 1999).

(٥)

ما التاريخ الثقافى الآن ؟

ميرى روبين **Miri Rubin**

ينصحنا آدم كوبر **Adam Kuper** فى كتابه **Culture: The Anthropologists** أن نتجنب تماماً استخدام تلك «الكلمة التى نُسرف فى الإشارة إليها»، «الثقافة»[١]. فقد صارت تدل على الكثير جداً بحيث باتت لاتعنى سوى أقل القليل. ويمكن أن نقول هذا عن استخدام عبارة «التاريخ الثقافى»، التى قد تُغطى تواريخ تقليدية تماماً عن النتاج الفنى والفكرى كما تغطى شيئاً مختلفاً، يسميه البعض «التاريخ الثقافى الجديد»[٢] . لأنه بينما كان المؤرخون السياسيون الخجولون، ومؤرخو الديموجرافية المتعالون ، ومؤرخو الدبلوماسية المنفرون، والمؤرخون الإمبرياليون ذوو الجلد السميك، مطروحين جميعاً خارج كل قوائم المؤرخين الجيدين فى سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، فإنهم عادوا الآن إليها خبراء فى الطقوس السياسية، وثقافة الحرب الباردة ، والمواجهات الثقافية . ويمكن أن نقول هذا عن تواريخ الطب، والعلم ، والقانون – وهى مجالات كانت هامشية بالنسبة للموجة الأولى من التاريخ «الجديد» فى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين – ولكن أعيدت صياغتها بوصفها مناطق جديدة ومثيرة على أيدى أولئك القادرين على فحص نشأتها «الثقافية».

– ١ –

إذا كان من الممكن أن يؤثر «المنعطف الثقافى» فى جميع أنماط التاريخ الآن، فإن انتشاره ليس متعادلاً على الفترات. ومثلما كان التاريخ الاجتماعى محل الترحيب التام من مؤرخى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، بوحى من العمل على سلوك

الجمهور أو الاقتصاد الأخلاقى مبرزًا الطبقة أولاً، ثم النوع فيما بعد، فإن المنعطف الثقافى صار هو الأبرز فى أعمال مؤرخى أواخر العصور الوسطى وبواكير الفترة الحديثة – وهى بالكاد غير معروفة وخارجة عن الموضوع مثلما كانت عند كار E. H. Carr – على الأقل حتى وقت قريب . فى هذه الفترات التى تتسم بمثل هذا الإنتاج الثقافى غير المتعادل، داخل ثقافات دينية قوية واصلت ثنائية اللاتينية / الدارجة المحلية، والقساوسة / العلمانيين، والمسيحى/ الآخر، كان يوجد السبب الأكبر لوضع عملية الإنتاج الثقافى تحت المجهر. وهنا صارت نزعة تعليم الذات رمزًا ممتازًا، حيث علمنا عن اختراع شعائر الفوضى، أى تقويض اللاهوت بواسطة «اللاهوت الدارج»[٣] ، وعبادات التدين الشعبى – حتى عبادة كلب[٤] – والاحتفال التفصيلى بالشرف والخزى، واستخدام الصور وإساءة استخدامها . وأولئك يعملون فى فترات انحسار معرفة القراءة والكتابة، داخل ثقافات دينية تستثمر المعنى الدينى فى الكتاب، يدركون بسهولة أن النصوص ربما تكون أقل المصادر صراحة.

والمواجهة بين المؤرخ– الذى هو نتاج عالم حقيقى غير مسحور – والثقافات الدينية تؤدى إلى التواضع وتشجع على البحث عن معادلات أو متشابهات فى مكان آخر. وكما سنرى، فإن «المكان الآخر elsewhere » غالبًا ما تم العثور عليه فى الدراسات الأنثروبولوچية ؛ وفى مشكلات النَّصِّية ، وفى تجاور الأنماط المختلفة نوعًا وموضوعًا بشكل مثمر، والصلاة ونقوش مذبح الكنيسة، وخُف التتويج والقانون الملكى، والجماعة وبيئتها. هنا تم تعلم الدروس والواجبات ثم طُبقت فى مكان آخر[٥] . وانتشار «المنعطف الثقافى» لايثير الدهشة تقريبًا ، لأن شروط الاتصال وشروط التمثيل ، والتفاعل بين المبانى والمعانى– الحكايات السردية والخطابات – وطرق استخدام الأفراد لها فى التعبير عن أنفسهم ، هى التى تُبرز «المنعطف الثقافى» وتتناوله باعتباره أساسيًا للتفاعل الإنسانى.

والنقطة الأساسية بسيطة شأن كل الأفكار الجيدة . إذ إن المنعطف الثقافى لا يطرح فقط السؤال القائل «كيف كان الأمر حقًا ؟ «وإنما يطرح السؤال القائل «كيف كان الأمر بالنسبة له، أو بالنسبة لها ، أو بالنسبة لهم؟ »، إن الإقدام على طرح

هذه الأسئلة وتقديم الإجابات عليها، وتلبية «معيار الأهمية» الذى وضعه كار، هو التحدى بطبيعة الحال. وصارت تلبية هذا المعيار سهلة بالاعتراف الذى قدمه كار طوعاً بأن هدف التاريخ أن يعكس لحظتنا التاريخية وتجارب الحياة . إن تكريس المؤرخ لايتحقق فقط عن طريق المسح بغبار دور الوثائق (الأرشيفات) ، وإنما بفضل تعبئة الذاتية العارفة ، والقدرات الإنسانية والفكرية فى التصنيف ، وبناء النظام والتقمص العاطفى. والآن هناك اعتراف بأن تعقب آثار الأمانى، والأمل، والألم، والرغبة فى الماضى ليس مقيداً فحسب ، وإنما هو أيضًا جزء من التفكير الإنسانى فى الماضى، والدراسة الإنسانية للماضى . وثمة نمط جديد من التدوين التاريخى - استبطانى وجدلى- خرج إلى الوجود، ومعه تفسير لما كان مسكوتًا عنه لفترة طويلة من الزمان.

وهذا كله قد يبدو حصاداً غريبًا للانشغال بالثقافة التى كانت تدين على مدى فترات طويلة من القرن العشرين بالكثير لإسهامات الكتابة التاريخية الفرنسية . حيث إن التفكير الفرنسى فيما هو اجتماعى ربما يكون مشهوراً بعدم التشخيص ؛ إذ إن قدراً كبيراً منه يهدف إلى بناء نظام ما، وقد صار بنيوياً فى تحليلاته ، ويحبذ التجريد، ويجد المتعة فى تقارب النماذج وفى تبيان الاتجاهات طويلة المدى. وفى عالم ما بعد الحرب كان الباحثون الذين عينتهم الدولة فى القسم السادس فى المدرسة العملية للدراسات العليا **Ecole Pratique des Hautes Etudes** يصوغون تاريخًا جديداً لأوربا. وهذه الرؤية تدين بقدر كبير لجيل سابق من المؤرخين مثل مارك بلوش **Marc Bloch** ولوسيان فيبڤر **Lucien Febvre** اللذين حاولا، فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، بإلهام من الرؤية الأمريكية وبفضل التمويل الأمريكى ، أن يخلقا نمطًا جديداً من التاريخ، عن الناس ، وعن إيقاعات الحياة، والعمل، والموت ، وهو تاريخ يشترك فى كتابته المؤرخون فى ورش العمل الخاصة بهم ،، وفى اللقاءات والاجتماعات العالمية ، حيث يتقابل الأعداء السابقون بوصفهم أصدقاء مهنيين . وعلى الرغم من أن فيبڤر وبلوش أخفقا فى ضم عميد المؤرخين الأوربيين- البلچيكىّ هنرى بيرين - فإنهما أرسيا عملية فرنسية اتخذت من باريس قاعدة لها ، هى حوليات التاريخ الاقتصادى والاجتماعى **Annales d'histoire économique et sociale** التى عاشت إلى ما بعد الحرب العالمية

الثانية على عكس بلوش الذى مات قبل ذلك؛ فقد بدأت فى العالم ما بعد سنة ١٩٤٥م بحماسة وعدد كبير من الأهداف[٦].

وكان مقيضًا لهذا أن يكون التاريخ الذى لايسقط فريسة للهوية الوطنية، أو العسكرية والتجزيئية والإقليمية، ولكنه يكشف البُنى طويلة المدى، بطيئة التحرك التى كانت أوربية لافرنسية، أو ألمانية ، أو إيطالية . وكان لتاريخهم أن يمسَّ الجموع بدلاً من النُّخب ، ويستخدم الأدوات العلمية فى الاقتصاد والسكان والجغرافيا بالأسلوب الفرنسى الجليل. وكان لهذا أن ينتقل ، بكل طريقة ممكنة من الحادثة **événement** إلى البناء **Structure** ، من التاريخ الحاسم إلى التاريخ – المشكلة **histoire - Probléme**[٧]. مثل هذا التاريخ كان مع ذلك مقدراً له أن يكون غير متلاحم فى عرضه، ومثلما رآه برودیل **Broudel** تاريخًا كليًا **histoire total** ، فيه مجالات مختلفة للفعل متداخلة باستمرار ومتشابكة ، لايمكن فصلها . والمؤرخ العارف فقط هو الذى يمكنه أن يحكى الحكاية كلها فى نثر موحٍ بقدر ما هو غنى بالمعلومات ودقيق. وأعقب ذلك الانشغال المحموم بإعادة خلق نظم الماضى من خلال سلسلة من المعلومات الإحصائية على مدى فترات طويلة – **l"histoire séruelle**[٨] – عن التجارة والسكان ، وعن إنتاج الطعام، وإعادة الإنتاج ، وعن الطفولة والعمل حتى الموت[٩].

وسرعان ما صاروا يطمحون فى أفكار متكافئة مع الإيقاعات السكانية والنماذج الزراعية. ما هى البُنى العقلية التى تتمشى مع بُنى الزراعة والقرابة ؟ ماذا كان التمثيل والطقوس التى كانت أساس السيادة؟ وكانت هذه أيضًا عرضة للتحرك البطيء، اشتركت فيها مناطق أوربية كثيرة متجاوزة مشكلات الحرب والغزوات والفتوحات. وكانت هذه هى العقليات **mentalités** والتمثيل الجماعى **repesentations collectives** عن الموت، والطفولة ، والعلاقة الجنسية ، والقرابة ، والمطهر ، والحياة الأخرى[١٠] . وهكذا منذ حوالى سنة ١٩٦٨م كان أصحاب مدرسة الحوليات **Annalistes** مشغولين كثيراً بالكشف عن أصل أفكار الأوربيين فى الماضى. وكان جيرانهم فى **La Maison des Sciences de L'homme** من الأنثروبولوچيين أمثال كلود ليفى شتراوس **Claude Lévi- Straus** ، وتلاميذه ، ومن اللغويين الاجتماعيين مثل إميلى بنفنستى **Emile Benveniste** ، وبعد ذلك من الفلاسفة أمثال چاك دريدا **Jacques Derida** ،

ومن المنظرين الاجتماعيين مثل بيير بورديو Piérre Baurdieu . وعلى الرغم من أن معظم الحوليين أنكروا كونهم ماركسيين ، فإنهم مع هذا كانوا يدينون للرؤية القائلة بأن الثقافة تعمل من داخل العلاقات الاجتماعية وعلاقات الإنتاج ، إما للإسراع «بالتحديث»، وإمّا لتأخيره. وكان الباحثون الفرنسيون يكتبون تاريخ القراءة، أو تاريخ الثورة، أو تاريخ المطهر أو تاريخ الأسرة ، ولم تلبث مؤلفاتهم أن تُرجمت إلى الإنجليزية، والإيطالية والإسبانية ، وبحلول سبعينيات القرون العشرين دعوا إلى التدريس والتفاعل مع الجامعات الأمريكية. لقد كانت الخلطة التى جمعت بين المادية والأفكار خلطة مثيرة، وكان هناك صوت آخر يوشك أن ينضم إلى هذه الخلطة ، وهو ميشيل فوكو Michel Foukault ، ذلك المارق، الفيلسوف / المؤرخ / الأثرى، المقلق والمراوغ دائمًا .

- ٢ -

وما أورثه فوكو للمؤرخين هو التاريخ متجسداً ؛ إذ فتح عيوننا على الأجساد «بالمستشفيات، والعيادات ، وفى الملاجئ والسجون»(١١)، فى حالات تجسّد الوجود ؛ الأجساد باعتبارها وسائط للألم والمتعة . وبالنسبة لفوكو كانت هذه الأجساد التى تعتبر هامشية أو ضالة فى نظر مجتمعاتها، من دلائل السلطات التى تمارس على الجميع، من خلال الخوف، ومن خلال التحكم فى المعرفة وتشكيلها ، ومن خلال تقديم الأعراف والتقاليد على أنها الطبيعة، ومن خلال فوضى الأسطورة والجوهر. هذه السيطرة والتحكم تُطبق على الجميع وليس على أولئك الذين كان مآلهم المشانق أو غياهب السجون فقط. ولم يكن تأثير فوكو فى مضامين تاريخ السلطة بنفس قوة تأثيره فى لفت الانتباه إلى الجسد. إذ إن المؤرخين الذين يعرفون المصادر التاريخية الثرية وقعوا فى شباك هذا الإدراك المتجسد، فقد وجدوا أجساداً: فى اللعب، وفى الطقوس ، وفى الصلاة، وفى العمل وفى الألم(١٢).

ومع فوكو جاءت لحظة النهاية لبناء النظام وتشييده ، وفات أوان الإصلاح . إذ إن السؤال القائل هل كان بناء النموذج ، وتشكيل الخطاب الفوكوى، وليس جوهر عملية السلطة، هو الموضوع الذى ينبغى على المفكرين والناشطين أن يحاولوا نزع قناعه وحل لغزه؟ إنه لم يورِّث نظرية ، وإنما أورث المؤرخين بعض الرؤى الثاقبة ومنهجًا ، هو منهج «الأصول النشط القوى». وبالنسبة للمؤرخين يعنى هذا بحثًا مألوفًا عن التأثير ، والتقارب والتواصل. وقد اختلفت النتائج من حيث أهميتها بيد أنها أنتجت ممارسات فى حل غموض الأساطير والأفكار عن صناعة «المعرفة المشتركة» . ألم نتعلم جميعًا أن حق فض بكارة فتاة من الأقنان ليلة زفافها كان جوهر الميزة الإقطاعية الذكورية المتغطرسة ؟ بيد أننا الآن نعرف أن الحق المسمى "droit de Cuisage" بدأ بوصفه مزحة من قضاة القرن السادس عشر ، ثم أعيدت صياغته وهمًا خياليًا ضد الكنيسة على أيدى المجادلين المعارضين للكنيسة فى القرن التاسع عشر[١٣]. ألم يكن أكل لحوم البشر ممارسة لتعريف من هم غير الأوربيين؟ ومنذ أن اخترع كريستوفر كولومبس هذا الوهم اكتسب العمق والمعنى بفضل المجادلين المناوئين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر[١٤].

وبعبارة أخرى، تتصل بمناقشتنا هنا بصورة خاصة، فإن المعنى يستخلص دائمًا من كلمات موجودة من قبل ومن داخل اللغة. وينبغى على المؤرخ أن يقتفى آثار المعانى لأنها تقودنا إلى نماذج من النفوذ والسلطة ، وعادات الاستخدام وآثار الصعود. فعندما أوجد عيد القربان المقدس – Corpus Christi – فى أوائل القرن الرابع عشر بأوربا، فإن لغة الجلالة ، التى ارتبطت بالطقوس حول جسد المسيح فى فرنسا، كانت إلهامًا لطقوس موكبية استخدمت عناصر من الأيقونية الملكية– المسيح الذى تجسد بشرًا باعتباره ملكًا ، وعملية الاحتفال بالقربان المقدس باعتبارها مدخلاً ملكيًا . وعندما وصلت هذه العملية إلى بيرو فى القرن السادس عشر، فهمت من خلال صور إله الشمس وتم تخطيط موكب يصل إلى ذروته عند مشرق الشمس فوق قمة جبل[١٥]. وباقتفاء أثر الرمز فى سياقات مختلفة تبرز إمكانية المقارنة، فيما بين العوالم، والأفكار عن الفضاء والقدسية[١٦].

أكدت اللحظة الفوكوية عملية السلطة بوصفها الفريسة الفكرية، كما أنها انعكست فى حركات التحرر والتعبير عن الذات فى سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته: الحركة النسوية وحركة الحقوق المدنية، وتحرير المتعة، والحركات البيئية ، والحملات المناهضة للاستعمار . وقد تطلب العمل السياسى للنضال من أجل الحقوق انشغالاً تاريخياً بأصول القهر، كما أن أنصار الحركة النسوية أرادوا تاريخًا للمرأة ، وأراد الأمريكيون- الأفارقة تاريخًا أسود، والدول المقامة حديثًا والأقاليم الثائرة خلقت تواريخها الخاصة . وفى جميع هذه الحالات كانت قصة القهر متصلة بالطروحات الثقافية للاختلافات البيولوجية ؛ كان قهر المرأة قائمًا على أساس تفسير للاختلافات البيولوجية ، التمييز ضد الأمريكيين الأفارقة يتسم بالتنميط العنصرى. وفضلاً عن ذلك ، فإن الحزم الثقافية أبقت على القهر فى مكانه خلال طقوس الدولة أو إيقاعات مجالات النوع المنفصلة. وتبدو قصة القهر كما لو كانت قصة ثقافية ربما اشتهرت أكثر ما يكون فى كبسولة من أجل المقابل الاستعمارى فى كتاب الاستشراق **Orienalism** لإدوارد سعيد(١٧). لقد كانت الثقافة هى الموقع الذى يمكن فيه بسهولة تبين علاقات القوى.

كانت التأثيرات الأوسع مدى التى أحدثتها الاهتمامات والتطلعات النسوية عامل الحسم فى صنع «المنعطف الثقافى» . فقد أدى الاختلاف متعدد الأشكال والنماذج بين الأجيال، واختلاف الفترة الزمنية أو المكان الذى تمت دراسته ، إلى قيام مؤرخى الحركة النسوية، وغالبيتهم من النساء ، بتطوير فهم «الثقافة» ، تمامًا على النحو الذى كان قد تم به توسيع فهم مكونات «المجتمع» فى سبعينيات القرن العشرين . لأن أحد المفاهيم المركزية فى البحث النسوى – النوع – يزعم أن الرجال والنساء لم يولدوا ولكنهم صُنعوا ؛ إذ إنهم صنعوا فى داخل شبكات من التمثيل ، والنصح، والمثال ، بين الأفكار والممارسات وبواسطة أشخاص متجسدين وفى داخل هؤلاء الأشخاص. ويمكن العمل داخل هذه الشبكات باتجاه وضع خريطة بُنى القهر، وعدم المساواة والحرمان من الحقوق، والتوقعات المنخفضة والإمكانية المحدودة فى الوصول إلى التعليم، ولكن من الممكن أيضًا التعرف على المقاومة، والإبداع وتخصيص المعنى. لقد نظمت الأفكار

عن النوع مناطق بأكملها من مناطق الإنتاج الثقافى: عندما قرر شوسر **Cheucer** ، فى مرحلة باكرة من حياته العلمية، أن يترجم أعظم الأشعار العامية فى العصور الوسطى **Roman de la Rose** ، وقد اختصر وحذف أجزاء كاملة ، وهى تلك الأجزاء التى اعتبرت الأكثر كراهية للنساء بل إن المعاصرين كرهوها(١٨). ومن الواضح أن ما راق للقراء الفرنسيين لم يكن ليناسب آذان رجال البلاط والإنجليز وأنواقهم، أو التجار وزوجاتهم وبناتهم. وقد استخدمت لغة النوع على نحو مختلف لكى تعنى أشياء مختلفة فى الأقاليم الاجتماعية واللغوية الأوربية.

والانكباب على النوع هو الذى علَّم المؤرخين أن يقرءوا الرموز فى عناقيد المعنى، فى سياقات الاستخدام ، وفى حالات الممارسة الهادفة، من خلال النصوص وإبداعات النوعين المختلفين وتركيبتهما. وقد استكشفت كارولين باينوم **Caroline Bynum** استخدامات الرموز المركزية المسيحية – الصلب، القربان المقدس – لدى الإناث المتدينات ، والنماذج التى ترى أنها معبرة ومثرية(١٩). إذْ كان قول «أنثى» يثير عنقوداً من المعانى(٢٠). وكان معنى تسمية هنرى الثانى مُخنثًا سنة ١٣٩٩م إثارة مجال كامل من الانتقادات حول كفاءة حكمه ، وقدرته الحربية ، وعقله وأخلاقه ومدى الاعتماد عليه . وكانت تسمية اليهود بالمخنثين تعنى استبعاد سلطتهم فى قراءة الكتاب المقدس وتفسيره ، كما كانت تشى بأنهم يقرءون من خلال اللحم وليس من خلال الروح. وعناقيد الروابط هنا تستمد بعض النظرات الثاقبة من ممارسات التحليل النفسى، وقراءة نص ما قراءة ثقافية شىء يشبه تفسير الأحلام. ففى قراءة المصادر «ثقافياً» نكون قادرين على جمع طائفة كاملة من المتشابهات – بصرياً، ونصياً، وموسيقياً – ومن خلال تركيبها ، كما لو كان من خلال منشور ضوئى، نستطيع الحصول على نقطة من التركيز الجديد والتبصر.

ومثلما هو الحال عند اكتساب لغة ما ، تكون مواجهة وتعلم استخدام الكلمات فى عبارات وموضوعات مختلفة عملاً صعبًا، ولكن ذلك يوسع من نطاق فهمنا، كما يقود المؤرخين إلى المصادر المكتوبة ، أو تلك المصادر التى تتخذ شكل الذكريات أو الأغانى، أو التماثيل والنحت ، أو الصلوات. بل إن بعض المؤرخين يحاولون أن يقوموا بشىء قريب من «الملاحظة» عن طريق مختلف الحيل التخيلية: مثل كارلو جينزبورج **Carlo Ginzburg**

فى إعادة خلق عالم الطاحونة فى قرية فريوليز Friulese التى سكنها مينوكشيو قبل ما يزيد على أربعمائة سنة؛ ونتاليا ديفيز Natalia Davis التى قبلت تحدى إعادة خلق المشهد mis - en - Scéne لرؤية سينمائية للأحداث التى أحاطت بخداع مارتن جير Martin Guerre فى القرن السادس عشر[٢١] ، وبعد ذلك بكثير روث هاريس Ruth Harris التى أخضعت نفسها لمحنة الحج إلى لورد Lourdes ، ومواجهة جوانب القصور التى يمكن أن يحملها جسدها وعقلها[٢٢].

- ٣ -

تحول المؤرخون صوب الأنثروبولوچى لكى يفهموا الأحداث العامة والتجارب الجماعية الغنية بالمعنى الرمزى. وكانت قصة التاريخ والأنثروبولوچى هى التى غذّت «المنعطف الثقافى». إذ يتظاهر المؤرخون فى هذا السياق تظاهرا مثمراً بأنهم يدخلون فى محادثة مع أهل الماضى. وتماماً مثلما قام الأنثروبولوچيون بعملهم الميدانى بسبر أغوار أنظمة المعنى وتفسيرها ، بهدف تعلم الثقافة بوصفها لغة ، قام المؤرخون بمحاولة العمل على الآثار التاريخية بهدف إعادة بناء عوالم الماضى . وقد أولى المؤرخون ، مثل الأنثروبولوچيين ، أهمية خاصة لتلك المناسبات الكثيفة للحدة الرمزية - الطقوس - التى لم تتصرف المجتمعات فيها فقط، ولكنها أيضا أعادت تمثيل أساطيرها التى تتحدث عن الأصول وارتبطاتها المعقدة بآلهتها، وحكامها ، وارتباط كل منهم بالآخر. وقد توقع المؤرخون، عندما اتبعوا بنيوية ليڤى شتراوس وصيغها الأنجلوفونية، التى طورتها مارى دوجلاس Mary Dauglas وڤيكتور تيرنر Victor Turner[٢٣] ، أن يجدوا مجموعات من الثنائيات ذات المعنى، مثل التمييز بين المقدس والمُدنس ، النقى والملوث، ولكنهم توجهوا فى نهاية المطاف إلى الأرض الفوضوية بين كل زوج من هذه الثنائيات. وفيما بعد لجأوا إلى اختبار أوصاف النوع داخل المجال الطقوسى أو الشعائرى[٢٤] . وفوق هذا وذاك ، وتحت تأثير كليفورد چيرتز Clifford Geertz ، صارت الشعيرة أو الطقس نقطة انطلاق البحوث فى جميع مناطق الحياة : العمل، والقرابة، والدين والحكم. وعلى الرغم من أن الطقوس لايمكن شرحها دائماً ، فقد كان من الممكن تفسيرها عن

طريق كشفها بحذر وهو ما صار معروفًا باسم «الوصف الكثيف» . وربما يكون منهج جيرتز قد وجد أشد مستخدميه حماسة ، وأكثر أتباعه التزامًا ، بين المؤرخين[٢٥] ؛ ويرجع السبب فى ذلك جزئيًا إلى أنه لايبدو منهجًا على الإطلاق ، ولكنه بالأحرى يشبه تدريبًا لطيفًا فى الحكم السليم على الأمور، مكتوب برشاقة ، ودائمًا داخل سياق تاريخى عريض- يبدو إلى حد كبير مثل التاريخ الجيد.

إن الطقس ، أو الشعيرة، يغلف الألغاز الأصلية المفسرة فى أية دراسة للسلوك الإنسانى فى كبسولة ؛ ذلك لأنه لكى تكون الطقوس فعالة يجب أن تكون محكومة بالقواعد، وأن تتضمن درجة معقولة من المعرفة المشتركة؛ ومع هذا فإن هذه الطقوس عرضة لإعادة الترتيب، وإعادة رسمها وتفسيرها على يد كل من يمارسها أو يراقبها . لأنه لكى تكون الطقوس فعالة بالطريقة التى اقترحها دوركهايم، يجب أن يتم استيعاب الأفراد فى معانيها ومتطلباتها المادية، بحيث تخلق فى خضم العرق ، والرقص، والغناء ، وفى داخل الرعايا الراكعين، تلك الحالة الانفعالية من التلقى التى تكون نتيجتها النهائية الالتزام الأعمق، وسهولة الأخذ بالسرديات الأخلاقية والمعايير الخاصة بذلك المجتمع.

ومع قدوم اللحظة الفوكوية ، مع كشف اللثام عن عمل النظام الاجتماعى على يدى ناقدة نسوية، ومع زيادة التأكيد على مواقع الذاتية فى داخل العلاقات الاجتماعية، تم إخضاع الطقس الذى أخذ على أنه حادث مشترك، لاصق اجتماعى، واضح وقوي من حيث تأثيره ومعناه، للعديد من الانتقادات ، فمن كرنفال الرومان إلى كرنفال نوتنج هيل، تمتلئ الطقوس بالغموض؛ إذ إنها فى جوهرها عبارة عن عروض وأداء، حسبما ساعد ميخائيل باختين **Mikhail Bakhtin** (١٨٩٥-١٩٧٥م) المؤرخين على إدراكه . إن الطقوس عرضة للهفوات ، والكبت، وحتى النسيان؛ بل إن المطر يهطل أحيانًا على مكان العرض[٢٦]. ومن الواضح أن الطقوس يمكن أن تأخذ منعطفات غير متوقعة ، كما حدث بشكل مذهل فى مهرجان الرومان سنة ١٥٧٩-١٥٨٠م، عند تحول المهرجان إلى حمام دم عندما قتل الأعيان الحرفيين، مما كان علامة على إعادة توجيه ديناميات الحروب الدينية الفرنسية[٢٧]. والأقل شهرة هى الفوضى التى جرت فى صلاة قداس

بإحدى الأبرشيـات ، أو التنـاقض فى عمليـة تتـويج قاصر مثل إدوارد السـادس، أو التحفظ الخـاص الأكثر دنيـوية الذى أصرَّ عليه أحـد الهوجـونوت(*) Huguenot فى أثناء أحد الطقوس الكاثوليكية فى فرنسا القرن السابع عشر(٢٨). إن عملية القيام بالطقوس، حسبما رآها علماء الاجتماع فى بواكير القرن العشرين على أنها مناسبة لتعزيز كل ما كـان محل اتفـاق وإعـادة تأكيـد النظام الاجتمـاعى والأخـلاقى ، يمكن ملاحظتها بشكل مختلف. وبقدر مـا تكثف الطقوس العلاقات والأفكار الاجتمـاعيـة المركبة – فى المكان وفى الزمـان، فإنها يمكن أن تخلق صوراً مشوشـة ، أقل قبـولاً للحياة، وأكثر ميلاً إلى المضايقة، وأشد إغراءً بعدم الرضا.

- ٤ -

وعلى الرغم من العدد المتزايد لنفحات الإطراء من جانب المؤرخين منذ ستينيات القـرن العشـرين فـصـاعداً؛ مـثل إطراء كيث تومـاس Keith Thomas وناتالى ديفيـز Natali Davis فإن الأنثروبولوجيين واجهوا أزمتهم بحلول ثمـانينيات القرن العشرين ، التى تجلت فى إعادة التفكير جذرياً فى مقاصدهم وفى التساؤل عن «السلطة الإثنوجرافية» . وقد عرضت بعض مؤلفات الأمهات والآباء المؤسسين الكبار لهذا التخصيص باعتبارها نتـاج المشروع الاسـتعمـارى، أو أوهامـاً سـاذجـة لأعضـاء متـحـررين من السـحـر فى مجتمعات الوفرة. إن فكرة التعرف على مجتمع مختلف بحد ذاتها ، والاعتقـاد بأن حسن النية، والجسد القوى، وأقراصاً مضادة للملاريا ، هى كل ما كان ضرورياً للنجاة من محنة ما، وتملق الناس لكى يكشفوا عن أنفسهم أمام ناظرى باحث الإثنوجـرافيا – قد عوملت على أنها فكرة مضحكة ، وأسوأ . وقد زعمت مجموعة المقالات التى حررها چيمس كليفورد James Clifford وچورچ مـاركوس George E. Marcus فى سنة ١٩٨٢م بعنوان Writing Culture مـا هـو أكـثـر . وفـى تحليل مـقـارن قـام به إيمانويل لوروى

(*) الهوجونوت هم البروتستانت الفرنسيون . (المترجم)

لادورى Emmanuel Le Roy Ladurie فى كتـــابه Montaillou وإيڤـــانــز بريتشـــارد E . E. Evans- Pritchard فى كتـابه The Nuer ، ربط ريناتو روزالدو Renato Rosaldo بين الباحث فى الإثنوجرافيا والمحقق. فقد تم تفكيك نصوص الإثنوجرافيا على أيدى الأنثروبولوچيين ، حسبما يوضح ڤنسان كرابانزانو Vincent Crapanzano فى مقالته بذلك المجلد فى تحليل للغة الإثنوجرافية والنماذج التى يحاول الإثنوجرافيون بها أن يجعلوا تحليلاتهم مقنعة[٢٩].

هكذا تم إبطال الإثنوجرافيا والأنثروبولوچيا من خلال دروس النقد فى فترة ما بعد الاستعمار، والحركة النسوية وتحديات القراءات التفكيكية . وكانت النتيجة انسحابًا جزئيًا من جانب الأنثروبولوچيين من الأراضى ذات الماضى الاستعمارى ومضاعفة الجهود لفهم التنويعات والأمراض فى المجتمعات الغربية، وقد نتج عن هذا مؤلفات مثل دراسة تانيا لوهرمان Tanya Luhrmann عن الطب النفسى الأمريكى، ودراسة راى رفائيل Ray Raphael عن سن البلوغ فى الولايات المتحدة المعاصرة ، أو كتاب كلودين فابرفساف Claudine Fabre - Vassaf عن الاستخدامات الثقافية للخنزير فى جنوب غرب فرنسا المعاصرة تلك الاستخدامات التى تكشف عن طبقات من الحساسية ضد السامية[٣٠]. ولم يكن المؤرخون عمومًا يرغبون فى سماع هذا الجدل الدال للغاية. بيد أنه كان يجب عليهم الاستماع ، لأن المشكلات المتعلقة بالتواصل ، وفهم الثقافات الأخرى، ومصطلحات مواجهتها ، مشكلات حاسمة بالنسبة لمؤرخى القرن السادس عشر، بقدر ما يجب عليهم الاستماع إلى الإثنوجرافيين فى قبائل أمريكا اللاتينية . ونحن مشغولون فى كلا الحالين باستنباط المعانى من اقتفاء الآثار ومن وصف الذات ، وذلك من خلال كثرة من الأعمال البشرية ، والعبارات ، والطقوس، والكتابات والأقوال المتداخلة. ومشروعاتنا مشابهة تمامًا فى الواقع[٣١]. وقد كانت لأزمة الإثنوجرافية أساليبها لإيذاء المؤرخين أيضًا[٣٢].

ومثل الإثنوجرافيين ، تقبل المؤرخون جميعًا بمزيد من رحابة الصدر أن يكون بعض الناس إخباريين سُذج ، شغوفين باللعب مع الكبير اللطيف الذى يتفحص ألعابهم. وثمة مثال سوف يخدمنا جيدًا: فهناك قصة تتكرر غالبًا تحكى تجربة

البيوريتانى چون شو John Shaw عندما كان يسافر فى ويستمورلاند Westmorland سنة ١٦٤٤م بحثًا عن أشخاص لكى يُحسِّن أوضاعهم من خلال تعاليم الكتاب المقدس. وكانت معرفة أحد الرجال المسنين ممن قابلهم وفحص حالتهم بالمسيح غامضة ، فقد سأله : ألم يكن هو ذلك الرجل الذى كان قد رآه ذات مرة فى مسرحية «على شجرة والدم ينزف منه؟»[٣٣] إنها الصدمة، الرعب ، وهموم البيوريتانى بشأن الإلحاد - ليس فقط أن الرجل يعرف القليل، وإنما هو رجل كانت معرفته الضئيلة قد جاءت عن طريق مشهد وثنى فى الدراما الدينية . ولكن هل يجب علينا أن نأخذ الإخبارى على أنه متفرج برىء يرحب بالإجابة عندما يسأله أحد ليقول الحقيقة الخالصة؟ ألايجوز أنه كان راوى حكايات أيضًا، وهدَّاما ذا مظهر خادع، أو مهرجًا يمزح مع الرجل ذى المسوح السوداء القادم من مناطق أخرى؟ ألا يجوز أنه ربما كان مستاءً من الافتراض المتطفل بأن الناس فى ويستمورلاند كانوا من الجهل سنة ١٦٤٤م بحيث لايعرفون المخلِّص (المسيح) ؟ وأن نسمح لموضوعات بحثنا - نحن المؤرخين والإثنوجرافيين سواء - أن تتحدث إنما يعنى أن نعترف بإمكانية الاختلاف فى مقاصدهم ، كما أن القدرات التى تؤخر التبادل والإشارات عبر السياق النصّى فقط قد تكون قادرة أحيانًا على التعريف وتحديد المكان[٣٤].

وربما يكون أفضل مفسِّر لهذا الموقف شخصًا من الصعب تصنيفه على أنه أنثروبولوچى أو مؤرخ ، هو مارشال ساهلينز Marshall Sahlins . فقد فسَّر ساهلينز بعض اللحظات الجنينية من المواجهة الثقافية، وأشهرها رحلة كابتن كوك وموته فى المحيط الهادى فى نهاية المطاف. لقد تتبعت دراساته الأفراد داخل السياقات الثقافية التى تفرض تحدياتها - أشخاص خارج المكان، كما قد يقول المرء، وفى عدم توقع طبيعة مثل هذه المواقف والجهل بها، تتضخم دراما الوجود الإنسانى ، وهذه هى الحال. إننا جميعًا ورثة مواريث نسميها الثقافة - اللغة، والعادات ، وأساطير الأصول - ومع هذا فإننا نستخدم ذلك التراث على نحو خاص جداً وبشكل فريد للغاية. ومثلما واجه أهل هاواى الكابتن كوك ، ووضع أمامهم ، لغزًا يتطلب التفسير، فإننا جميعا مثله بدرجة أو بأخرى نتعرض لمواقف خارجة عن المألوف فى حياتنا. وإذ كان تكوين

ساهلينز باعتباره مدرساً ، وناشطاً قد تشكل بفعل الحركة المناهضة لحرب فيتنام، فإنه لاحظ أن الجندى فى ڤيتنام والطالب داخل الحرم الجامعى ، تواجههما المعضلات الأخلاقية الناتجة عن الاقتصاد والأمور السياسية ، التى تستدعى قرارات عملية جداً حول السلوك الفردى. وكل منهم ، مثل فرقة الشرطة الاحتياطية ١٠١، يستخدم موروث اللغة والحكاية لكى يفرّق بين الخير والشر ويجد طريقه فى كل ذلك . هذه هى مقاربة ساهلينز فى التفسير التاريخى: نحن نبدأ بميراثنا – الثقافة – ومع هذا فإن الحياة تخلق مناسبات يجب أن نتصرف فيها، ونحن نستطيع، بتلك المادة وبطرق جديدة وفريدة . هنا عودة الفرد، الفرد الذى سقط فى حبائل شبكات المغزى الموروث، ولكنه المغزى الذى يصنع منه معانى جديدة، ويستخرج منه طرقًا جديدة[٣٥]. وعندما يكون الفرد مهتماً، إذن فالنفسية والعاطفة تكون على المحك أيضاً، وثمة تاريخ للعواطف بدأ يحظى الآن باهتمام المؤرخين ، بشكل تجريبى، وبدرجة ما من الوعى المرتبك بالذات[٣٦].

– ٥ –

إن البحث عن صوت فى داخل بُنى اللغة قد شجع الباحثين على البحث فى الإنسانيات فى السنوات العشرين الأخيرة من مختلف الاتجاهات المتنوعة . كان هناك البحث عن المخطوطات «غير الرسمية» للأحداث ، الذى تطور فى خضم دراسة المجتمعات الفلاحية[٣٧]. وفى الدراسات الثانوية بين مؤرخى شبه القارة الهندية[٣٨]، وفى أعمال المؤرخين المنتمين للحركة النسوية ، وفى تواريخ الطبقة العاملة الباحثة عن الوكالة والصوت . وبالنسبة لأوربا العصور الوسطى، وبواكير العصور الحديثة، شهدت الدراسات التاريخية الحديثة لقاء بين المؤرخين والباحثين فى الأدب فى محاولة لأن «تشعر بالحقيقى» من خلال التحليل النصِّى للنصوص بعيداً عن نصوص القوانين الكنسية، جنبًا إلى جنب مع الآثار المادية فى الحياة اليومية . وقد أوضح ستيفن جرينبلات **Stephen Greenblatt**، وكأنه إثنوجرافى موسمى، مسترشداً باستخدام كليفورد جيرتز لما هو عادى و«حسن الإدراك»، التبصر الناتج عن قراءة أعمال البشر

باعتبارها نصوصاً ، ووضع الموضوع مقابل الموضوع- الدراما ، الموعظة، والصورة، على سبيل المثال(٣٩).

هذه الحركة حررت المؤرخ كما شجعت الباحث فى الأدب، ويعرض كتاب بول ستروم **Paul Strohm** بعنوان **England's Empty Throne** ، فائدة التناول النقدى الأدبى فى العمل على وثائق التاريخ الدستورى الإنجليزى؛ فالمؤرخات ، وتشريعات البرلمان ، والقوانين المحلية، تكشف عمل النوع والقصد السياسى الذى دخل فى مهنة التشريع، والأصوات المزروعة فى السجل المكتوب تشبه الكثير جداً مما عرفنا أنه تلفيق كان كله دعماً لمزاعم ملك مغتصب هو هنرى الرابع ووريثه(٤٠). مثل هذا التناول يكشف أيضاً عن أن النصوص يمكن أن تخبرنا أشياء لم يكن هناك قصد أبداً بأن تخبرنا بها؛ إذ إنها يمكن أن تخبرنا على الرغم من جهود كاتبها – وهو أمر لاجدال فيه – ولكنها أيضا تفصح عن المعرفة التى لم يكن الكاتب أو الصانع أو الرسام واعيًا بها على الإطلاق . ومثلما يقترح بول ستروم ، يمكننا أن نعرف أشياء عن شوسر «لم يعرفها شوسر عن نفسه أبداً»(٤١)، فهو لم يستطع أن يتحكم فى ظهور عقله الباطن فى النص، ولم يتمكن من معرفة تكشُّف الحوادث التاريخية التى ولد نصه فى غمارها، ولم يستطع أن يتوقع تماماً الاستقبال الذى لقيه من القارئ الذى قرأ أعماله، أو التغير الذى طرأ على هذا الاستقبال بمرور الزمن. هناك الكثير يمكن أن نعرفه حول موضوعه **Oeuvre** لم يكن بوسعه أن يعرفه – ولكنه كان سيهتم بمعرفته، إذا ما سنحت له الفرصة.

لقد أفاد «المنعطف الثقافى» من خليط من الاستراتيجيات النقدية الذى يلقى الضوء على أشكال الاتصال، وانتشار الأفكار والممارسات وقوة الفرد، التى تخدم المعنى دائماً. إنه أفضل ما يكون عندما تتم ممارسته بإدراك الجذور الفكرية لمفاهيمه وإجراءاته ، والانتباه إلى فتنة بلاغته. وهكذا فإن التعامل مع الثقافة يعنى التعامل مع خليط من التصنيفات ، لأن نظام المعانى هو الذى يصنع النظام ، ويضع الأولوية ويقترح الروابط المفيدة بين الأشياء – الحقيقية والمحسوسة والمتخيلة. إن الخبز طيب

للأكل؛ والخبز أيضا منحة جيدة تعطى، وهو شيء ممتاز إذا ما تم تكريسه فى جسد الرب(*). ودائمًا ما يبدو الخبز هو نفس الخبز، ولكنه يصبح أشياء مختلفة حسب السياقات التى يستخدم فيها ؛ فالاستخدام والممارسة هى الطرق التى ندخل بها إلى عالم المعانى التى كان يعنيها أولئك الذين لم نعش بينهم قط(٤٢). وبعض هذا العمل ربما يكون مؤرخًا على نحو تتابعى ويصف آثار المعنى- أى يكون إثنوجرافيا وعلم أنساب تاريخى . وثمة جزء آخر من هذا العمل هو أن نفهم لماذا وكيف وأين ارتبطت المعانى، ومن ثم ننتقل لتقييم ورصد تلك اللحظات التى يكون فيها المعنى قد اتضح ، وخضع للسؤال أو تم كشفه أو إعادة توظيفه مع المعنى. وهذه الأسئلة ترتبط بكل نواحى الحياة – وهو شىء فات معظمه . ويسهم «المنعطف الثقافى» فى شرح وفهم العمل والشئون الاقتصادية والأمور السياسية(٤٣). وليست هناك منطقة تجربة – شخصية أو جماعية – تخرج عن استخدامه .

(*) الإشارة هنا إلى طقس التناول ، أو الأفخارستيا حيث يتم تناول الخبز الذى يرمز إلى جسد المسيح، والنبيذ الذى يرمز إلى دمه . وكان الأوربيون فى العصور الوسطى يعتقدون أن تحول الخبز والنبيذ إلى جسد المسيح ودمه كان يحدث حقًا فى طقس التناول . (المترجم)

ملاحظات وهوامش

(*) I am grateful to my friends Christopher dark, David Feldman, Eric Foner, Adam I.P. Smith, Naomi Tadmor and Miles Taylor for helpful conversations, and to Peter Burke and Gareth Stedman Jones for reading and commenting on this chapter.

(١) Cambridge, MA: Harvard University Press, 2000, p. x. On the term see William H. Sewell, The Concept(s) of Culture', in Victoria E. Bonnell and Lynn Hunt (eds), Beyond the Cultural Turn: New Directions in the Study of Society and Culture (Berkeley, CA: University of California Press, 1999), pp. 35-61.

(٢) Lynn Hunt (ed.), The New Cultural History (Berkeley, CA: University of California Press, 1989); Bonnell and Hunt, Beyond the Cultural Turn.

(٣) Nicholas Watson, 'The Politics of Middle English Writing', inJocelyn Wogan Browne, Nicholas Watson, Andrew Taylor and Ruth Evans (eds), The Idea of the Vernacular: An Anthology of Middle English Literary Theory, 1280-1520 (University Park, PA: Penn State Press, 1999), pp. 331-52.

(٤) Jean-Claude Schmitt, The Holy Greyhound: Guinefort, Healer of Children since the Thirteenth Century, trans. Martin Thom (Cambridge: Cambridge University Press, 1982) (Le saint levrier: Guinefort, guerisseur d'enfants depuis le XIIIe siecle (Paris: Flammarion, 1979)).

(٥) For some examples of influential theoretical reflection by medievalists and early modernists see Gabrielle M. Spiegel, The Past as Text: The Theory and Practice of Medieval Historiography (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1997); Brian Stock, Listening for the Texts: On the Uses of the Past (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1990); and the recent Paul Strohm, Theory and the Pre-modern Text (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 2000). On the uses of psychoanalysis: Lyndal Roper, Oedipus and the Devil: Witchcraft, Sexuality and Religion in Early Modem Europe (London: Routledge, 1994).

On the Annales vision and institutional context see Carole Fink, Marc Bloch: A (٦) Life in History (Cambridge: Cambridge University Press, 1989), pp. 128-65; see also Peter Schottler (ed.), Marc Bloch: Historiker und Widerstand-Kdmpfer; Frankfurt and New York: Campus, 1999).

This is not to say that others had not sought this turn before: see Lord Acton's (٧) Inaugural Lecture of June 1895 which called to 'study problems in preference to periods', John Edward Emerich Acton, 'The Study of History', in John Neville Figgis and Reginald Vere Laurence (eds), Lectures on Modem History (London: Macmillan, 1906), p. 24.

The most ambitious is Emmanuel Le Roy Ladurie, The peasants ofLangiiedoc, (٨) trans. John Day (Urbana, IL: University of Illinois Press, 1976) (Les Paysans de Languedoc, 2 vols (Paris: SEVPEN, 1966)); and for a critique seeJean-Yves Grenier, in Bernard Lepetit (ed.), Les Formes de l'experience.: une autre histoire sociale (Paris: Albin Michel, 1995), pp. 227-8; for a comment on this re evaluation see G. Stedman Jones, 'Une autre histoire sociale? (note critique)', Annales HSS, vol. LIII (1998), pp. 383-94.

Philippe Carrard, Poetics of the New History: French Historical Discourse from (٩) Braudel to Chartier (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1992); Trajan Stoianovich, French Historical Method: The Annales Paradigm (Ithaca, NY, and London: Cornell University Press, 1976); Peter Burke, The French Historical Revolution: The Annales School 1929-1989 (Cambridge: Polity Press, 1990). For a critique by historians associated with Annales see Les formes de{'experience. On the reception of Annales historiography see articles by Vauchez, Oexle, Little, Simons, Rucquoi, Klaniczay and Gurevich in Miri Rubin (ed.), The Work of Jacques Le Goffand the Challenges of Medieval History (Woodbridge: Boydell, 1997), pp. 71-141, 223-48.

On the genealogy of mentalite and related concepts see Peter Burke, 'Strengths (١٠) and Weaknesses of the History of Mentalities', in Varieties of Cultural History (Cambridge: Polity Press, 1997), pp. 162-82; Stoianovich, French Historical Method, pp. 120-1.

Patricia O'Brien, 'Michel Foucault's history of culture', in Lynn Hunt (ed.), The (١١) New Cultural History (Berkeley, CA: University of California Press, 1989), p. 34.

(١٢) On the body and its products as metaphors for the spiritual state see Piroska Nagy, LeDon des larmes au moyen age (Paris: Albin Michel, 2000); Jean-Claude Schmitt, La Raison des gestes (Paris: Gallimard, 1990); Alain Boureau, Le simple corps du roi: l'impossible sacralite des souverains francais XVe-XVIIIe (Paris: Editions de Paris, 1988); Laura Kendrick, Animating the Letter: the Figurative Embodiment of Writing from Late Antiquity to the Renaissance (Columbus, OH: Ohio State University Press, 1999).

(١٣) Alain Boureau, The Lord's First Night: The Myth of the Droit de Cuissage, trans. Lydia G. Cochrane (Chicago, IL: University of Chicago Press 1998) (Le Droit de cuissage: la fabrication d'un mythe XIIe-XXe (Paris: Albin Michel, 1995)).

(١٤) Frank Lestrignant, Cannibalism: The Discovery and Representation of the Cannibal from Columbus to Jules Verne, trans. Rosemary Morris (Cambridge: Polity Press, 1997); Une saint horreur; ou le voyage en eucharistie, XVIe-XVII! siecles (Paris: Presses Universitaires de France, 1996).

(١٥) Antoinette Molinie, 'D'un village de La Mancha a un glacier des Andes. Deux celebrations "sauvages" du Corps de Dieu', in Antoinette Molinie (ed.), Le Corps de Dieu en Fetes (Paris: Cerf, 1996), pp. 223-53.

(١٦) A related debate is that on popular culture. For one of many such debates see Lawrence W. Levine, 'The Folklore of Industrial Society: Popular Culture and its Audiences', American Historical Review, vol. XCVII (1992), pp. 1369-99, and the related comments by Robin D.G. Kelley, Natalie Zemon Davis and TJ. Jackson Lears, ibid., pp. 1400-30.

(١٧) Edward W. Said, Orientalism (New York: Pantheon, 1978).

(١٨) See David Wallace, 'Chaucer and the European Rose', Studies in the Age of Chaucer vol. I (1984), pp. 61-7.

(١٩) Caroline W. Bynum, Holy Feast and Holy Fast: The Religious Signifcance of Food to Medieval Women (Berkeley, CA: University of California Press, 1987).

(٢٠) Joan Wallach Scott, Gender and the Politics of History (New York: Columbia University Press, 1988).

(٢١) For an exchange about her work on the Martin Guerre case see Robert Findlay, 'The Refashioning of Martin Guerre' and Natalie Z. Davis, "'On the lame"', American Historical Review, vol. XC1I1 (1988), pp. 553-71, 572-603.

Ruth Harris, Lourdes: Body and Spirit in aSecular Age (London: Penguin, 1999). (٢٢)

On Mary Douglas's impact on cultural studies see Sonya 0. Rose, 'Cultural (٢٣) Analysis and Moral Discourses: Episodes, Continuities, and Transformations', in Bonnell and Hunt (eds). Beyond the Cultural Turn, pp. 217-38, at 220-5.

A. Kuper, 'Culture, Identity and the Project of Cosmopolitan Anthropology', in (٢٤) Among the Anthropologists: History and Context in Anthropology (London and New Brunswick, NJ: Athlone Press, 1999), pp. 26-58, at p. 37.

See Robert Darnton's 'Workers Revolt: The Great Cat Massacre of Rue Saint (٢٥) Severin', in The Great Cat Massacre and Other Episodes in French Cultural History (London: Alien Lane, 1984), pp. 75-104; Roger Chartier, 'Texts, symbols, and Frenchness', journal of Modern History, vol. LVII (1985), pp. 682-95 and Dominick La Capra, 'Chartier, Darnton, and the Great Symbol Massacre', Journal of Modern History, vol. LX (1988), pp. 95-112. For a more recent evaluation of Geertz's contribution see the articles in Sherry B. Ortner (ed.), The Fate of'Culture': Geertz and Beyond (Berkeley, CA: University of California Press, 1999).

For an ethnographically grounded theory of 'loose' ritual see Caroline Humphrey (٢٦) and James Laidlaw, The Archetypal Actions of Ritual: A Theory of Ritual Illustrated by the Jain Rite of Worship (Oxford: Clarendon, 1994).

Emmanuel Le Roy Ladurie, Carnival: A People's Uprising at Romans, 1579-80, (٢٧) trans. Mary Feeney (London: Scolar Press, 1980).

See for example Roger Mettam, 'Dissemblers, Dissenters, Guerrillas: The (٢٨) Huguenots in France after 1685', Historical Research (2002) (forthcoming).

Renato Rosaldo, 'From the Door of his Tent: The Fieldworker and the Inqusitor', (٢٩) and Vincent Crapanzano, 'Hermes' Dilemma: The Masking of Subversion in Ethnographic Description', in James Clifford and George E. Marcus (eds), Writing Culture: The Poetics and Politics of Ethnography (Berkeley, CA: University of California Press, 1982), pp. 77-97 and pp. 51-76, respectively. See also James Clifford The Predicament of Culture: Twentieth Century Ethnography, Literature, and Art (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1988).

(٢٠) Tanya M. Luhrmann, Of Two Minds: The Growing Disorder in American Psychiatry (New York: Alfred Knopf, 2000); Ray Raphael, The Men from the Boys: Rites of Passage in Male America (Lincoln, NB: University of Nebraska Press, 1988); Claudine Fabre-Vassas, The Singular Beast: lews, Christians, and the Pig, trans. Carol Volk (New York: Columbia University Press, 1997) (La bete singuliere: les juifs, les chretiens, et le cochon (Paris: Gallimard, 1994)).

(٢٢) On ethnographic practice (white ethnographers and black 'informants') see Robin D.G. Kelley, Yo' Mama's Disfunktional! Fighting the Cultural Wars in Urban America (Boston, MA: Beacon Press, 1997), pp. 17-23.

(٢٣) For Clifford Geertz's view of the current diversity of 'fieldwork' see his Available Slight: Anthropological Reflections on Philosophical Topics (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2000), chapter V, pp. 89-142.

(٢٣) Memoirs of the I^ife of Dr John Shaw, Surtees Society, no. 65.

(٢٤) On manipulation of encounters across cultural and ethnic lines see Robin G.D. Kelley, Race Rebels: Culture, Poetics, and the Black Working Class (NewYork: The Free Press, 1994), p. 22, on the 'cult of true sambohood'. And on the perception of ethnographic interrogation held by an 'informant': 'I think this anthropology is just another way to call me a nigger', in John Langton Gwaltney, Drylongso: A Self-Portrait of Black America (New York: Random House, 1980), p. xix; for Drylongso as an attempt at a different type of cultural record, see pp. xxii-xxx. On the problem of 'historical' subjects without a voice see Jacques Ranciere, The Nights of Labour: The Workers' Dream in Nineteenth-Century France, trans. John Drury (Philadelphia, PA: Temple University Press, 1989) (La nuit des proletaires (Paris: Hachette, 1981)).

(٢٥) See the collected essays in Marshall Sahlins, Culture in Practice: Selected Essays (New York: Zone Books, 2000); How 'Natives' Think, about Captain Cook, for Example (Chicago, IL, and London: University of Chicago Press, 1995), which is an answer to Gananath Obeyesekereh, The Apotheosis of Captain Cook: European Mythmaking in the Pacific (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992).

(٢٦) See for example Barbara H. Rosenwein (ed.), Anger's Past: The Social Histories of an Emotion in the Middle Ages (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1998). For a pioneering collection see Hans Medick and David W. Sabean (eds),

Interest and Emotion: Essays on the Study of Family and Kinship (Cambridge: Cambridge University Press, 1984).

(٢٧) James C. Scott, Domination and the Arts of Resistance: Hidden Transcripts (New Haven, CT: Yale University Press, 1990); Sherry B. Ortner, 'Resistance and the Problem of Ethnographic Refusal', Comparative Studies in Society and History, vol. XXXVII (1995), pp. 173-93.

(٢٨) Rosalind O'Hanlon (trans. and ed.), A Comparison between Women and Men: Tarabai Shinde and the Critique of Gender Relations in Colonial India (Madras: Oxford University Press, 1994).

(٢٩) Catherine Gallagher and Stephen Greenblatt (eds). Practicing New Historicism (Chicago, IL: University of Chicago Press, 2000), Introduction on pp. 1-19; see also Stephen Greenblatt, 'The Touch of the Real', in Ortner, The Fate of Culture, pp. 14-29.

(٤٠) Paul Strohm, England's Empty Throne: Usurpation and the Language of Legitimation, 1399-1422 (New Haven, CN: Yale University Press, 1998).

(٤١) Paul Strohm, 'Chaucer's Lollard Joke: History, and the Textual Unconscious', Studies in the Age of Chaucer, vol. XVII (1995), pp. 34-42.

(٤٢) Roger Chartier, 'Culture as Appropriation: Popular Cultural Uses in Early Modern France', in S.L. Kaplan (ed.), Understanding Popular Culture: Europe from the Middle Ages to the Nineteenth Century New Babylon: Studies in the Social Sciences 40 (Berlin and New York: Mouton, 1984), pp. 229-53.

(٤٣) This possibility was hinted at in John Toews, 'Intellectual History after the Linguistic Turn: The Autonomy of Meaning and Irreducibility of Experience', American Historical Review, vol. XC11 (1987), pp. 879-907, at pp. 882-3.

(٦)

ما تاريخ النوع الآن ؟

أليس كيسلر - هاريس

أبدأ من البداية – من بداية البداية . إذ إن كار يستهل نصَّه بجملة من رواية جين أوستن **Jane Austen** الموسومة **Northanger Abbey** . والاقتباس مأخوذ عن بطلة الرواية، كاترين مورلاند ، التى تجيب عن سؤال يتحداها لماذا لاتقرأ التاريخ : «إننى أظنه أمرًا غريبًا أن التاريخ يجب أن يكون بهذه الكآبة لأن شطرًا كبيرًا منه كان بالضرورة اختراعًا»[١]. ويأمل كار، بطبيعة الحال، أن يوضح فكرة أن الاختراع هو قلب مشروع المؤرخ. بيد أننى لست أول من أوضح أن كاترين مورلاند تريد أن تقول المزيد[٢]. وها هى الجملة بتمامها. تقول الآنسة مورلاند: «إن المنازعات بين البابوات والملوك، مع الحروب الطويلة والطواعين تطل علينا فى كل صفحة ؛ وجميع الرجال لايصلحون لشىء ، ولاتكاد توجد امرأة على الإطلاق- إنه أمر متعب للغاية ، إلا أننى أظنه أمرًا غريبًا أن التاريخ يجب أن يكون بهذه الكآبة ، لأن شطرًا كبيرًا منه كان بالضرورة اختراعًا ».

إن ما يحوِّل التاريخ إلى «عذاب» بالنسبة للفتيات والأولاد الصغار[٣]، حسبما تصفه كاترين مورلاند فيما بعد ، هو الافتقار إلى الدافع الواقعى، وهو ما ينتج بشكل قوى عن عدم رؤية النساء فى اختراعات (أو تدخلات) المؤرخين . وربما يكون كار أيضًا قد فهم النص الخفى، على الرغم من أنه لم يورده . ولاغرابة ، إذا ما أخذنا فى اعتبارنا ما نعرفه الآن عن سيرة كار الشخصية ، بما فى ذلك استغلاله بلا خجل لزوجة واحدة على الأقل باعتباره باحثًا، من أن كار تعالى على النساء[٤]. ومع هذا ،

فربما يكون قد رتب أن يبدو الرجال، مع غياب المرأة، وكأنهم لايصلحون لشيء ، وأفعالهم تنزل إلى مستوى المشاجرات القائمة على أساس المصالح الذاتية الوضيعة . وليس تجاوزا كبيراً أن نتصور أنه إذا كان حيًا اليوم، لكان قد اعترف أن مجادلاته أفسحت مكانًا لمنظور يتعلق بالنوع – منظور يتوسل بالعلاقات الاجتماعية بين الأجناس – باعتباره مصدراً للتغير والقوة ، أجل القوة . والواقع أن كتاب **What is History?** كتاب ملائم لمجادلة فى سبيل النوع باعتباره طريقًا لرؤية بدونها نحرم أنفسنا من أداة تحليلية مهمة ونعيق أنفسنا بالعمى الجزئى . وفى ذلك فإنه يختلف تمامًا عن التصنيفات الأخرى التى قدمت فى هذا الكتاب. وبينما يمكن تفسير التاريخ الثقافى والسياسى والدينى على نطاق واسع، يكفى لتضمين أجزاء كبيرة من السرد التاريخى، فإن تاريخ النوع يستمد معلوماته من كل فرع من فروع الدراسة التاريخية ويثريها ليقدم ذلك النوع من الإطار التجميعى الذى افتقرنا إليه حديثًا .

– ١ –

تقوم مناقشتى على أساس قراءة عمرها أربعون سنة لكار، وترجع فى أصلها إلى الولايات المتحدة. وقد نضج جيلى من طلاب الدراسات العليا فى الولايات المتحدة على أفكار كار. إذ قدَّم كار لكثير منا ممن كانوا يتدربون فى ستينيات القرن العشرين مخرجًا من الموضوعية القائمة على أساس التجريبية التى كانت قد باتت السمة المميزة للدراسات التاريخية حتى ذلك الحين، مهاجمًا بكامل طاقته مزاعمها بامتلاك الحقيقة . وفى عالم ما بعد الحداثة ، سيبدو دفاعى على أية حال من طراز عتيق إلى حد ما ، وهو ما ستبدو عليه مجادلتى بأن تاريخ النوع يوسِّع مدى المثال الذى قدمه كار بشكل مناسب ، لأن دفاعى يضرب بجذوره لا فى التجريدات النظرية للغة وطبيعة التجربة ، وإنما فى التعبير التقليدى عن السلطة والشئون السياسية . وكان ما أعجبنا فى كار فى الولايات المتحدة فى الستينيات هو أنه ، على العكس من كولينجوود **R.G. Collingwood** ، الذى اقترب بشكل خطير من اعتلاء حاجز النسبية ، كان كار يفكر فى أن هناك شيئًا لصالح الموضوعية . لم تكن المهمة التى نذر نفسه لها أن يقنعنا بأن نتحاشى الحقائق ،

ولا أن نشوّه حقيقتها المادية. ولكن أن نتعامل معها بعين خاصة ؛ أن نعترف ، على حد تعبيره، أن « ... المؤرخ عمومًا سوف يحصل على نوعية الحقائق التى يريدها...». وقد أخبرنا أن الحقائق، فى فقرة مأثورة ، ليست مثل السمك على طاولة تاجر السمك ، ولكنها مثل السمك السابح فى المحيط[٥]. وفى هذا الصدد يمكن قياس الموضوعية ليس بما إذا كان المؤرخ «يحصل على حقائقه صحيحة، وإنما بما إذا كان يختار الحقائق السليمة»[٦].

بأى مقاييس سوف يكون عليه أن يقيس هذه الاختيارات ؟ ونحن نرجع صدى الصوت الذى اعترف بتعقيدات صنع القرار . ففى رأى كار، كانت الاختيارات تتم بواسطة أناس عملوا بالضرورة فى سياق أزمنتهم . وقد كانت لدى المؤرخ الموضوعى المسئولية والقدرة على الاعتراف وعلى السمو فوق «الرؤية المحدودة لموقفه الخاص فى المجتمع وفى التاريخ»[٧]. وقد ألقى على مسامعنا الشغوفة قوله بأن «انحياز المؤرخ يمكن الحكم عليه من خلال الغرض العلمى الذى يطرحه»[٨]. وقد شجعت مناقشة كار عن التاريخ المنغمس فى قيم المؤرخ ومواقفه (نعم؛ استخدم الكلمة حتى فى ذلك الحين) مع معرفة الذات الجيل الأول ما يسمى غالبًا فى الولايات المتحدة التاريخ الجذرى. كما أن استعداده لأن يصف كتابة التاريخ المتمركز فى بريطانيا من خلال عيون غربية بالباروخية هو الذى فتح المغالق التى كانت تقيد رؤيتنا ، كاشفًا بعض النصوص القانونية الكنسية باعتبارها نتاج رؤى اجتماعية خاصة . وتعريفه التاريخ الحديث بوصفه اللحظة التى فيها «يبرز المزيد من الناس فى الوعى الاجتماعى والسياسى»[٩] أسبغ الشرعية على بحثنا عن أصوات المهاجرين ، والغرباء، والنساء، والسود. وقد استجاب جيلى – من الناشطين المعارضين للحرب ، وناقدى السلطة ، والمتمردين من كل نوع – لدعوته إلى فحص الذات. وبالنسبة لبعضنا (أظن أن من العدل القول إن معظم طلاب الدراسات العليا فى التاريخ فى ستينيات القرن العشرين لم يكونوا على ألفة بماركس) كانت قراءة كار أول مواجهة لنا مع إطار بديل جاد.

ولم تكن معرفتى الباكرة بكار متعلقة بالنوع. ولا أظن أننى لاحظت آنذاك كيف فصل الأخلاقى والخاص عن العام بشكل حاسم ، ورفض أن يرى المعانى السياسية

في ما هو جنسي؛ كيف حبس نفسه بعزم فى موقف حدد القرارات الشخصية داخل نطاق الأخلاقيات الخاصة، ومن ثم لم يكن هناك مجال لعمل للمؤرخ فيها[١٠]. وطوال وقت قراءتى لكار ، كنت أكتب رسالة عن حركة العمال المهاجرين فى نيويورك فى تسعينيات القرن التاسع عشر . وإذْ كنت أعتقد أن العمل يتعلق بالرجال ، فإننى استبعدت بشكل منهجي أى معلومات عن النساء عثرت عليها . ولكن كار مع هذا أضفى الشرعية على مشروعات مثل مشروعى ، كانت تحاول آنذاك أن تفهم محاور القوة من جديد. وقد شجعنا كتاب **What is History?** على أن نعيد النظر ونكرم هوياتنا الاجتماعية باعتبارنا مؤرخين – معترفين بأن فيها الموضع الذى منه يمكن أن نبدأ التفكير . ولم تكن هذه مسألة بسيطة فى الولايات المتحدة حيث واجه جيل جديد من المؤرخين عداوة مهنة ملتزمة التزامًا عميقًا بمعاييرها الخاصة للحقيقة. وفى الخطاب الذى ألقاه الاستعمارى المتميز كارل بريدنباوغ **Carl Bridenbaugh** سنة ١٩٦٣م أمام الجمعية التاريخية الأمريكية، وهو الخطاب الرئاسى الذى يُقتبس غالبًا ، حذر زملاءه المحترفين من أن مستقبل المجال بأيدى جماعة الشباب والمتدربين الذين كانوا «نتاج الطبقة الوسطى الدنيا أو الأصول الأجنبية»، والذين «كثيرًا ما تقف عواطفهم عقبة أمام إعادة البُنى التاريخية»[١١]. فى ذلك السياق لاغرابة فى أننا نحيى اعتراف كار بالأرضية المحملة بالقيم التى كان يكتب عليها كل التاريخ.

وبالنسبة لجيل تشوش بحرب فى ڤيتنام وكسب الحقوق المدنية للأمريكيين الأفارقة، فإن ما قاله كار عن أن التاريخ حوار الماضى، ليس مع الحاضر، وإنما مع المستقبل ، جاء بمثابة شيء يدعو للراحة ؛ إذ حطم الأوهام بشأن التفسيرات التى قدمها أسلافنا وقدم ذخيرة مُقنعة ضد الاتهامات بحضور الذهن والتسييس. كنا قد رأينا كيف أن مزاعم عدم الوعى الذاتى بوجود تاريخ خال من أحكام القيمة قد أدت إلى ركود أجيال بأسرها من الأمريكيين فى مسألة اكتساح وجود الأمريكيين الأصليين والمستوطنين الإسبان. مثل هذه المزاعم أخفت البحث عن الإمبراطورية فى عباءة لغة تجليات القدر، مما شجع المؤرخين على أن ينسبوا أسلوب التصرف برمته (التوسع الغربى، والحرب الأهلية ، والإمبريالية الاقتصادية) إلى البحث عن حرية أكثر اكتمالاً

فى الوطن وفى الخارج. وقد سمحوا لنا بأن نضع التفسير فى الصراعات الطائفية (الجنوب ضد الشمال، الحدود فى مواجهة مناطق الاستيطان ، أو الأعمال ضد الإصلاحيين) بدلاً من أن يحثونا على البحث بقدر أكبر عن الأسباب الجذرية. وبينما كنا نسعى وراء رؤية نقدية أكبر، دخلت مفاهيم الطبقة ضمن مفرداتنا وبدأ مستقبل أقل خضوعًا لقيود الفردية التنافسية يؤثر على تفسيراتنا لمعانى الأيديولوچيات المهيمنة . مثل هذه الاستجابات للهجمات على التاريخ الخالى من أحكام القيمة لم تكن بسيطة ولا كان يمكن التنبؤ بها. فعلى سبيل المثال، تحول بعض المؤرخين المتأثرين بآمال المساواة التى انتشرت فى ستينيات القرن العشرين أثناء حركة الحقوق المدنية ، إلى الثقافة الأبوية الجنوبية لشرح ثقافة الرقيق؛ وتحول آخرون صوب مقاومة الرقيق(١٢). ومع هذا ، فإن تخيل المستقبل على أنه جزء من المسار التاريخى المستمر أتاح إمكانية فحص المحتوى المتغير فى الصناديق التى كانت فارغة من قبل (أو الحقائب)، والتى تحمل شارات الحرية والمساواة والتحرر. ولكن الحرية لمن ؟ لقد أعطى كار الإذن بطرح هذا السؤال .

وبعضنا (وأنا أعد نفسى منهم) استخدموا الدعوة لاستكشاف تاريخ العمال ومجموعات المهاجرين بمصطلحاتهم هم. ولكن الأمر تطلب حركة نسائية لتبديل أهدافنا الوطنية الجماعية بالقدر الذى يكفى لتضمين النساء بين أولئك الذين يقدم المستقبل لهم الوعد بالصعود إلى الأهداف التى كانت محرَّمة عليهم من قبل مثل المساواة والتحرر والرضا الفردى. وفى ضوء تلك الفرصة، تصيدت المؤرخات من النساء فى بعض قطاعات الدراسة التاريخية التى كان يتم التغاضى عنها من قبل ؛ فقد جمعن ما يكفى من الحقائق لكى تقمن بالحوار الموعود الذى فات أوان تحقيقه من زمن بعيد. ويعرف جيلنا من المؤرخين الكثير عن النساء بشكل يفوق كثيراً ما كان أسلافنا يعرفونه، بيد أن هذا ليس كافيًا بطبيعة الحال. وإذا ما أردنا أن نكتب عن النساء (أو من أجل هذه المسألة ، عن الرجال بوصفهم رجالاً) فإننا نتعرف على الرجال والنساء وهم يعترفون بهوية نوعهم ويتصرفون على أساسه. إننا نتعرف على الرجال والنساء ونستردهم ونحتفى بهم لغرض ما. وإذا ما اخترنا أن نكتب عن الشئون السياسية الأكبر التى

تتصور نظام حكم أكثر تضمينًا – خارج السياسات النسوية حقًا – حينئذ يكون ذلك متوافقًا بالضبط مع ما صوره كار. وعندما نتجاوز التضمين بخطوة لكى نقوم بتجزئة فكرة «النساء» فى أشكالها المتعددة وأحيانًا فى أجزاء متخاصمة ، إننا لانجزئ التاريخ، ولكننا نتيح إمكانية خلق إمكانية أكبر للتفسير. ونحن نحتاج إلى المعلومات التى استعدناها – ولكن الاستعادة ليست علامة سوى على مرحلة واحدة فقط من بحث تاريخى مستمر. والمرحلة الثانية وربما تكون المرحلة الأكثر استمرارًا ، تتمثل فى ضمان أن هذه الحقائق ذات أهمية، وتملأ الأكياس الفارغة لأولئك الذين يبدو عملهم بعيدًا فى مجاله عن تاريخ النساء. هذا هو عمل النوع.

فى العقود الثلاثة الماضية ، بدأ المؤرخون من كل الأنواع، مثل مؤرخى النساء، فى تضمين الحقائق الجديدة ليروا ما إذا كانت تضيف شيئًا . وعلى نحو ما توضح فصول هذا المجلد، فإن الأسئلة عن النوع تتكاثر ، بحيث تغزو كل مجال من مجالات التاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى. إنها تلقى الضوء على أداء الشئون السياسية اليومية؛ قدرة الأمم على جذب ولاء مواطنيها ، وأثر النضال العنصرى على العوائد الاقتصادية . ولم يعد بوسعنا أن نتظاهر بأننا نفهم أية لحظة تاريخية (التصنيع، بناء المجتمعات الحضرية ، إضراب ناجح أو فاشل ، ثورة جنسية) دون أن نجعلها تشتمل على النوع فى حساب الأسباب والتفسيرات .

وبمساعدة الحقائق الجديدة التى حصلنا عليها حديثًا، وفى حوار معها، خلق المؤرخون وقفة تفسيرية جديدة تثرى رؤيتنا للماضى ، وتساعدنا على رسم صورة أكثر اكتمالاً للتغير التاريخى وعلى استيعابه بشكل أكمل. وباستخدام مفهوم مركب للنوع، متداخل مع العرق والطبقة، كشف المؤرخون عنه باعتباره محورًا مهمًا للقوة. ولاشك فى أن مؤرخى النوع قد اتخذوا فى بعض الأحيان رؤيتين غير متسقتين للقوة. فمن ناحية ، أصرّ المؤرخون على أن الاهتمام بالنوع أنشأ مقاربة جديدة لمعنى القوة، بحيث تضع جذورها ليس فى الهيراركية التى تمتد من القمة إلى القاعدة ، ولكن فى العديد من الأماكن المختلفة. وقد استفادت هذه المجموعة من الرؤية الثاقبة لميشيل فوكو لكى تصر على أن القوة تمارس من مواضع كثيرة ، منتشرة وعادية[١٣]. ويكشف بحثهم عن تأثير

النوع خاصة عن أثر الذكورية والأفكار عن الرجولة فى دعم تصرفات رؤساء الاتحادات ، والعمال العاديين ورؤساء العائلات. وفى الوقت نفسه، زعم مؤرخو النساء أن النوع قادر على تشكيل القوة الجبرية للدولة وكبح جماحها والحد من قدرتها على تحقيق السيطرة الاقتصادية والاحتفاظ بها. ويتضح هذا ، مثلاً، من خلال المفهوم المقبول الآن على نطاق واسع بأن دولة الرفاهية التى شهدتها بدايات القرن العشرين كانت قد تشكلت بتدخلات النساء(١٤). وأود أن أوضح أن النوع ليس هو المحور الوحيد الذى نحتاج أن نفهمه ، ولكنه محور بين عدة محاور (تتضمن الطبقة، والعرق والبُنى السياسية، والأيديولوچية، والمؤسسات الاقتصادية، وفى وقت أحدث الجنس) نتائجها هى بالفعل موضوعات التحليل. والنوع جزء لايتجزأ من هذه المحاور، حتى إن بقى متمايزاً من الناحية التحليلية .

وفيما يلى سوف أفحص ، باختصار، أربع ساحات مؤثرة ومتداخلة أظن أن النوع قد ساعد فيها على تشكيل مفهومنا للقوة. إننى أسأل كيف أثر النوع على فهمنا التاريخى لتكوين الذاتية أو الهوية ؛ تكوين الطبقة ؛ تكوين الدولة؛ وبسبب عدم وجود كلمة أفضل «بناء الوطن» أو العمليات المتعلقة بهذا من الاستعمار وخلق الامبراطورية ؟ وأمضى من الداخل إلى الخارج.

– ٢ –

لم يكن بوسع كار أن يشارك ، ولم يشارك، فى الجدل الكبير بين المؤرخين فى العصر الحديث حول ما إذا كانت الهوية والوعى الإنسانى قد تشكلت فى الساحة الاجتماعية أو فى ساحة اللغة والخطاب(١٥). وعند أحد المستويات كان سيروعه مشروع ما بعد البنيوية لزعزعة المعانى ، ولإيجاد الصراعات فى داخل المعانى ولرفض البحث عن القوة. بيد أننى أشك فى أن قلقه من أجل دور الوعى الإنسانى فى التاريخ كان سيعيد له وعيه فى نهاية المطاف لأن هناك قدراً قليلاً من الشك حول الأهمية التى أضفاها على كل من موقف المؤرخ باعتباره مفسّراً وموقف الفاعل التاريخى باعتباره هدف البحث . وفى كلا الاعتبارين كان كار فظًا إلى حد ما :

«منذ كتب ماركس وفرويد، لم يعد للمؤرخ عذر فى أن يفكر فى نفسه باعتباره فرداً منزوعًا يقف خارج المجتمع وخارج التاريخ. إن هذا عصر الوعى بالذات، ويستطيع المؤرخ ، ويجب عليه، أن يعرف ما يفعله»[١٦].

إن بؤرة نظرية ما بعد الحداثة ، ليست مجرد التركيز على الهوية، وإنما على الهويات المتعددة التى تقدم النوع داخل معادلة لتقدير الوعى، وتحول الذكورية والأنوثة إلى عبارات مركزية يمكن من خلالها طرح التفسير . ومن بعض النواحى لايهم إلا قليلاً إلى أى مدى نحن على استعداد لدفع النظرية. نحن نحتاج فقط إلى الاعتراف بأن اللغة مهمة ، وأن مفاهيم مثل الرجولة تحتوى فى الحال على كثرة من المعانى ومتداخلة فى أفكار مثل «الأسرة» أو «العموم» لنرى كيف يعمِّق النوع تأكيدات كار ويجعلها أشدَّ تعقيداً. وسواء كانت الذات **"Self"** مبنية من خلال اللغة والخطاب، أو الاختراع ونشر نظم الرموز، أو الوضع الاجتماعى والثقافى، فإن الذات التى تشارك فى تشكيل العالم من حولنا هى ذات محددة على أساس النوع. ويبدل تقديم النوع بعضاً من أقوى وصفات كار. تخيَّل ، مثلاً رد الفعل من خلال عدسة النوع على حين يخبرنا كار أن «الرجل الحديث واع بنفسه بشكل لم يسبق له مثيل ، ومن ثم فهو واعٍ بالتاريخ»[١٧].

إن المؤرخين الذين يضعون الذات فى حسبانهم قد بدءوا بالفعل فى التساؤل حول المضامين السياسية للحقائق الجديدة التى يكتشفونها . وأورد هنا مثالين واضحين لامعين: كتاب آنا كلارك **Anna Clark** بعنوان **Struggle for the Breeches** وكتاب فرنسيسكا براى **Francesca Bray** بعنوان **Technology and Gender** (وهو كتاب عن الصين أواخر عصر الإمبراطورية)[١٨]. وكل منهما يستكشف العلاقة بين اللغة وتجربة الفعل السياسى. ولكن هناك كتبًا كثيرة أخرى اتخذت أشكالاً مختلفة. وتنقب كارولين ستيدمان **Carolyn Steedman** فى مركزية أيديولوچيات الذكورة والأنوثة ، ليس باعتبارها تعارضات ثنائية ، وإنما على اعتبار أنها أنماط من التواصل فى ظروفها التاريخية ، خاصة ما يتعلق منها بالطبقة[١٩]. وأثَّرت سالى ألكسندر **Sally Alexander** ، وكاترين هول **Catherine Hall** على جانبى الأطلنطى من حيث استكشاف طريقة تأثير

النوع من الناحية العنصرية فى تشكيل الرؤى العالمية وعلاقات النظم فى المؤسسات الاقتصادية[٢٠]. كما أوضحت لورا إنلجشتين **Laura Engelstein** وكاثلين براون **Kathleen Brown** كيف يسهم تنظيم النوع فى تحديد ترتيب الهيراركية، وجعل الأفراد يألفون نماذج التنظيم الاستبدادية ودعم أنظمة الحكم المعادية للمساواة[٢١].

ولايقدم أدب العالم الغربى عن العلاقات التى تترسخ بالتبادل بين الوعى والفعل فى القرن التاسع عشر ، مثالاً أكثر إقناعًا من تلك العلاقات التى تبرز من طيّات مختلف أنواع الأيديولوجيا المنزلية، وتكون أيضًا متضمنة فى داخلها . فإذا اعتبرنا التوصية بالمنزلية بمختلف أشكالها نمونجًا إرشاديًا ، وجدنا أنها لعبت دوراً رئيسيًا فى تنظيم العالم، فقد قيدت الآمال الفردية للرجال والنساء كما شكّلتها ، ثم أثارت السخط ونزعة الامتلاك على التوالى. وعلى حد تعبير مارى بوڤاى **Mary Boovey** ، فإن هذا هو الفعل الأيديولوچى للنوع[٢٢]. إذ إنه فى هذه الصيغة (حسبما لاحظ چوى بار **Joy Parr** وچين لويس **Jane Lewis**، وغيرهما) نظم السلوك فى بعض الأحيان، بحيث حسّن توقعات الذكر الذى يعول والأنثى التابعة[٢٣]. بيد أنه أثار ، أيضًا، نزعة التمرد لأن النساء سعين إلى التحرر بشكل متزايد .

وقد وفرت المنزلية فى صورة ثانية إطاراً تفسيرياً راسخًا للمؤرخين. وإذ انغمس المؤرخون فيما بدا أنه نظام طبيعى قائم على أساس النوع، فإنهم فرضوا باستمرار رؤيتهم الخاصة عن الرضى الإنسانى بشكل يتسق مع تصوراتهم الخاصة عن الترتيبات المنزلية المناسبة ، أو وصف اللحظات التى قد تسبب عدم رضاهم بأنها مصادر الفعل. وكنا على ألفة، مثلاً ، بالأفكار الشائعة غير الدقيقة ، التى ظلت حتى وقت قريب متداولة على نطاق واسع ، عن أن النساء «لاتعملن» ، أن الرجال هم الذين يعولون الأسر. وعلى مدى سنوات أدت هذه الفكرة إلى أن موظفى الإحصاء السكانى والمؤرخين تغاضوا عن الإسهامات الاقتصادية للنساء كما جعلت المصلحين الاجتماعيين يقترحون سياسات قوضت جهود النساء فى مساندة أسرهن. إلا أن هذا الإدخال لذات المراقب فى السجل التاريخى لم يكن ملحوظًا لأن الافتراض الذى كان مبنيًا على أساسه كان شائعًا لدرجة كبيرة. وفى هذا الصدد تتسبب الأيديولوچية المنزلية فى ازدواج العمل إذ إنها تلوى وعى المراقب، حتى وهى تشكّل تجربة الموضوع التاريخى.

وتعكس حاجتنا إلى تنظيم العالم إلى مجالات عامة ومجالات خاصة تأكيداً ذاتياً مشابهًا لتوقعاتنا. وقد كان الكشف عن هذه الثنائية أمراً بالغ الصعوبة ، ولكننا حين نفعل هذا، يساعدنا على أن نرى اللحظات التى فيها تعمل الأسرة فى تواصل غير منقسم. ويمكن لتنظيم أهل المنزل أن يشكل بل وأن يسرّع إيقاع عملية ما قبل التصنيع عندما يتم تشجيع إسهام النساء فى أشكال بعينها من العمل. ويمكن أيضًا أن يكبح عملية التصنيع ، مثلاً، عندما تتعرض النساء للعزل. والشك بشأن الخاصية الأيديولوچية للتقسيم إلى عام/خاص قد أنتج بحثًا عن حقائق جديدة تعد بوضع نهاية للثنائية . وبأيدى مؤرخين من أمثال إيرل لويس **Earl Lewis** وبونى سميث **Bonni Smith** ، تكشف هذه الحقائق الجديدة الطرق التى يطور بها الرجال الهوية خارج العائلة ، وتطور بها النساء الهوية خارج العمل المأجور. إنها توضح ارتباط الرجال بما يسميه لويس الفضاء المنزلى، حتى وهى تُظهر النساء فى الساحة العامة فى السوق ، وفى الورشة ، وفى الحياة العادية أو فى الكنيسة(٢٤). وعندما نشاهد العام والخاص ينوب كل منهما فى الآخر، نجد أنفسنا مدفوعين إلى طرح أسئلة عن المقاصد السياسية والمصالح الذاتية الكامنة فى بناء المجالات المتعارضة ، مثل العائلة والتوظيف، أو المنزل والشئون السياسية، وكل منها فى علاقة متوترة بالآخر. فما هى رابطة القوة التى تؤازرها مثل هذه الرؤية المقيدة.؟

ولكى ننتقل إلى النقطة الثانية ، لايمكن أن يكون هناك بعد الآن أى شكوك فى أن النوع– كيفية ترتيب العلاقات الاجتماعية بين الجنسين فى لحظة معينة من الزمان– يسهم فى تشكيل الطبقة. ولا أعنى بهذا أن الرجال أو النساء شكلوا «طبقة» بمصطلحات سبعينيات القرن العشرين والمناقشات التى دارت آنذاك حول هذا الموضوع، ولكنى أقصد أن *النوع* يشارك فى بعض خصائص *الطبقة*(٢٥). وعلى الرغم من أنه لم يعد مما يتماشى مع العصر أن نشير إلى الطبقة باعتبارها فئة تفسيرية مركزية، فإن القليل من المؤرخين هم الذين سوف ينكرون بروز علاقات الإنتاج الاجتماعية فى ظل ظروف خاصة مرتبطة بعناصر مثل الثقافة والعنصر والعرق. والنوع عملية، مثل الطبقة ، تتغير بمرور الزمن ولها علاقة بالظروف التاريخية؛ وهى مثل الطبقة تخيلية تصورية ومعيارية ، تحكم التوقعات بشأن مستقبل الأفراد ورؤى العالم.

ولأن النوع سائل ، فإن إسهامه يختلف تبعًا للظروف التاريخية . ولأنه يكون الأرض التى تبنى عليها الهوية، ويتشكل الوعى، فإنه يمكن أن يكون أكثر انتشاراً من الطبقة، ولاشك فى أنه عنصر من عناصر تكوينها ، وقد تعلمنا من عمل مارثا هويل **Martha Howell** ومن عمل ليونور داڤيدوف **Leonore Davidoff** وكاترين هول، وآخرين غيرهم، أن النساء والرجال متورطون بشكل مختلف كل منهما عن الآخر فى تكوين رأس المال داخل العائلات : وكون العلاقات الاجتماعية بين الجنسين (بما فى ذلك مشاركة النساء فى المشروعات وامتلاكهن مهارات مثل القراءة والنسيج فى الصين) يؤثر على سرعة وكذلك على الطريقة التى يتم بها تأسيس العائلات ويتم بها تكوين رأس المال[٢٦]. وقد تعلمنا أيضًا أن الثورات الصناعية (التى اعتمدت فى العادة على استخدام الأنثى ومثلها مثل الذكر فى العمل بالمصانع) تطلبت إعادة صياغة العلاقات الأسرية ونظم الدعم لكى تؤازر التطلعات الاقتصادية للأفراد والمجتمعات .

وبعبارة أرق، تطلبت إعادة تأطير الإمكانيات الاقتصادية للنساء والرجال أطراً أيديولوچية. وقد أوضحت كاثلين كاننج **Kathleen Canning** بطريقة جميلة تعقيد هذه العملية بالنسبة لألمانيا القرن التاسع عشر حيث استوجب تحويل صناعة النسيج ، من الرجال أن يمزقوا أواصر الرجولة مع المهنة والفخر بالإنتاج ويحولوها بدلاً من ذلك إلى دعم من يعولونهم . وقد أدى هذا التحول إلى تكوين أيديولوچية محلية جديدة لم تشجع على العمل المأجور للنساء المتزوجات وفرضت التضامن الذكورى عبر خطوط الطبقة . وتمثلت إحدى النتائج فى تقويض تطور الطبقة «لصالحها الخاص». وبينما أنتج التحول ذكورية فى ثياب كسب العيش، فإنه ضحى بالصراعات فى ساحات الحوانيت على مذبح تأمين الوظيفة والدخول الكبيرة[٢٧].

وفى الولايات المتحدة ، حيث ربط الرجال تقديرهم لذواتهم بمفهوم التحرر والحرية متخذين شكل مثال الاكتفاء الذاتى الاقتصادى ، كان الخوف من المنافسة مع النساء غالبًا ما يؤكد المفاوضات بين النوعين. إذ إن الكثيرين من العمال الرجال فى القرن التاسع عشر (حسبما تلاحظ مارى آن كلاوسون) طوروا التضامن وحصلوا على صوت سياسى أولاً من خلال أخوة الحرفة وفيما بعد من خلال الاتحادات العمالية؛ وكذلك فعل

غيرهم فى الفنادق والحانات التى تفصل بين النوعين[٢٨]. وبينما استفادت النساء غير المتزوجات ، وبعض النساء المتزوجات كذلك، من الفرصة الاقتصادية لكى يتحركن أكثر صوب الاستقلال الذاتى والاعتماد على النفس، حاولت كثيرات غيرهن أن تجعلن لأصواتهن السياسية وزنًا من خلال المطالبة بحقوق متساوية[٢٩]. وفى بعض الحالات ، تحول ما كان ينبغى أن يكون وعيًا طبقيًا يوحد بين النساء والرجال فى سعيهم المشترك نحو النفوذ الاقتصادى ، بدلاً من ذلك، إلى نضال عبر خطوط النوع عندما حاول الرجال استبعاد النساء من العمل المأجور[٣٠]. ولأن النساء كن يفتقرن إلى الملكية فى عملهن ، ولم يكن لهن صوت بالساحة العامة ، فإن مطالب النساء بالمساواة بين النوعين كانت يمكن أن تسبق أحيانًا اهتمامهن من أجل تقليل الفوارق بين الطبقات .

وفى غضون السنوات العشر الماضية ، كان المؤرخون قد بدءوا يستكشفون كيف يمكن للثقافة الذكورية أن تقسِّم العمال الذكور. ولست أعنى بهذا مجرد استبعاد النساء. وقد عرفنا أن الرجال فى كل مكان حاولوا لبعض الوقت الحفاظ على الصور المستقرة عن الرجولة (وكذلك عن الوظائف) عن طريق استبعاد النساء من النقابات ، واتحادات العمال، ومن المهن والوظائف . ولكننى أشير إلى التقسيمات بين الرجال على أساس الأنماط العنصرية / العرقية وأنواع الأعمال التى يتم القيام بها. وفى الولايات المتحدة يكتب يوشع فريمان **Joshua Freeman** وستيڤن ماير **Stephen Meyer** عن التقسيم باعتباره تقسيمًا بين العمل المحترم والعمل الشاق[٣١]. ولكن تقسيمات أخرى (بين عمل ذوى الياقات البيضاء وعمل ذوى الياقات الزرقاء ، مثلاً، ممكنة) . وكان عمل الرجال المحترم، الذى يبرز من تقاليد المهنة ، مرتبطًا بالفخر ، والمهارة ، والأمن الاقتصادى. وأولئك المرتبطون بأعمال خشنة (مجال العمال غير المهرة) ، ربطوا بين الرجولة والقوة البدنية ، والشجاعة فى مواجهة الظروف الخطيرة ، والنشاط الجنسى، والتبجح. وتسهم كلٌ من هذه التقسيمات فى بناء وجهة نظر عالمية مختلفة. والعمل المحترم مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمحلية، مثلاً، وقد تُسهم أيضًا فى بناء هوية جماعية للنوع والدفاع عنها بحيث يتولد عنها قيود على عمل الإناث حتى فى محاولة الحفاظ على مجال العمل المأجور خالصًا للرجال[٣٢].

والذكورية ، كما نعرف الآن، صارت قلب التكوين الطبقى وكذلك مقاومة العمال، فى داخل مكان العمل. كما أنها أنبتت أيضًا ولاءات طبقية متصارعة فى الساحة السياسية. وفى مواقع جد مختلفة، أوضحت بربارا تيلور **Barbara Taylor** وليز فاوى **Liz Faue** ، وآخرون غيرهما، الطرق التى بها منعت السيطرة الذكورية (بما فى ذلك صور ولغة التنظيم) أو شجعت هوية الطبقة العاملة على التوالى(٣٣). ولكن الذكورية قد تعقدت بسبب مكونها العنصرى . وقد كشفت چوى تروتر **Joe Trotter** ، وتيرا هنتر **Tera Hunter** وجليندا جليمور **Glenda Gilmore** كيف أن العنصر اتفق مع النوع لخلق انشقاقات طبقية(٣٤). والموضوع هو أن الحقائق الجديدة لدينا (منذ جيل مضى لم يكن ما كتبته تريسا ليو **Theresa Liu** وبربارا هناوالت **Barbara Hanawalt** ، ومارى ويسنر **Merry Wiesner** ولويس تيللى **Louis Tilly**، وعشرات غيرهن) تساعدنا على أن نرى كيف أن التحولات الاقتصادية مبنية فى كل مكان على تعديل مستمر لبناء الأسرة والعائلة وأيديولوچيات الرجولة ، والنسوية(٣٥). وفى ضوء الحقائق الجديدة المتوفرة لدينا قد نجد أنفسنا أمام إغراء متجدد لأن نطرح السؤال الذى طرحه ورنر سومبارت **Werner Sombart** «لماذا لا توجد اشتراكية فى أمريكا؟» ، لأن من المؤكد أننا نملك الآن أدلة كافية لكى نؤكد أن جزءًا على الأقل من الإجابة ينبغى أن يكون كامنًا فى القوة التشكيلية الفعالة فى النوع والخصومات العنصرية.

- ٣ -

ننتقل الآن إلى النقطة الثالثة ، فقد عرفنا شيئًا عن كيفية إسهام النوع فى الحد من قوة الدولة - وهو من مكوناتها فى الواقع - ويشارك بذلك فى تكوين الدولة. وفى ضوء ما قد يسميه المرء الأمور السياسية الرسمية، كانت النساء تمارسن نفوذًا أقل من الرجال على مدى السنين ، على الرغم من أن موضوعات الرجولة شكلت جزءًا من الأچندة السياسية الليبرالية لبريطانيا فى عهد جلادستون ، حسبما جاء فى الفصل الذى كتبته سوزان بدرسن **Susan Pedersen** فى هذه المناقشات الجماعية ، وهو ما حدث أيضًا فى أمريكا الچاكسونية، وعلى النقيض منها، فى أمريكا الثورية.

ومع هذا فإن النفوذ الخاص للنساء لم يكن غائبًا فى أثناء اللحظات العظيمة مثل الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م. وربما تكون النساء قد عجّلن بالأزمة التى أعادت فى النهاية لويس ومارى أنطوانيت إلى باريس؛ إذ إن مطالبهن بالكلام علانية ، من أجل حقوق التمثيل النيابى والصوت الانتخابى، كشفت عن التناقض فى أيديولوچية كانت تناصر حقوق الرجال ومع ذلك كانت تصر على أن النساء لسن مؤهلات للمشاركة فى هذه الحقوق[٣٦].

والرابطة الاقتصادية / الأيديولوچية واضحة. وإذ وُجهت معظم الدولة الأوربية الغربية فى القرن التاسع عشر بأزمة فى النظام الاجتماعى نتيجة التصنيع المفرط ، فقد حاولت أن تصل إلى بر الأمان بمؤسساتها الخاصة بتقوية دفاعات العائلة التقليدية ، ولاسيما عن طريق الاهتمام بقدرة رأس العائلة الذكر على دعم إحساسه بنفسه باعتباره من يعول العائلة. وقد فعلت هذه الدول ذلك بطرق عديدة ولكن الطريقة الرئيسية كانت عن طريق تنظيم سلوك أفراد العائلة كل منهم تجاه الآخر، ووضع الحدود بين الرغبة الجنسية والسلوك الاجتماعى.

ولفرض معايير أخلاقيات الطبقة العاملة ، لجأت الدول إلى تنويعة من القواعد والقوانين التى، مثلاً ، نظمت عدد الشركاء الجنسيين المتاح للرجال والنساء وأنواعهم ؛ ووفرت الخطوط الإرشادية لتنظيم الزوجات؛ ومنعت النساء من الإمساك عن تقديم الخدمات الجنسية، وحسمت منزل العائلة. وفى هذه العملية كان الأطفال هم الرهائن ؛ إذ إن رفاهيتهم، وتعليمهم، ومكان إقامتهم ، بل حتى شرعيتهم كانت رهينة امتثال الأبوين للقواعد الجديدة[٣٧]. وحرمت النساء المتزوجات من أنوا ع معينة من الوظائف ، أو كن محرومات تمامًا من كسب عيشهن .

وقد حلت الدول التى اعتمدت على عمل النساء فى تحقيق أهداف الإنتاج القومى التوتر بين الوطن وحياة الأسرة بتنظيم عمل الإناث أولاً بحيث يتمشى مع أيديولوچيات الألفة الإرشادية ، ثم لإشبا ع حاجات أرباب الأسر من الذكور وحاجات الأطفال. ويمكن أن نجد هذه التنظيمات فى مجتمعات متباعدة عن بعضها مثل: لويل،

وماساشوستس، واليابان فى عصر فيجى. ويمكن أن نشابه بين قواعد الإسكان التى حكمت العاملات بمصانع الحرير فى شنغهاى القرن العشرين، وتلك التى نظمت سكن الأسر فى مصانع الجوت (الخيش) فى كلكتا(٣٨). وفى القرن العشرين صارت قوانين حماية العمال الوسيلة المفضلة لتشريع عمل الإناث، وفى النهاية أدت إعانات الأمومة (والأبوة فى وقت أحدث) إلى تأكيد تقسيم العمل على أساس الجنس(٣٩). وبينما كانت أجساد النساء مكبلة بالقوانين التى فرضت ساعات محدودة وعطلات ، رفضت كثير من الدول أن تدفع للنساء العاملات تعويضات عن الأجور التى خسرنها، حتى الحرب العالمية الثانية على الأقل، قدمت معظم الدول للرجال إعانات مختلفة، ورسائل مخصوصة عن دعم الأسرة . هذه هى الأجور على أساس النوع.

كانت آليات تنظيم توزيع عمل النساء بين العائلة والأسرة كثيرة، مثل تلك التنظيمات التى تتطلب إعالة الذكور للعائلة . واعتماداً على المناخ السياسى والاجتماعى، اختارت الدول ألا تشجع، أو أن تشجع ، عمل النساء المتزوجات بتقديم الرعاية للأطفال أو حجبها . وقد خلقت بعض الدول، مثل فرنسا، دور حضانة متقدمة تماماً للأطفال ؛ أما الدول الأخرى، مثل الولايات المتحدة ، فقد نفت حاجة النساء إلى رعاية الطفل، سوى عندما كانت ضرورية لخدمة الحاجات الوطنية. وقد أنكرت معظم الدول على النساء اللاتى يعملن فى عمل مأجور المساعدات (مثل تأمين البطالة وحقوق الأقدمية) التى منحت للرجال بشكل اعتيادى . هذه المعاملات التفريقية قد لعبت دوراً فى إمكانيات اتخاذ القرار فى كل أسرة. ودول قليلة ، مثل اليابان، بنت اقتصاداً قوياً بمخاطبة الغرائز الوطنية لدى النساء. وفى الولايات المتحدة وغيرها خدم النوع لتنظيم التفاعل بين الأعراق كذلك. فقد تعاملت قوانين التشرد ، مثلاً، مع الرجال والنساء، والسود والبيض، بطرق مختلفة تماماً . فبالنسبة لكثير من النساء السود الجنوبيات، فرض العمل المأجور حتى على أولئك اللاتى ربما كن يفضلن العمل فى أسرهن . وبعمل تمييزات بين النساء اللاتى كان ينبغى تنظيمهن ، تمكنت الدول من تأكيد الهيراركية على أساس الطبقة واللون. فمثلاً ، كان تشريع حماية العمال متاحاً فقط لنسبة صغيرة من النساء الأمريكيات العاملات(٤٠). لقد اعتمد بناء الوطن على التعبيرات الأيديولوجية وكذلك العملية التى تم استثمارها فى هذه الاستراتيجيات.

فى بلاد كثيرة يُضفى الفهم الطبيعى للجنس الشرعية على السياسات الاجتماعية التى دعمت ولاء الشعوب المتمردة. وقد اختلفت دولة الرفاهية من مكان لآخر، ولكنها فى كل مكان تبدو قائمة على افتراضات متصلة بالجنس، ومصممة لكى تحافظ على أنواع خاصة من البناء الأسرى . فالمعاشات لكبار السن والتأمين ضد البطالة فى بريطانيا أولى الاهتمام لحجم العائلة وجنس أرباب العائلات؛ والتأمين الصحى وسياسات الإسكان فى ألمانيا كانت مصممة على أساس تحسين أدوار النساء فى المنزل ؛ وقد أثَّر تغيير قوانين الضرائب والمساعدة للأسر التى لديها أطفال تعولهم فى الولايات المتحدة على كيفية تفكير الناس العاديين حول الزواج وكيف ومتى يتم تكوين الأسر. وبمدٍّ قدرة الدولة داخل المناطق الحميمة فى الحياة الشخصية ، حولت المساعدات الاجتماعية ممارسة السلوك القائم على نوع الجنس إلى معايير للمواطنة المسئولة .

وإذا ما تحولنا إلى التصنيف الرابع لدينا، صار من المستحيل شرح بناء الوطن والإمبراطورية والحفاظ عليها، وكذلك طبيعة المقاومة ضدها ، بدون الانتباه إلى المنظومات الأخلاقية الخاصة . فنوع الجنس يسهم على الأقل فى حالتين من التحليل : أولاهما ما بعد الحداثة ، والثانية تتصل بمفاهيم عصر التنوير عن الحقوق والتقدم . وما بعد الحداثة تظهر فى الغالب الأعم فى الجهود المبذولة لإيجاد أصوات التابعين واستنطاقها[٤٢]. والاهتمام بهذه الأصوات المتنوعة هو الذى أدى إلى تجزئة المبادئ الأخلاقية فى الهدف المركزى بالنسبة لبناء الإمبراطورية ، وشوش موقف الباحث الذى كان متسقًا ذات مرة . إذ إنه وضع فى المعادلة التاريخية مجموعة جديدة من الحقائق تزيح استكشاف الإمبراطورية من موضع متمركز فى أوربا إلى موقع يركز على تقاطع المستعمِر مع المستعمَر.

ويقترح هذا البحث أن مفاهيم المستعمِر والمستعمَر تشكلت هى نفسها بأشكال مخصوصة من السيطرة الجنسية التى استلزمت ترتيبات محلية اختلفت بالنسبة لكل من الطرفين. وهى مؤكدة ومثبتة بصور مجازية وأدبية قُصد بها تعزيز الحدود بين الجنسين. ولغة الإمبراطورية وتصويرها يتمثل فى تفسيرات بناء الولاءات الوطنية من خلال آليات عنصرية قائمة على أساس الفصل العميق بين الجنسين. وتتضمن هذه

صوراً خاصة عن الحياة الأسرية والنظام المنزلى مع تنظيم العلاقة الجنسية(٤٣). وفى بعض الأحيان تفرض بشكل غير رسمى (مثل قيم العصر الڤيكتورى عن الهيراركية المنزلية) وأحياناً تكون مدعومة بالتشريع الرسمى ، فإن الحدود الجنسية المتغيرة قد أسهمت فى خلق نماذج السلوك التى قصد بها التمييز الحاد بين المستعمَر عن المستعمِر وبذلك يتم توفير أساس منطقى للسيطرة الإمبراطورية. فالقوانين المانعة لامتزاج الأعراق، وحركات النقاء الجنسى، والحملات من أجل الترخيص بالدعارة ؛ كلها تحتل مكانها فى حوليات بناء الوطن(٤٤).

وفى السياق الاستعمارى أوضحت دراسة أنطوانيت بيرتون **Antoinette Burton** وآن ستولر **Ann Stoler** مدى اعتماد نجاح المشروع الاستعمارى على التمسك بنوع خاص من النظام الثقافى الذى يفصل بين الجنسين. وعلى حد تعبير ستولر ، فإن «تغيرات تنظيم العائلة، وتقسيم العمل على أساس الجنس ، وسيطرة جنس بعينه على الموارد، هو الذى دعم السلطة الاستعمارية »(٤٥). وقد أدى نوع الجنس إلى بناء معانى خاصة للعرق ثم ساندها ، ليخرج بمفاهيم عن «السيدة» الأوربية التى لاتنساق وراء عواطفها ، وفحولة الذكر الأبيض ضد الغزو الجنسى من جانب نساء المستعمرات ، ولاذكورية رجال المستعمرات. وقد زادت السلطة الاستعمارية على الترتيبات المحلية من تمزيق حياة الناس على كلا جانبى السور (الفاصل مجازاً بين الجانبين) ، ليفرض رسائل عن السلطة الجنسية من خلال الترتيبات الأسرية ومساواتها بالقوة والبسالة العسكرية(٤٦).

وفى «الاستعمار الداخلى» الذى كان سمة التوسع الأمريكى فى الغرب، يبدو أن نوع الجنس قد لعب دوراً لا يقل أهمية ؛ ذلك لأن إعادة تقييم لغة عصر التنوير عن التقدم والعقل قد خدمت المؤرخين بشكل جيد؛ فقد تم التعبير عن تضامن الرجال البيض من مختلف الطبقات ومن أصحاب الخلفيات المتنوعة عرقياً فى التعبير عن النضال الذى صان الحضارة ضد الوحشية، وفى نوع من العنف الرومانسى الذى بنى الرجال «البيض» باعتبارهم شركاء ضد الهنود الحمر، والمكسيكيين(٤٧) والتصور السائد ، الذى يرسم الكثير من مواقع الحدود بوصفها خالية من النساء (وهنا بالقدر ذاته استبعاد البيوت الهندية والمكسيكية، والنساء البيض المحترمات) ساعد على نوع خاص

من الذكورية وسهّل الغزو والبحث عن الموارد المعدنية مثل الذهب باسم نشر القيم الإنسانية[٤٨]. وفى النهاية فإن الغياب المزعوم للنساء ساعد على عقلنة السلطة السياسية، وقد ساعد أيضًا على انتشار الرواية الأمريكية الخاصة عن الاستثنائية . فمثلاً، حسبما أوضحت آنيت كولودنى Annette Kolodny ، فإن المزاعم الأمريكية فى حدود أسطورية ، بدلاً من استيلائها على مساحات هائلة من الأراضى ، أضفت قدسية وكرست النضال الذكورى تجاه الحراك الصاعد والنجاح التنافسى[٤٩]. وأية عدسة تنظر من خلال نوع الجنس تكشف كيف أن السر الفردى قد حجب الدفاع الجماعى وتعاون أهل البيت الذى ضمن فى النهاية بقاء الأفراد والعائلات .

- ٤ -

إذن ما هو تاريخ النوع الآن؟ إنه طريقة للنظر إلى الماضى توسع من رؤيتنا؛ إذ إن استخدام الرؤى الثاقبة ومناهج ما بعد الحداثة (على الرغم من عدم استخدام رفضها للمادة) يسهل استكشاف اللغة والأيديولوچية التى يستقر فيها السلوك. وتاريخ النوع يمزج بين العلاقات الاجتماعية المتطورة والتى تتخذ شكلاً عنصريًا بين الجنسين فى عبارات مجازية تفسيرية لكى ينتج لنا فهمًا أشمل وأغنى لكل من التجربة الذاتية التى تترجم الأيديولوچية إلى فعل والنتائج لصالح الجماعات والأمم والإمبراطوريات. ولإحراز هذا النوع من التاريخ نحتاج إلى حقائق عن النساء وعن الرجال بوصفهم رجالاً، نحن نحتاج إلى تاريخ للنساء مثلما نحتاج تاريخ الرجال.

وأخمن أن كاترين مورلاند لم تكن لتجد تاريخ النوع مملاً، وأقل كثيراً من أن يكون «عذابًا» . ولابد أن إخوتها كانوا سيكتشفون بالتأكيد أن للتاريخ اتساعًا فى القوة التفسيرية القادرة على تحدى التفسيرات التقليدية لبناء الوطن، والشئون السياسية الوطنية وتكوين الطبقة ، وبهذا المعنى، يرضى تمامًا إدوارد هاليت كار فى طلبه لتاريخ غير باروخى. أظن أنه كان سيسر بهذا .

ملاحظات وهوامش

(*) With thanks to Charles Budd (Pete) Forcey, who first introduced me to E.H. Carr.

(١) The quotation is from Jane Austen, Northanger Abbey (London: Penguin, 1995 [1818]), p. 97.

(٢) See for example, Olwen Hufton, The Prospect Before Her: A History of Women in Western Europe, Vol. I (London: HarperCollins, 1995), p. 1.

(٣) Austen, Northanger Abbey, p. 98.

(٤) Jonathan Haslam, The Vices of Integrity: E.H. Carr, 1892-1982 (London: Verso, 1999).

(٥) Edward Hallett Carr, What is History? (New York: Alfred Knopf, 1962), p. 26.

(٦) Ibid., p. 163.

(٧) Ibid.

(٨) Ibid., p. 77.

(٩) Ibid., p. 199.

(١٠) Ibid., pp. 96-7.

(١١) LXVIII Carl Bridenbaugh, 'The Great Mutation', American Historical Review, vol. (January, 1963), pp. 322-3.

(١٢) Herbert G. Gutman, The Black Family in Slavery and Freedom, 1750-192S (New York: Pantheon, 1976); Eugene D. Genovese, Roll, Jordan, Roll: The World the Slaves Made (New York: Vintage, 1976); Nathan Irvin Huggins, Black Odyssey: The Afro-American Ordeal in Slavery (New York: Pantheon, 1977).

(١٣) Michel Foucault, Discipline and Punish: The Birth of the Prison (New York: Pantheon, 1977).

(١٤) For access to this literature see Sonya Michel and Seth Koven, 'Womanly Duties: Maternalist Politics and the Origins of Welfare States in France, Germany, Great Britain, and the United States, 1880-1920', American Historical Review, vol. 95 (October, 1990), pp. 1076-108; and see Linda Gordon (ed.), Women, the State and Welfare (Madison, WI: University of Wisconsin Press, 1990); Robyn Muncy, Creating a Female Dominion in American Reform, 1890-1935 (New York: Oxford University Press, 1991); and Jane Lewis (ed.), Women's Welfare Women's Rights (London: Croom Helm, 1983).

(١٥) The most persuasive argument for subjectivity is in Joan Wallach Scott, Gender and the Politics of History (New York: Columbia University Press, 1988). For other facets of the debate see especially Victoria E. Bonnell and Lynn Hunt (eds), Beyond the Cultural Turn: New Directions in the Study of Society and Culture (Berkeley, CA: University of California Press, 1999); Bryan Palmer, Descent into Discourse: The Reification ofLanguage and the Writing of Social History (Philadelphia, PA: Temple University Press, 1990); Patrick Joyce, Visions of the People (Cambridge: Cambridge University Press, 1991).

(١٦) Carr, What is History?', p. 186.

(١٧) Ibid., p. 129.

(١٨) Anna dark, The Struggle for the Breeches: Gender and the Making of the British Working Class (Berkeley, CA: University of California Press, 1995); Francesca Bray, Technology and Gender: Fabrics of Power in Late Imperial China (Berkeley, CA: University of California Press, 1997).

(١٩) Carolyn Steedman, Landscape for a Good Woman: A Story of Two Lives (London: Virago, 1986).

(٢٠) Sally Alexander, Becoming a Woman: And Other Essays in 19th and 20th Century Feminist History (London: Virago, 1994); Catherine Hall, White, Male and Middle Class: Explorations in Feminism and History (New York: Routledge, 1988).

(٢١) Laura Engelstein, The Keys to Happiness, Sex and the Search for Modernity in fin de siecle Russia (Ithaca, NY : Cornell University Press, 1992); Kathleen M. Brown, Good Wives, Nasty Wenches, and Anxious Patriarchs: Gender, Race, and Power in Colonial Virginia (Chapel Hill, NC: Institute of Early American History and Culture, Williamsburg, VA/University of North Carolina Press, 1996).

(٢٢) Mary Poovey, Uneven Developments: The Ideological Work of Gender in Mid Victorian England (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1988).

(٢٣) Joy Parr, The Gender of Breadwinners: Women, Men, and Change in Two Industrial Towns, 1880-1950 (Toronto: University of Toronto Press, 1990); Jane Lewis (ed.), Labour and Love: Women's Experience of Home and Family, 1850-1940 (New York: Blackwell, 1986); Mary P. Ryan, Women in Public: Between Banners and Ballots, 1825-1880 (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1990); Linda Kerber, 'Separate Spheres, Female Worlds, Woman's Place: TheRhetoric of women's History,' Journal of American History, vol. 75 (1988), pp.9-39.

(٢٤) Earl Lewis, In Their Own Interests: Race, Class, and Power in Twentieth-Century Norfolk, Virginia (Berkeley, CA: University of California Press, 1991); Bonnie G. Smith, Ladies of the Leisure Class: The Bourgeoises of Northern France in the Nineteenth Century (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1981).

(٢٥) For access to the 1970s debate, see Wally Seccombe, 'Patriarchy Stabilized: The Construction of the Male Breadwinner Wage Norm in Nineteenth Century Britain', Social History, vol. 11 (1986), pp. 53-76.

(٢٦) Martha C. Howell, Women, Production, and Patriarchy in Late Medieval Cities (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1986); and her, The Marriay Exchange: Property, Social Place, and Gender in Cities of the Low Countries, 1300-1550 (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1998); Leonore Davidoff and Catherine Hall, Family Fortunes: Men and Women of the English Middle Class: 1780-1850 (London: Hutchinson, 1987); Dorothy Ko, Teachers of the Inner Chambers: Women and Culture in Seventeenth-Century China (Stanford, CA: Stanford University Press, 1994).

(٢٧) For example, see Kathleen Canning, The Man Transformed into a Maiden? Languages of Grievance and the Politics of Class in Germany, 1850-1915', International Labor and Working Class History, vol. 49 (Spring, 1996), pp. 47-72. On the potential political implications of changing gender subjectivities, see Mary Blewett, 'Deference and Defiance: Labor Politics and the Meanings of Masculinity in the Mid-Nineteenth Century New England Textile Industry', Gender and History, vol. 5 (Autumn, 1993), pp. 398-415.

(٢٨) Mary Ann Clawson, Constructing Brotherhood: Class, Gender, and Fratemalism (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1989).

(٢٩) Thomas Dublin, Women at Work: The Transformation of Work and Community in Lowell, Massachusetts, 1826-1860 (New York: Columbia University Press, 1975); Suzanne Lebsock, The Free Women of Petersburg: Status and Culture in a Southern Town, 1784-1860 (New York: W.W. Norton, 1984).

(٣٠) Mary H. Blewett, Men, Women, and Work: Class, Gender, and Protest in the New England Shoe Industry, 1780-1910 (Uibana: University of Illinois Press, 1988).

(٣١) Stephen Meyer, 'Work, Play, and Power: Masculine Culture on the Automotive Shop Floor, 1930-1960', in Roger Horowitz (ed.), Boys and Then Toys: Masculinity, Class, and Technology in America (New York: Routledge, 2001), pp. 13-32; Joshua Freeman, 'Hard Hats, Construction Workers, Manliness and the 1970 Pro-war Demonstrations', Journal of Social History, vol. 26 (1983), pp. 725-44; Sonya Rose, 'Respectable Men, Disorderly Others:, The Language of Gender and the Lancashire Weavers' Strike of 1878', Genda j and History, vol. 5 (1993), pp. 382-97.

(٣٢) For the use of ideas of masculinity to defend male workspaces, see especially Keith McClelland, 'Some Thoughts on Masculinity and the "Representative Artisan" in Britain, 1850-1915', Gender and History, vol. 1 (1989), pp. 164-77; and Ava Baron, 'Questions of Gender: Deskilling and Demasculinization in the US Printing Industry, 1830-1945', Gender and History, vol. 1 (1989), pp. 178-99. For the defence of female workspaces, see Judith Bennett, Ale, Beer and Brewsters in England: Women's Work in a Changing World, 1300-1600 (New York: Oxford University Press, 1996); Katherine Sheldon (ed.), Courtyards, Markets, City Streets: Urban Women in Africa (Boulder, CO: Westview Press, 1996).

(٣٣) Barbara Taylor, Eve and the New Jerusalem: Socialism and Feminism in the Nineteenth Century (New York: Pantheon, 1983); Elizabeth Faue, Community of Suffering and Struggle: Women, Men, and the Labor Movement in Minneapolis, 1915-1945 (Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 1991); Angela Woollacott, On Her Their Lives Depend: Munitions Workers in the Great War (Berkeley, CA: University of California Press, 1994).

(٢٤) Joe William Trotter, Black Milwaukee: the Making of an Industrial Proletariat, 1915-45 (Urbana, 1L: University of Illinois Press, 1985); Glenda Elizabeth Gilmore, Gender and Jim Crow: Women and the Politics of White Supremacy in North Carolina, 1896-1920 (Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 1996); Tera W. Hunter, To 'Joy my Freedom: Southern Black Women's Lives and Labors after the Civil War (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997).

(٢٥) Tessie P. Liu, The Weaver's Knot: the Contradictions of Class Struggle and Family Solidarity in Western France, 1750-1914 (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1994); Louise Tilly, Politics and Class in Milan, 1881-1901 (New York: Oxford University Press, 1992); Barbara Hanawalt, Of Good and Ill Repute: Gender and Social Control in Medieval England (New York: Oxford University Press, 1998); Merry E. Wiesner, Working Women in Renaissance Germany (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1986).

(٢٦) See especially Joan Landes, Women and the Public Sphere in the Age of the French Revolution (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1988); Olwen Hufton, Women and the Limits of Citizenship in the French Revolution (Toronto: University of Toronto Press, 1992); Joan Wallach Scott, Only Paradoxes to Offer (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997).

(٢٧) Ellen Ross, Love and Toil: Motherhood in Outcast London, 1870-1918 (New York: Oxford University Press, 1993); Anna Davin, Growing up Poor: Home, School, and Street in London, 1870-1914 (London: Rivers Oram Press, 1996); Hendrik Hartog, Man and Wife in America: A History (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2000).

(٢٨) Thomas Dublin, Transforming Women's Work: New England Lives in the Industrial Revolution (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1994); E. Patricia Tsurumi, Factory Girls: Women in the Thread Mills ofMeiji Japan (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1990); Emily Honig, Sisters and Strangers: Women in the Shanghai Cotton Mills, 1919-1949 (Stanford, CA: Stanford University Press, 1986); Leela Fernandez, Producing Workers: The Politics of Gender and Class in the Calcutta lute Mills (Philadelphia, PA: University of Pennsylvania Press, 1997).

(٣٩) Ulla Wikander, Alice Kessler-Harris and Jane Lewis, Protecting Women: Labor Legislation in Europe, Australia and the United States (Urbana, IL: University of Illinois Press, 1995).

(٤٠) Linda Kerber, No Constitutional Right to be Ladies: Women and the Obligations of Citizenship (New York: Hill and Wang, 1998); Alice Kessler-Harris, Out to Work: A History of Wage-Eaming Women in the United States (New York: OxfordUniversity Press, 1982).

(٤١) Susan Pedersen, Family, Dependence, and the Origins of the Welfare State: Britain and Prance, 1914-1945 (New York: Cambridge University Press, 1993); Alice Kessler-Harris, In Pursuit of Equity: Women, Men and the Quest for Economic Citizenship in Twentieth Century America (New York: Oxford University Press, 2001).

(٤٢) Partha Chatterjee, Nationalist Thought and the Colonial World: A Derivative Discourse (Minneapolis, MM: University of Minnesota Press, 1998); Spivak Gayatri Chakravorty, In Other Worlds: Essays in Cultural Politics (New York: Routledge, 1988).

(٤٣) Ann McClintock, Gender, Nations and Post Colonial Perspectives (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1997); Vron Ware, Beyond the Pale: White Women, Racism and History (London: Verso, 1992); Ida Blom, Karen Hagemann and Catherine Hall, Gendered Nations: Nationalisms and Gender Order in the Long Nineteenth Century (London: Berg, 2000).

(٤٤) For example, Peggy Pascoe, Relations of Rescue: The Search for Female Moral Authority in the American West, 1874-1939 (New York: Oxford University Press, 1990); Judith Walkowitz, Prostitution and Victorian Society: Women, Class and the State (New York: Cambridge University Press, 1980).

(٤٥) Ann Laura Stoler, 'Camal Knowledge and Imperial Power: Gender, Race, and Morality in Colonial Asia', in Joan Scott (ed.), Feminism and History (New York: Oxford University Press, 1996), p. 209, and Stoler, Race and the Education of Desire: Foucault's History of Sexuality and the Colonial Order of Things (Durham, NC: Duke University Press, 1995); Antoinette Burton, Burdens of History: British Feminists, Indian Women, and Imperial Culture, 1865-1915 (Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 1944).

(٤٦) Mrinalini Sinha, Colonial Masculinity: The 'Manly Englishman' and the 'Effeminate Bengali' in the Late Nineteenth Century (Manchester: Manchester University Press, 1995).

(٤٧) Ramon Gutierrez , When Jesus Came the Corn Mothers Went Away: Marriage, Sexuality and Power in New Mexico (Stanford, CA: Stanford University Press, 1991); George J. Sanchez, Becoming Mexican: Ethnicity, Culture and Identity in Chicano Los Angeles: 1900-1945 (New York: Oxford, 1993).

(٤٨) Brian Roberts, American Alchemy: the California Gold Rush and Middle-Class Culture (Chapel Hill, NC: University of North Carolina, 1999).

(٤٩) Annette Kolodny, The Land Before Her: Fantasy and Experience of the American Frontiers, 1630-1860 (Chapel Hill, NC: University of North Carolina, 1984).

(٧)

ما التاريخ الفكرى الآن ؟

أنابيل بريت

يصعب دائمًا على الإنسان أن يشرح عمله الذى يتكسب به عيشه ، والأكثر صعوبة أن يُطرح السؤال على هذا النحو القاطع، مع مثل هذا التوقع بالحصول على إجابة محددة، كما فى السؤال «ما التاريخ الفكرى الآن؟». وليس بوسعى أن آمل فى أن أكون ملمة بكل شىء، كما أن إجابتى سوف تعكس بالضرورة تخصصى واهتماماتى الخاصة. وسوف أحاول، على أية حال، أن أكون واضحة فى إجابتى على الأقل؛ وأبدأ بالقول إن السؤال فى الحقيقة يبدو لى سؤالين : أولهما ، «ما التاريخ الفكرى الآن؟» (فى مقابل آنذاك) ؛ والثانى، «ما التاريخ الفكرى الآن؟» (فى مقابل أى نوع آخر من التاريخ). هذان السؤالان ، كما سنرى، لايمكن فصل أحدهما عن الآخر؛ إذ تسبب تاريخ التاريخ الفكرى بحد ذاته على مدى السنوات العشرين الماضية، وهو الذى رؤى باعتباره إعادة تنشيط لميدان الدراسة ، فى طرح التساؤلات عن الحدود المميزة لهذا الميدان..

وبالفعل يمكن للمرء أن يسعد بتوضيح الفروق المميزة بين التاريخ الفكرى والأشكال الأخرى للتاريخ. وقد ذكر مؤرخ فكرى متميز للغاية، هو وليم بووسما **William J. Bouwasma** حديثًا أننا نفضل مصطلح «التاريخ الثقافى» على مصطلح «التاريخ الفكرى» حيث يشى المصطلح الأخير بوجود شىء عالٍ، هو «الفكر»، أو «النشاط الفكرى» يسمو فوق جوانب أدنى فى المهنة - وبذلك فإن له قيمة فائقة - ودراسته بحد ذاتها ممارسة فكرية مترفعة يقوم بها المفكرون الجادون. ويوضح أن

الفكر أو النشاط الفكرى متواجد فى عدة مستويات للحياة الفردية والاجتماعية بحيث يستحيل انتزاع تاريخ «فكرى» للأفكار من سياق تاريخ أوسع للثقافة[1]. والآن : أهو التاريخ الفكرى أم التاريخ الاجتماعى الفكرى ؟ - لقد تم طرح السؤال من قبل[2]؛ بيد أننى لست مقتنعة بأنه يجب على المرء أن يجيب بطمس هوية التاريخ الفكرى فى طيات أمواج التاريخ الاجتماعى الفكرى ، ولا بالإذعان (على الأقل ليس تمامًا) لصياغات مثل «التاريخ الفكرى الجديد»[3]. وإذا ما أخذنا التاريخ الفكرى كما هو، نقيًا خالصًا، ربما وجدنا مشكلة فيما يتعلق بالتصور السائد عنه، على الأقل بين المؤرخين الزملاء؛ فمن المألوف تمامًا ما يزعمه بعض الزملاء من أننا لاندرس سوى سلسلة محدودة من النصوص «الراقية»، وسخريتهم عندما يقولون لنا إنهم ، على خلافنا، ليسوا مهرة بما يكفى لأن يكتبوا تاريخ الفكر، ومن ثم فإنهم يقنعون بالقيام ببحوث أكثر تواضعًا . ولكننى أظن أنه يمكن دحض هذه الانتقادات مع الاستمرار فى الإصرار على الشخصية المتمايزة للتاريخ الفكرى، وهو ليس مثل بعض الكتابات الميتاتاريخية التى تتناول الفكر، ولكن باعتباره علمًا له اهتمامات متمايزة تخصُّه . لأنه كما آمل أن أوضح ، هناك معنى لا يمكن لتاريخ الفكر فيه أن يتجنب تقديرًا «فكريًا» - أو دعنا نَقُلْ، فلسفيًا - لهذه ؛ وهكذا يجب أن يكون التاريخ الفكرى بمعنى ما تاريخًا فكريًا. وسوف أحاول الدفاع عن هذه الفكرة فى النهاية.

ولنتناول ، فى الوقت ذاته ، أول سؤال من الأسئلة التى طرحتها- «ما التاريخ الفكرى الآن؟» ونبدأ بالنقطة القائلة إن التاريخ الفكرى قد قطع شوطًا طويلاً من الدراسة المنعزلة «للأفكار العظمى» لـ «للمفكرين العظماء» : أى كونه تاريخًا للفكر أو التفكير الإنسانى باعتباره شيئًا «متمايزًا عن» الفعل أو العمل الإنسانى[4]. هذا النوع من التاريخ يأخذ التفكير خارج نطاق الغائية للأفراد من البشر كما ولَّد تاريخًا للأفكار يميل نحو غائية خاصة بها . وقد اتسم هذا التاريخ بعظمة مخصوصة ، ولكن لم يكن واضحًا فى أى بُعد وفى أى وقت كان من المفروض أن توجد هذه الأفكار - ما لم يكن المرء غير خائف من أن يضع الوجود السرمدى لأصولها الأفلاطونية؛ وبناء على ذلك جاءت المزيد من المشكلات فى وضع قصة الأفكار هذه ثانية فى مكانها على خريطة

قصة الإنسان أو التاريخ الإنساني بشكل عام . فمن ناحية ، مالت غائية الأفكار إلى تدعيم مفهوم عن غائية التاريخ ذاته. ويمكننا أن نرى هذا بوضوح شديد في محاضرة كار السادسة عن «ما التاريخ؟» التي كان عنوانها «الأفق الآخذ في الاتساع The Widening Horizon . وإذ كان لديه عنوان للحديث عن التاريخ الفكرى حتى هذه النقطة، فإنه يخبرنا هنا – فى تحليق هيجلى جديد خارق للعادة – أن الشخصيات المحورية فى تاريخ الإنسان الحديث هم ديسقراطيس، وروسو، وهيجل ، وماركس وفرويد ، الذين يُنظر إليهم بوصفهم مجددين فى وعى العقل بالذات، ومن ثم فإنهم مجددون فى التاريخ[٥]. ولكن ، من ناحية أخرى، من غير الواضح ما إذا كان كار يريد أن يقول إن هؤلاء «المفكرين العظماء» حركوا التاريخ فعلاً ، أو ما إذا كانوا عرضاً من أعراض تاريخ يمضى فى حركته على أى حال. وهكذا يقال إن تاريخ الإنسان الحديث «يبدأ» مع ديسقراطيس، ولكن هيجل وماركس هما «المفكران الممثلان» للانتقال من القرن الثامن عشر إلى العالم الحديث.

وقد لعب كتاب كولينجوود R. Collingwood، الذى كان كار يحمل له مثل هذه المشاعر المختلطة فى محاضرته الأولى عن موضوع «ما التاريخ؟» دوراً مهماً، على الأقل فى داخل تراث التدوين التاريخى للناطقين بالإنجليزية، من حيث تطوير أسلوب مختلف لإدخال الفكر الإنسانى فى التاريخ الإنسانى. وإذ كان كولينجوود وريثاً لفلسفة هيجلية أخرى عن طريق التراث المثالى البريطانى ، الذى يعول على جرين T. H. Green ، وبرادلى F. H. Bradley، فقد اشتهر بإصراره على أن التاريخ كله تاريخ فكر، وبهذا يدحض أى تمايز مفترض بين تاريخ الفكر وتاريخ الأعمال[٦]. بالنسبة لكولينجوود ، لانستطيع أن نفهم أى فعل إنسانى أو إنتاج إنسانى بدون فهم الفكر المتضمن فيه، وهكذا لا يمكن أن نكتب أى تاريخ لايكون عملاً من أعمال التفسير ، وهذا ما نبه كار، بطبيعة الحال، لأنه بدا أنه يُميل ميزان التاريخ بأكثر مما يجب فى اتجاه التفسير ومن ثم باتجاه خسران ذلك التوازن البناء مع الحقائق، وهو ما افترض كار أنه كان جوهر التاريخ[٧]. ومن وجهة نظر التاريخ الفكرى ، على أية حال، علينا أن نلاحظ التأثير المضاد؛ بأن الفكر، أيضاً، يصير داخلاً فى الفعل والإنتاج وبالتالى فى الزمن التاريخى للفاعلين التاريخيين.

ومن ثم فإنه ليس علينا أن نفكر فى النشاط الفكرى باعتباره «أعلى» على نحو ما فوق بقية النشاط الإنسانى بالطريقة التى تعلو بها الرأس فوق الجسد. إن الفهم الأساسى للفكر على أنه داخل فى الفعل والإنتاج قد لازمنا وقتًا طويلاً . ومع هذا فإن بووسما على صواب لدرجة أن الطريقة التى نصور بها هذا التداخل – أى الطريقة كلها التى نفكر بها فى الفكر الإنسانى – قد لحق بها تغيُّر هائل على مدى العقود التى مرت منذ دخل كار فى جدل مع كولينجوود . وإذا ما تكلمنا بصورة مرسلة تماماً، فإننا قد نحدد مسارين رئيسيين لذلك التغير: أحدهما من خلال دراسة اللغة أو الخطاب وعلاقته بالفعل الإنسانى والقوة؛ والمسار الآخر من خلال مفهومنا المعقد بشكل متزايد عن الطرق المتعددة التى يقدم بها البشر عالمهم وأنفسهم لأنفسهم وللآخرين، والتى تستمد هذه التقديمات فيها معلوماتها التى توفرها من خلال الممارسة . وعلى الرغم من أن هذين المسارين قد جاءا أصلاً من تراث متنوع فى التدوين التاريخى، فإنهما ليسا مستقلين كل منهما عن الآخر ، كما سنرى . وقد قيض للأسئلة حول النصِّية خاصة أن تلعب دوراً مهمًا فى كل من هذين المسارين.

– ١ –

ولهذا دعونى أبدأ بالسؤال عن اللغة التى أخذت تقليدياً على أنها «تجسِّد» أو «تُعبِّر» عن الأفكار أو الظنون التى ترد على عقول المفكرين . هذا الاهتمام تمت دراسته فى أوائل الستينيات من القرن العشرين على أيدى مجموعة من الباحثين العاملين فى تاريخ الفكر السياسى، وصاروا يعرفون جماعة باسم «مدرسة كمبردج **Cambridge School**» ، يحققون فى العلاقة بين اللغة ، والفكر والقوة، والزمن . وثمة اتجاه استكشفه بصفة خاصة كوينتين سكينر **Quentin Skinner** ، استفاد من العمل الذى كان يجرى فى مجال النظرية اللغوية فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين على أيدى چون أوستين **John Austin** وچون سيرل **John Searl**[٨]. فقد جادل سيرل ووسع نطاقه فى كتابه **How to Do Things with Words**[٩]، وهو الجدل الذى طوره سيرل ووسع نطاقه فى كتاب **Speech Acts**[١٠]، بأن وظيفة الكلمات ليست

قاصرة على حدود القول عن كيفية كينونة الأشياء ، أى أنها ليست محدودة فى نطاق حالة افتراضية توضيحية (البعد الأسلوبى) ، كما أنها ليست بالتالى مجرد إكساب الكلمات معنى قاصراً على حدود تأسيس معنى افتراضى. ولكن الكلمات ، إذا ما تخطت مجرد قول الأشياء، يمكن استخدامها فى سياقات بعينها لعمل أشياء. أى أن الكلام هو بالفعل، أو يمكن أن يكون ، عملاً بحد ذاته ، وهكذا، علينا أن نعترف بأن وراء أى بُعد «أسلوبى» للكلمات ، يوجد بُعد «لا أسلوبى» وبُعد «بواسطة الأسلوب» . أمَّا البعد اللا أسلوبى فهو ما يقوم به أى متحدث حين يستخدم كلمات معينة محددة. أما البُعد «بواسطة الأسلوب» ، فهو ما يفعله المتحدث «من خلال » أو «بواسطة» استخدام كلمات معينة. وهكذا يتخطى الفعل بواسطة الأسلوب، أو يتجاوز ، النص . بيد أن الفعل اللا أسلوبى الذى عرَّفه سيرل وسكينر أيضًا بفكرة تعمد الكاتب كتابة كلمات معينة، أو قولها ، متضمنة داخل النص ذاته(١١). إنها «نقطة» الفعل (النص) من منظور الكاتب(١٢). *هذا النوع من التعمّد ، على ما يفترض سكينر ، يمكن استعادته فى القراءة* . وهو يتناقض مع القصد المفترض «نحو»، وهو القصد الذى يقف خارج النص باعتباره جزءًا من الصورة النفسية، والذى يمكن كذلك ألا يكون قابلاً للاستعادة .

إن التحديد أو الاستعادة لكلام بعينه باعتباره عملاً لا أسلوبيًا يعتمد على إدراك الموقف أو السياق الخاص لكلامه . ونحن لانستطيع أن نعرف سوى ما كان كاتب ما «يفعله» فى كتابة نص محدد إذا ما كنا نعرف ظروف ذلك الفعل. وكانت النتيجة منهجًا يجادل بأنه لكى نفهم النصوص التى يحمل كلامها أفعالاً ، فإننا نحتاج إلى فهم السياق التاريخى الذى قيلت فيه. وكما سأشرح بقدر أكبر من التفصيل فيما بعد ، فإن «السياق» يمكن أن يكون متعدد الأبعاد: موقف سياسى محدد، وسط اجتماعى أو ثقافى، سياق مؤسسى مثل قاعة محكمة. وعلى أية حال ، فإن ما يهمنا ، فى تحليلنا للحاضر ، هو السياق اللغوى «التاريخى» الذى يمكن أن يكون متضمنًا بطرق متنوعة فى أنماط أخرى من السياق ذكرتها – أى ما كان الآخرون يقولونه فى إطار الزمن والظروف التى حكمت ذلك القول. وفى خلفية هذه الفكرة ، بالإضافة إلى كتاب

أوستين وسيرل ، يأتى عمل ويتجنشتين ومفهومه فيما بعد، الذى تم التوسع فيه فى كتاب Philosophical Investigations ، «للعبة اللغة»[١٣] هذه هى فكرة أن اللغة يمكن أن تُرى على أنها لعبة محكومة بقواعد معينة وبشروط محددة . هذه القواعد تحدد ما يُحسب على أنه حركة لغوية صالحة وما هو غير ذلك. وبدون معرفة اللعبة وشروطها تكون اللغة أفعالاً لغوية خاصة عارية من المعنى تماماً (يمكن أن نتخيل عدم معرفة أى شىء عن الكركيت ومحاولة فهم تصرفات اللاعبين والمتفرجين) ولأننا لانستطيع إدراك البعد اللاأسلوبى فى نص من النصوص ، أو ندرك ماذا كان الكاتب «يقصد أن يفعل» من كتابة ذلك النص : وبعبارة أشد وضوحاً ماذا كان «المهم» فى النص . إن معناه الكامل يراوغنا .

وكما سيتضح الآن، يتمثل أحد الفروض الأساسية فى التاريخ الفكرى باعتباره تاريخاً للكلام داخل لغة ما (تُفهم على أنها لعبة لغة) فى أنه لم يعد ينظر إلى أية قطعة خاصة من اللغة بوصفها تعبيراً عن الفكر. لقد كان التاريخ الفكرى القديم باعتباره تاريخاً للأفكار يتضمن مغزى أن الفكرة مستقلة عن الكلمات التى تعبّر عنها، لدرجة أنه يمكن التعبير عنها بكلمات أخرى، أى فى كتاب آخر . فقد جعل علاقة الفكرة باللغة والكتاب علاقة ممكنة . والتاريخ الفكرى باعتباره تاريخ اللغة المستخدمة يرى بدلاً من ذلك أن استخدام اللغة مكون للفكر ؛ ذلك لأن استخدام الكلمات بطريقة خاصة داخل أفق لغوى خاص يعنى بالضبط أن «تفكر» . ليس هناك فكر خلف الكلمات ، أى الكلمات التى يمكن أن يكون لها تاريخها الخاص المستقل عن النشاط المحدد تاريخياً لمن يستخدمون اللغة . وقد أدى هذا إلى أن بعض الباحثين رفضوا التاريخ الفكرى ليس فقط بمعنى تاريخ الأفكار، وإنما حتى بمعنى تاريخ المفاهيم ، وهو ما يعرف بالألمانية باسم Begriffsges chichte[١٤]. إن كيفية فهم شخص ما لشىء ما تتمثل فى الاتصالات والحركات اللغوية التى يفعلها الشخص والشىء ، ولاشىء أكثر من ذلك. فلا يوجد «مفهوم» يتخطى اللغة Supra-linguistic متاحاً فى بعد تجريدى ما يجذب انتباه المؤرخ .

وهكذا فثمة عنصر أساسى فى التاريخ الفكرى الذى تتم ممارسته بهذه الطريقة سيكون استعادة «طرق الكلام» فى الماضى، وهو شرط مُسبق لتشخيص مثل هذه الحركات اللغوية. وربما تكون فكرة التاريخ الفكرى باعتباره استعادة ألعاب لغوية محددة - وبعبارة أخرى، السياق الاستطرادى - أكثر ارتباطًا بعمل بوكوك **J.G.A. Pocock** ، على الرغم من أن الالتزام مشترك بين بوكوك وسكينر(١٥). وعندما يتحدث مؤرخو الفكر عن «اللغة» بهذه الطريقة ، فإنهم لايشيرون فى الأساس إلى اللغات الطبيعية - الفرنسية، الإنجليزية، اللاتينية وهلم جرا - على الرغم من أن وجود لغات طبيعية مختلفة أمر مهم بلاشك، كما هو الحال فى تاريخ ممارسة الترجمة. ولكن ما يهمهم هى الطرق المختلفة للكلام أو نماذج الخطاب وهى ما يمكن أن نسميه الأساليب أو البلاغة، داخل اللغات الطبيعية. وعلى الرغم من أن سكينر وبوكوك عملا أساسًا على لغات الفكر السياسى، فإن المفهوم يمكن مده إلى أشكال الخطاب فى مجالات أخرى: مثل، العلم الطبيعى أو اللاهوت . إننا نعيد بناء هذه الأساليب فى الماضى من مجموعات من النصوص تعتمد كلها على نفس المعادلات والأمور القياسية المألوفة ؛ التى تشترك فى الأجرومية ذاتها، والمفردات ، والبلاغة. وبهذه الطريقة قد نعرِّف «لغة الحقوق الطبيعية»، «ولغة العلم الأرسطى» وهلم جرا(١٦) . وعلى الرغم من أن هذه المقاربة تهتم أساسًا بالنصوص، فإنها لاتستبعد مفردات مرئية معينة ، ويمكن التعامل مع أيقونوجرافية شكل بعينه، مثل العدالة، أو الحظ، على أنها جزء من سلسلة إحالات من المصطلح فى داخل لغة معينة أو خطاب خاص؛ وعلى العكس، يمكن استخدام النصوص لتوضيح الأيقونوجرافيا(١٧).

واللغات والخطابات المفهومة بهذه الطريقة ليست محدودة بحدود إنتاج النخبة ، أى أنها ليست «نصوص عظيمة» قليلة . إذ إن النصوص العظيمة مكتوبة فى أساليب أو ببلاغة يمكن أن تكون مشتركة مع نصوص كثيرة ليست على هذا القدر من العظمة وتتنوع مصادرها تمامًا: مثل كتيبات المناسبات والروايات الرخيصة، والصحف ؛ وكلها غلال تطحنها طاحونة مؤرخ التاريخ الفكرى. لأنه على الرغم من أن «النصوص العظيمة» قد تبهر المرء وستظل مبهرة على الدوام، فإنها لاتخترع اللغات التى تتحدث

بها (على الرغم من أنها قد تحركها إلى الأمام أو تفسدها على نحو ما) ، ومن ثم فإن إضفاء المعنى على ما تتعلق به هذه النصوص لايمكن أبداً أن يكون قاصراً على دراستها وحدها . ذلك لأن إعادة بناء تلك اللغات يُدخل مؤرخى التاريخ الفكرى فى مناطق أخرى من التاريخ ، السياسى، والاجتماعى، أو الثقافى تشكل الوسط أو السياق الذى كانت هذه اللغة تنتشر داخله. وربما يحتاج المؤرخون أيضًا - اعتماداً على بؤرة اهتمامهم - إلى تحقيق السياق الأكثر دقة لحادث بعينه أو بسلسلة من النصوص. وهكذا، قد يحاول مؤرخ متخصص فى التاريخ الطبيعى الحديث أن يضع الخطاب الفلسفى أوائل العصر الحديث عن الطبيعة فى سياق العلاقة مع الثقافات المتعلقة بخزائن جمع النفائس وحب الاستطلاع وتنسيق الحدائق، وعروض البلاط التى عرفها مطلع العصر الحديث، أما مؤرخ الفكر السياسى فسوف يحاول أن يستعيد الموقف السياسى السائد فى زمن نص معين .

إن التناول الذى يعتمد على السياق لفهم الإنتاج الفكرى لايضع أية علاقة بسيطة ذات اتجاه واحد بين خطاب محدد ووسط محدد، ولابين نص بعينه وسياقه الذى يرتبط بمناسبة بعينها. ولكى نأخذ مثالاً عن النمط الأول، كنت على ألفة به من دراساتى الخاصة: فلابد أن تُفهم اللغة اللاتينية الاصطناعية للمدرسيين على أنها تطورت واستمرت داخل السياق المؤسس الخاص لجامعات العصور الوسطى وتكوينها. وهذه اللغة اللاتينية ليست أداة محايدة للبحث الفكرى، تنطوى فى داخلها على التزام بفهم (أرسطى) محدد للمعرفة والحقيقة . هذا الالتزام بحد ذاته مرتبط بمطالب العلوم الأكاديمية ، داخل بُنى تم تأسيسها حديثًا للتعليم والتدريس ، بكتب علمية أو نظرية جديرة بالثقة . وهكذا فإن الشكل المدرسى - الأرسطى، والمحتوى المدرسى- الأرسطى - ما كان يقال واللغة التى قيل بها - تطورا سوياً داخل سياق من الممارسات الرسمية للجامعات ، إذ إن اللغة تصير لغة فنية باطراد كلما تم تهذيب النظرية. وعندما صارت هذه اللغة فنية بشكل متزايد، صارت أيضًا غير مفهومة بشكل متزايد بالنسبة للغرباء وصارت بمثابة السياج الحصرى والممارسة المقصورة على مجموعة من الباحثين والأساتذة ورجال الكنيسة ، أى علامة على المكانة وعلى الحدود التى تعيش بداخلها جماعة فكرية[١٨].

وبالعلامة ذاتها ، لم يكن الدفاع عن هذه الحدود عندما تعرضت للتساؤل من جانب الإنسانيين والعلم الجديد، مجرد مسألة لغة . فمن بين أشياء أخرى كانت مسألة هوية مهنية، وهيبة اجتماعية ، ومال[١٩].

ويجب فهم العلاقة بين نصوص معينة والسياقات المعينة بوصفها علاقة مركبة وحاسمة متبادلة فيما بين النصوص والسياقات على السواء. ولا يكون أى عنصر مستقبلى محدوداً بحدود الأفق المشترك للتوقعات الكامنة فى لغة بعينها؛ لا فيما يمكنه فهمه فقط، وإنما أيضًا فيما يمكن له تبريره أو إضفاء المشروعية عليه. وبسبب الرابطة بين الخطاب العام والفعل العام ، فإن العنصر الذى يقترح مساراً تجديدياً للفعل سوف يحتاج بالضرورة أيضًا إلى الدخول فى واحدة من عدة استراتيجيات لغوية ممكنة (أكثر شيوعًا تحاول إعادة وصف الفعل المقترح داخل المصطلحات المعيارية فى الخطاب السائد)[٢٠]. وهكذا، فى هذه المواقف أيضًا تشكل اللغة الفعل اللغوى الخارق حتى عندما يكون العكس صحيحاً أيضًا. إن الحدود بين اللغة والفعل، والاستطرادى واللااستطرادى ، هى حدود محل «تفاوض » دائماً.

سأعود إلى استراتيجيات التفاوض (السيطرة) هذه . وفى الوقت ذاته، أريد التركيز على موضوع تمت إثارته حول هذه المنهجية مع الإصرار على الأهمية المركزية لشكل مستخدم اللغة فى استرداد معنى أفعال استخدام اللغة ، أى النصوص. ونذكر أن الحركة تمثلت أصلاً فى الابتعاد بالتاريخ الفكرى عن غائية الأفكار الكبرى بإدخالها فى غائية الأفراد المتحدثين والكُتاب. إذ تفترض وجود شخص يستخدم الكلمات بالفعل – تذكر عنوان أوستن **How to Do Things with Words?** كما لو كانت الكلمات الأدوات التى يستخدمها الفاعل ، ومن ثم فهو شخص خارج نطاق اللغة بلا تكوين لغوى. وعلى أية حال، واجهت فكرة الأهمية المركزية للكاتب والمتحدث ، وكذلك فكرة أن الكلمات يمكن أن تُستخدم حسب قصد الكاتب، تحديات كبيرة من ناحية القارة الأوربية (خاصة فرنسا وألمانيا) فى خضم التحديات العديدة التى عُرفت عموماً باسم «المنعطف اللغوى».

وفى الأساس، فإن المقدمة المنطقية الأساسية فى هذا «المنعطف» هى أن اللغة لاتعكس حقيقة مستقلة أو عالمًا مستقلاً ، ولكنها بدلاً من ذلك تشكل تلك الحقيقة أو العالم. وعلى الرغم من أن هذا المفهوم مرتبط عادة بالبنيوية الوافدة من قارة أوربا ولغويات ما بعد البنيوية[٢١]، فمن المهم أنه متضمن أيضًا فى مفهوم ويتشنجتين Wittgenstein عن لعبة اللغة ، مثلما يوحى تشبيهه لغتنا بمدينة - أى أنها شىء نعيش فيه[٢٢] - ويعنى الدين الفكرى أن المنهجية فى اللغات والخطابات يمكن النظر إليها فى حد ذاتها بوصفها جزءًا من «المنعطف اللغوى»[٢٣] ويحدث التشعب مادامت هذه المنهجية ترغب فى أن ترى اللغة (إلى حد ما على الأقل) على أنها مورد للمتحدث ، شىء تحت تصرفه . والصيغ الأكثر تطرفًا (فقد كانت هذه هى الكلمة) للقوة التكوينية للغة سوف تجادل بأن اللغة لا يمكن رؤيتها بوصفها أداة نملكها بأى معنى ، شىء نقف وراءه ويمكن أن نستخدمه للإشارة إلى جوانب من العالم أو للعمل فى ذلك العالم. وتأويلات هانز- چورچ جدامر Hans- Georg Gadamer عادة ما يتم استحضارها فى تطور هذه النقطة . وقد اقترح جدامر (متأثرًا فى النهاية بهيديجر) أن اللغة ليست شيئًا نستخدمه وإنما هى شكل من أشكال الحياة أو الأفق العالمى. وبدلاً من أن تكون اللغة تحت تصرفنا ، فإن اللغة «وراءنا» ، تعمل وتشكل المعانى على نحو مستقل عنا، خارج سيطرتنا وتسيطر علينا، ولذلك فإننا نحن أنفسنا منطوقون بواسطة اللغة أكثر من كوننا ناطقين بها[٢٤].

وثمة تحدٍ آخر لقوة «مستخدم» اللغة يأتى من عمل ميشيل فوكو. فبالنسبة لفوكو ، تاريخ الأفكار ليس مسألة العناصر الفكرية التى تستجيب لحوادث فكرية أو اجتماعية ، أو سياسية خاصة، وإنما ما نحتاج إليه لكى نفهم تاريخ الأفكار أن نفهم سلسلة من كتل الخطاب، والحديث، لها قواعدها الخاصة بها فى التشكيل وهى تحسم بنفسها ما يجب الحديث عنه ومن الذى يمكن أن يقوم بالكلام ، حسبما حكى فوكو عن نفسه:

«كان هدفى من The Order of things أن أحلل العناقيد اللفظية على اعتبار أنها طبقات استطرادية تقع خارج نطاق الفئات المألوفة للكتاب، والعمل، أو المؤلف ... أردت أن أحسم .. الشروط الوظيفية لممارسات استطرادية بعينها»[٢٥].

وفى هذا لا يكون العنصر – الكاتب مركزيًا. وعندما نحلل قطعة من اللغة فإننا نحللها فى عزلتها باعتبارها كلامًا، عنصرًا فى الخطاب، بدون الإشارة إلى قصد المؤلف :

«باختصار إذا كانت هناك أشياء قيلت – وهذه الأشياء وحدها – فلا يجب علينا أن نبحث عن السبب المباشر فيها؛ فى الأشياء التى تقال هناك أو فى الرجال الذين قالوها ، وإنما فى النظام الاستطرادى وفى الإمكانيات والاستحالات للكلام الذى يقدمه»(٢٦).

وقوة الكاتب مفقودة فى بناء الخطاب الذى تشكل كلماته جزءًا والذى يعمل فيه حتمًا ما دام كان قادرًا على الخطاب حول شيء فى المحل الأول. وبالفعل يصبح التأليف أو السلطة بدلاً من ذلك وظيفة الخطاب نفسه.

وقد يواجه المرء إغراء التفكير فى أن شيئًا من هذه النتيجة كان دائمًا مقترحًا بالفعل حتى داخل منهجية اللغات بإصرارها على أهمية السياق اللغوى، ذلك أنه إذا كانت الكلمات لا تعطى معنى إلا عندما يوجد سياق محدد ، فإنه يبدو إذن كأن السياق، مثله مثل الكاتب بسواء، عنصر من عناصر المعانى. وعلاوة على ذلك، يبدو أيضًا كما لو أن الكلمات فى السياق يمكن أن تصنع هذا المعنى – يمكن أن تفعل أشياء – رغم أنف كاتبها؛ أى أن ما نجح كاتب معين فى عمله فعلاً بكلام محدد أو نص بعينه، ربما جاء مختلفًا كثيرًا عما قصده بالكلام أو الكتابة(٢٧). ولكن إذا كانت هذه القوة اللاأسلوبية تنتمى إلى النص أكثر من الكاتب، فإن دور الكاتب (حتى فى الحالات التى يكون فيها الفعل اللا أسلوبى والقوة اللا أسلوبية متوافقين بالفعل) مُهدد حينئذ بأن يصير محاذيًا للنص بصورة خالصة(٢٨). وباختصار تبدو «همهمة الاختلاف» الفوكوية بارزة فى كل من ألعاب اللغة ونظم الاستطراد واستعادة اللغة، وأركيولوچيا الخطاب، بقدر ما تجمعها الملامح المشتركة(٢٩)، تبدو «همهمة الاختلاف» الفوكوية بارزة فى كل منهما : «فماذا يهم من هو المتكلم؟» .

إن الآركيولوجيا الفوكوية «تقتل» العنصر- الكاتب ومن ثم فإنها تقتل ذلك الشكل من التاريخ الفكرى الذى يعتمد على مفهوم القوة التاريخية الفردية. بيد أنها ليست معادية للتاريخ، بمعنى أنها ما تزال ترى هذه الكتل فى الخطاب أو «نظم الحقيقة» على أنها موضوعة ومستقرة فى المكان والزمان . إن الأمر ببساطة هو أن الحقيقة ذاتها لها تاريخ. وعلى أية حال، ثمة شكل ثان لإزاحة الموضوع ، ارتبط بمصطلح «التفكيكية» يهدد بالفعل (على الأقل فى التنوع الجذرى) بإنكار أى نوع من الحسم التاريخى للمعنى. وتنطوى التفكيكية أولاً على أن المؤلف والقصد التأليفى لايحسمان معنى النص. إذ إن المؤلف بلا قوة تجعله يسيطر على «اللعب الحر لمن يعبِّر عن المعنى» ، فائض التعبير المنتج بواسطة العلامات . ومن هنا، فبينما كان أوستين قد تعرف على المواقف الظرفية التى تفتقد فيها الكلمات علامتها - ويفشل المتلقى فى تحقيق «الفهم» - رد چاك دريدا بأن مثل هذه «اللاتناسبيات» هى فى الحقيقة شرط الكتابة العادى[٣١]. والكتابة بطبيعتها تتجاوز النص «دائمًا» ، ومن ثم فإن محاولة تثبيت المعنى بالإحالة إلى النص محكوم عليها بالفشل.

ومن زاوية أخرى لكنها متصلة بالموضوع، ركزت الحركة التفكيكية أيضًا على العلاقة بين النصوص ذاتها. فقد حلت محل رؤية ما يفترض أنها نصوص فردية لمن يفترض أنهم مؤلفون فرديون، صورة كل نص تصوره على أنه تعرض لغزو من نصوص أخرى بحيث صارت وحدته الداخلية باعتبارها بناءً مستقلاً ذاتيًا للمعنى توفيقية تمامًا. وتسمى هذه المشاركة المتبادلة بين النصوص «التداخل النصّى»[٣٢]. وهذا التداخل النصِّى ليس محدوداً ببساطة فى الأشياء التى يتم تعريفها حتى الآن باعتبارها «نصوص » أو «نصوص عظيمة» ، وإنما هو موجود فى أية كتابة أيًا كانت ولايوجد شىء فى الأشكال الراديكالية للتفكيك، يقول إن التداخل النصّى يجب أن يكون محصوراً فى نطاق أى لحظة تاريخية مخصوصة،. وهو ما يهدد بالتالى أى نوع من أنواع التاريخ الفكرى الذى يعتمد على مفهوم السلسلة (سلسلة الأحداث). وهناك بُعد آخر لكشف هذا الغزو المتبادل للنصوص، على أية حال. ذلك لأن جزءًا من شروط التداخل النصّى ، وجزءًا من إزاحة المؤلف باعتباره صانع المعنى، يتمثلان فى التركيز

على دور «القارئ» في تحديد معنى النصوص. إذ إن القراءة لايُنظر إليها بوصفها استيعابًا أو استهلاكًا سلبيًا للمعنى بل وهي فعل إبداعي لعمل المعنى أو لإنتاجه[٣٣]. والواقع إن القراءة فعل كتابة آخر؛ أي أننا ونحن نقرأ ، نكتب. مرة أخرى، في *الأشكال الجذرية للتفكيك*، لا تكون هذه الكتابة الإبداعية محدودة في حدود لحظة تاريخية لأن «نحن» نقوم بعملها في المكان الحالي واللحظة الراهنة.

ويمكن للتاريخ الفكري كما يمارسه العالم الناطق بالإنجليزية أن يستجيب ، وقد استجاب لهذه التحديات المختلفة التي طرحها «المنعطف اللغوي» بطرق مختلفة[٣٤]. أولا، على الرغم من أخذ بعض مصطلحات «الخطاب» و«الأركيولوچي» ، بقي ممارسو التاريخ الفكري على مقاومتهم للفكرة الفوكوية اليانعة عن «المعرفة» ، التي يُنظر إليها بوصفها كتلة صماء لا يمكنها تفسير التغير الاستطرادي – نفس موضوع التاريخ الفكري – سوى بمصطلحات «الانقطاع» أو عدم الاستمرارية[٣٥]. والأصح أن يُنظر إلى الماضي الاستطرادي على اعتبار أنه يتضمن في أية لحظة تاريخية بعينها كثرة من اللغات، أو الأساليب البلاغية «التي تواجه كل منها الأخرى، وتنافسها، وتتفاعل معها»[٣٦]. ويمكن ربط هذه اللغات بمجموعات محددة بهويات اجتماعية ومهنية محددة ، وهذه المجموعات ربما تكون بالتالي لها استثمار أو مصلحة في استمرارها، وفي الدفاع عنها أو محاولة جعلها لغات سائدة . بيد أن مثل هذه المجموعات نادراً ما كانت معزولة بالقدر الذي لا يجعلها تتصل بالمرَّة كل منها بلغات الأخرى؛ فقد كان بإمكانهم أن يقرءوا كتب بعضهم البعض ويناقشوها ، وقد قاموا بهذا كبداية . وقد لعب الحراك الجغرافي، والاجتماعي، والمهني جميعًا دوره في هذا الاختلاط . ولكن وراء الاختلاط الفكري للكتاب يوجد اختلاطه الذاتي ؛ فالكلمات لاتحد نفسها داخل ألعاب لغة بعينها: إذ إن الكلمات تسافر حاملة حقائبها العامرة بالمعاني معها، لتهدم إنغلاق ألعاب اللغة ومن ثم انغلاق السياق اللغوي.

وإذا ما تم الاعتراف بعدم وجود الانغلاق على هذا النحو، يعقب ذلك أولاً ، أننا يمكن أن نتعرف على من يمنح المعنى في نطاق معين، وتستخدم في الوقت ذاته، أساليب تفكيكية معينة في *القراءة* ، *دون التخلي عن فكرة الحدود التاريخية* المؤثرة على

إمكانيات المعنى. هذه القيود سوف توضع بواسطة إدراك تقاليد اللغات التاريخية سوياً مع فكرة القصد المرتبطة بها- سواء كان القصد الذى قد ننسبه إلى المؤلف بصورة مقبولة ، أو القصد الكامن فى العمل نفسه[٣٧]. وفى الممارسة سوف يتحرك المؤرخ القهقرى وإلى الأمام بين معانى الكلمات ومغزاها، أى المكان الذى يحتله النص فى وسط تقليدى ، والمقاصد التى ربما كان يقصدها المؤلف فى كتابة النص، للتفسير أو «إضفاء المعنى» وهو ما يكون بالضرورة قابلاً للتمدد وإبداعياً (أو «شاعرياً») ولكنها ليست من مرسى تاريخى[٣٨]. ويلى ذلك أيضاً، ثانياً، أن استخدام أداة التعريف ، كما فى «الـ» سياق إفراط فى التبسيط وإفراط فى الحسم: ربما تكون هناك كثرة من السياقات لأى نص واحد، وهذه السياقات ربما تتطابق هى نفسها أو تكون متصلة ببعضها البعض بطرق معينة . وعلاوة على ذلك ، فإن السياق بتعريفه شىء مشترك مع متحدثين آخرين - يتصادف فى هذه المناسبة أن يكونوا السامعين أو القراء. وربما يحاول المتحدث أو منتج النص بطرق متعددة أن يتحكم فى السياق الذى يخرج كلامه فى إطاره أو أن يحتكر تحديد ما هو «خارج السياق»، بيد أنه لا توجد طريقة مؤكدة يمكن أن يكون هناك قراء (وقراءات) معينة متضمنة فى طياتها، ويمكن استبعاد قراء (وقراءات) معينة - حتى لو كان منتجو النصوص قد يلجأون كثيراً إلى السيف لمؤازرة قراءات بعينها واستبعاد قراءات أخرى. إن عمومية اللغة تتحدى مصادقتها الكاملة على مقاصد أى عنصر فردى.

ومن ثم يمكن للمؤرخين فى مجال التاريخ الفكرى أن يأخذوا معهم، ويرحبوا ، فعلاً، بإيجابية بمفهوم التداخل النصّى داخل فهم واسع للتاريخ الفكرى بوصفه تاريخ اللغة أو الخطاب. وبالقدر ذاته، رحب كثيرون بحذف التمييز الحاد بين إنتاج المعنى واستهلاكه ، ودراسة نشر المعنى من خلال استراتيجيات التفسير عبر استراتيجيات التفسير المختلفة من جانب قراء مختلفين يعرفون المفردات المختلفة التى يفسرون بها النص ويصادقون على المعنى. وفى الواقع فإنه من خلال التأكيد على الكثرة، وعدم الثبات ، واختلاط النص ، فى شكله المكتوب والمقروء على السواء ، ربما يهدف مؤرخو الفكر إلى أن يحفظوا للمؤلف الفرد، الذى يعمل من داخل شبكته اللغوية المعقدة

«مساحة ما للمناورة» ؛ مساحة استطرادية يتدخل فيها وربما يغير مسار المحادثة : وبهذا يعيد إحياء الغائية فى العناصر الفردية غير المحدودة داخل نطاق المجال الاستطرادى ويستطيعون «فعل» أشياء بالكلمات ، بدلاً من أن تكون مجرد وظيفة من وظائفها(٢٩).

إن الهدف هناك : ولكنه أيضًا فى اعتقادى يمثل تحديًا مستمرًا ، كما يشهد كلامى «على هذا النحو» . والمشكلة بالضبط هى كيف يمكن لكاتب أن يفعل شيئًا من داخل خطاب دون أن ينغمس داخل الخطاب من ناحية، ودون زحزحة المؤلف إلى حقيقة استطرادية فائقة ومختلفة من ناحية أخرى ؛ بسبب منها يصير أى ارتباط بالنص مسألة تأمل نفسى، أو حسم اجتماعى، أو ما هو أسوأ من ذلك (!) وبقدر ما يبقى هذا الموضوع بلا حل، فإن هناك (فى رأيى) المزيد مما يمكن فعله لفهم آليات التفسير والشرح النصِّى ، ومن ثم فى ربط التاريخ الفكرى بأبعاد الحقيقة الإنسانية المفترضة فى التاريخ الاجتماعى، والاقتصادى والسياسى.

وقد تمثلت إحدى الطرق لتجنب هذه المشكلات الباقية – ولكنها أساسية – حول العلاقة بين المجالات الاستطرادية واللااستطرادية – بين النص والسياق، بين الكلمات والأفعال – فى مدٍّ مجال النصية إلى ما وراء ما بات يُعَدُّ تقليديًا «نصوصًا» لتغطى كافة أشكال النشاط الثقافى . ومن ثم، أريد الآن الانتقال إلى تناول هدفى الثانى عن تضمين الفكر فى الفعل والإنتاج، أى إلى ذلك الجانب من التاريخ الفكرى الذى يهتم بالتقديم وبالممارسات.

لم يكن التفكير فى الطرق التى كان الناس يفكرون بها محددًا بتأمل اللغات التى تحمل أبنيتهم للحقيقة. وهناك طريقة أخرى لتناول الموضوع، تدين بالكثير إلى المدرسة الفرنسية للتاريخ الاجتماعى فى منتصف القرن العشرين، تهتم بما قد نسميه بقدر من التساهل «العالم العقلى» للكائنات الإنسانية، فرديًا واجتماعيًا . والفكرة الأساسية مألوفة للغاية: كون أن العالم (الاجتماعى والطبيعى على السواء) الذى يسكنه الناس ليس هو العالم، مهما كان، وإنما هو العالم كما يقدم نفسه من خلال وساطة بناء

معرفى خاص . وأى وصف بمثل هذا الشمول لابد أن يكون غاية فى الغموض : إننى أقصد به أن يغطى ما وضع له لوسيان فيبفر **Lucien Febvre** فى الأصل مصطلح **outillage mental** أو «صندوق العدة» لبناء العالم، وبصورة أوسع مفهوم العقلية **mentali-té** الذى يمضى لكى يصير مركزياً فى التحليل الثقافى الاجتماعى بين مؤرخى مدرسة الحوليات **Annales** الفرنسيين وأولئك الذين تأثروا بهم(٤٠). وقد استخدم كلاً من صندوق العدة العقلية **autillage mentale** والعقلية **mentalité** ليس فقط لتغطية التجهيز اللغوى أو حتى الإطار الفكري أو المفهومى ، وإنما ليغطى أيضاً حالات الفهم والإدراك والعاطفة أو المشاعر(٤١)، وبالفعل لم يكن «التاريخ الاجتماعى للأفكار» بقدر ، ما ركّز على العقلية الجماعية بوصفها الخط القاعدى الثقافى ، ليركز على النصوص «العليا» لنخبة فكرية وإنما ركز على بنية المعتقدات الشعبية.

وفقًا لما يجادل به روجر شارتييه **Roger Chartier** ، فإنه على الرغم من رقة الصياغة الأصلية ، فقد مال «تاريخ العقليات» – الذى يعتمد على الأساليب الكمية فى التحليل التى ميزت مدرسة الحوليات فى التاريخ الاجتماعى – تجاه تفسير مختزل للنصوص مع فهم أحادى مكشوف للإطار المفاهيمى / الإدراكى لأى مجتمع معين أو أية جماعة اجتماعية خاصة(٤٢). والمؤرخون الأكثر حداثة فى مدرسة «الحوليات» ، مثل چاك لو جوف **Jacque Le Goff** وكارتييه نفسه، فضلوا أن يتحدثوا عن التخيل الاجتماعى **L'imaginaire Social** ، أو عن التصور الجمعى . وفى تناول كارتييه يكون التصوير مفهوماً أكثر مرونة ورقة يتضمن ثلاثة جوانب: التصوير الفكرى حيث تم بناء الحقيقة على أيدى مجموعات مختلفة، والممارسات التى تقدم بصورة رمزية أو تعرض المكانة أو الرتبة أو طريقة خاصة للكينونة فى العالم، والأشكال المؤسسة التى تكون فيها التجمعات الاجتماعية مستديمة فى شكل مرئى(٤٣). ومثل هذا المفهوم يتيح مساحة ليس فقط «للعالم العقلى» الأحادى، وإنما يتيحها أيضًا للآلية والعملية التنافسية التى بها تنتج المجموعات الاجتماعية المختلفة وتستهلك، وتنشر، وتوائم تصورات أو صوراً عن نفسها وعن الآخرين، وتحدد فى خضم العملية هوياتها الخاصة وهويات الآخرين.

ومصطلح «تصوير Representations» يؤدى بنا أخيرًا إلى التفكير فى نمط التحليل الأدبى والثقافى الذى ينضوى تحت اسم «النزعة التاريخية الجديدة» New Historicism أو شاعريات الثقافة. وكان عمل عالم الأنثروبولوچيا الثقافية كليفورد جيرتز Clifford Geertz وما يزال مؤثرًا إلى درجة كبيرة من حيث اقتراح أننا يجب أن نقرأ الممارسات الثقافية مثل النصوص على أنها «بناء رمزى يتم الحفاظ عليه بصورة جماعية» له معنى معين فى داخل نظام عمومى مشترك للدلالة. وجدل جيرتز بأن «ثقافة شعب ما مجموعة من النصوص التى هى فى حد ذاتها مجموعات»(٤٤)، فتح الباب أمام نمط جديد كامل من التاريخ الفكرى، وجلب الأشياء والممارسات التى كان يتم التغاضى عنها حتى ذلك الحين، أو توزع على نمط آخر من التاريخ فى مجال الاهتمام بالنصوص. وكان أشهر مثل قدمه جيرتز مصارعة الديكة البالينية، ولكن عامة المشاهدين ، والطقوس وشتى أنواع المباريات ، والأنشطة المسرحية الأقل وضوحًا، كلها تطرح نفسها فى هذا التحليل لـ «القراءة» . والنزعة التاريخية الجديدة، التى سارت على خطى جيرتز فى عمله (من بين مصادر الإلهام الأخرى)(٤٥) تمكنت بالتالى من أن تفتح الشخصية «الفنية» أو «التصويرية» ليس فقط لأعمال «الفن» (الذى أخذ على أنه الأدب والرسم وما إلى ذلك) وإنما للمزيد من الفعل والممارسات اليومية(٤٦). ومن ثم تمكنت من بناء قراءة للتداخل بين النصوص، للعلاقة بين النصوص، ذلك التداخل الذى كان حتى ذلك الحين يُظن أنه «مرتبط بالسياق»(٤٧). وثمة مثال جيد ربما يتمثل فى قراءة جوناثان ساودى Jonathan Sawday لممارسة عصر النهضة للتشريح فيما يتعلق بنص The Body Emblazoned (ضمن نصوص أخرى) الذى كان دراسة أعدها أحد رجال البلاط(٤٨). هذه القراءة للنصوص فى ضوء الثقافة التى تستكشف التداخل النصّى فى التصوير ، برهنت على أنها ميدان مثمر للبحث ، تجلب التاريخ الفكرى فى شكله الجديد ما بعد النظرية مع أنماط معينة من التاريخ الثقافى، والتاريخ الأدبى وكافة التواريخ التى ترى أنها تواريخ تصور المجتمع وتمثله . والأمر على هذا الحال بحيث إنه غالبًا ما يصعب القول أين ينتهى التاريخ الفكرى وأين تبدأ الأنماط الأخرى من الدراسة الثقافية.

ومع هذا ، وبسبب كل ما تحمله هذه الطريقة فى التفكير من حث وتحفيز ، عبَّر المؤرخون عن بعض التحفظات حول مد نطاق النصية. إذ إنها تخلق تأثيراً مشابهًا لتأثير «المنعطف اللغوى» فى نظرية اللغة ، أى سد إمكانية الوصول إلى مجال نصى إضافى. وكل من العالم والذات تم بناؤهما فى ضوء الرموز الثقافية (التى صيغت فى نصوص) وبذلك يصبح كل التاريخ قراءة فى النصوص المتداخلة[٤٩]. وقد حذر جيرتز نفسه من مخاطر «تحويل التحليل الثقافى إلى نوع من النزعة الجمالية الاجتماعية»[٥٠]، ويصر جلاغر **Gallagher** وجرينبلات **Grennblatt** بدورهما على أنه، بالرغم من أن «التصاوير ... تتوقف عن أن تكون ذات علاقة مستقرة من المسافة الرمزية التى تفصلها عن المادة ولاسيما من الأجساد البشرية »، فإن الوظائف والعواطف ، والمرض، وحياة الأجساد وموتها «لا يمكن أن نختزلها ببساطة فى هذه التصاوير»، ولكن كما يعلق جابرييل سبيجل **Gabrielle Spiegel** : «من الصعب اكتشاف مكونات مادية المجال المادى»[٥٢]. وليست النتيجة التى نخشاها هى مجرد خسارة أية تراتبية سببية أو تفسيرية، ولكن «معنى القوة الاجتماعية، والرجال والنساء الذين يناضلون مع احتمالات حياتهم وتعقيداتها فى ضوء المصائر التى يوزعها التاريخ عليهم ويحول العوالم التى يرثونها ويمررها إلى الأجيال المستقبلية»[٥٣]. وربما، بالتالى ، نكون قد وصلنا ببساطة مجدداً ، عن طريق مختلف ، إلى الحمل المركزى الذى لايمكن للتاريخ أن يتملص منه: قصة البشر ماديًا، أى قصة الحقيقة .

- ٢ -

لقد قدمت خطوطًا عريضة للغاية عن طريق الإجابة على أول أسئلتى الأولية، «ما التاريخ الفكرى الآن؟» وفى مصطلحات واسعة رأينا أن التاريخ الفكرى كما هو يضم كلاً من تاريخ الخطاب وتاريخ التمثيل أو التصوير، بدون أية حواجز ضرورية – وفى الواقع إمكانية التبادل المثمر بدلاً من ذلك – بينهما . ولكن فى ضوء هذا الالتفاف الطويل حول الطريق، أريد فى النهاية أن أتحول إلى السؤال الثانى من أسئلتى الأولية

«ما التاريخ الفكرى الآن؟» ما الشيء المتمايز فى التاريخ الفكرى، الذى يمنعه عن أن يكون ببساطة شكلاً من أشكال التاريخ الثقافى؟ لقد رأينا أن التاريخ الفكرى الحديث لايمكن أن ينفصل عن – ولا هو يريد ذلك – التاريخ الثقافى، وبالفعل عن التاريخ الاجتماعى والتاريخ السياسى ؛ لأنه فى كل أشكاله يقبل التداخل المتبادل للأبعاد المفاهيمية والمادية للكائن البشرى. ولكن من الممكن أن نجادل مع هذا بأن التاريخ الفكرى يحتفظ ببؤرته المتمايزة الخاصة. إذ إن ما يهتم به المؤرخون الفكريون ليس مجرد الطرق التى كان الناس يتكلمون بها ، أو تخيلهم المرئى ، وكيف كانت هذه متصلة بسياقها الاجتماعى والثقافى والسياسى أو بأبعاد أخرى فى تصويراتهم لأنفسهم. والتاريخ الفكرى يهتم أيضًا– وعلى نحو أساسى فى رأيى – بتلك الطرق التى يتم التحدث بها ؛ مثل الطرق التى كان الناس فى الماضى قد أضفوا عن طريقها معنى علي عالمهم: ومن ثم يجب أن يهتم بالتماسك الداخلى والمنطق فى بُنى المرجعية العقلية أو اللغات التى يدرسها . وأظن أن هنا، سيكون للنصوص، وخاصة «النصوص العظيمة»، باعتبارها أعقد الاستكشافات لأوجه القصور فى اللغة أو الإطار المفاهيمى فى زمن محدد، دائمًا فخر معين بمكان فيما وصفه دومينيك لا كابرا **Dominick la Capra** بأنه بحث حوارى بين الماضى والحاضر(٥٤). هذا هو البعد الفلسفى الصحيح لممارسة التاريخ الفكرى، خط الحدود الذى يشترك فيه مع الفلسفة أكثر من أى نوع آخر من التاريخ.

وخط الحدود هذا مع الفلسفة غير واضح مثل الخطوط الأخرى. وعلى أية حال، فإن هذه السيولة ليست بالضرورة فى اتجاه الفلسفة حسبما تُفهم تقليدياً؛ إذ إن مفهوم «التاريخ الفكرى» نفسه يخون شكل «الحكمة **Sophia**» وشهوات المعرفة باعتبارها تعطشًا إلى ما هو حقيقى بشكل خالد، وما هو مرغوب بشكل خالد. إن المجال الفكرى مجال بشرى، خلق تاريخى؛ إذ إن فهمه هو فهم للمواد التى صنع منها، اللغة والخيال اللذين ورثناهما .

وبهذا المعنى، أن تعمل التاريخ الثقافى يعنى بالضبط أن تعمل الفلسفة. وإذا كانت للفلسفة مهمة أخرى، فليست هى أن تكسب رؤية أفضل فى داخل الحقيقة، ولكن، بشكل يشبه الشعر، مهمتها أن توسع خيالنا ولغتنا وتمد نطاقهما ومن ثم تساعد على خلق عالم جديد نعيش فيه. وربما نضيف أن عمل التاريخ الفكرى يمكن أن يفهم فى حد ذاته مثل الشعر فى ذلك المعنى، لأن التاريخ الفكرى لايقوم بمجرد حلِّ ألغاز بنية ما ورثناه ولكن يمكن أيضًا أن يكشف عما فقدناه: طرق الكلام وطرق رؤية العالم ، التى كانت سائدة ذات مرة، والآن دخيلة (وربما) كانت حبلى بالإمكانيات .

ومن ثم فإننى لا أرغب فى أن أختم بأن أستبدل رؤية كار المتفائلة عمدًا عن اتساع أفق الوعى الراشد بصورة للمؤرخين الفكريين الذين يلتقطون فى حزن بقايا الكلام فى محاولة مؤلمة لإضفاء المعنى عليها كلها(٥٦). وبدلاً من ذلك ، نمنح أنفسنا الفرصة، بمحاولة حل غموض عوالم الماضى العقلية . لأن ننسج عالمنا الخاص.

ملاحظات وهوامش

(١) W.J. Bouwsma, The Waning of the Renaissance 1550-1640 (New Haven, CT, and London: Yale University Press, 2000), p. ix.

(٢) By Roger Chartier, in a wonderfully lucid and thoughtful overview of the problems involved. See R. Chartier, 'Intellectual History or Sociologica History? The French Trajectories', in D. LaCapra and S.L. Kaplan (eds). Modem European Intellectual History: Reappraisals and New Perspectives (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1982).

(٣) Cf. NJ. Christie, 'From Intellectual to Cultural History: The Comparative Catalyst', in D.R. Woolf (ed.), Intellectual History: New Perspectives (Lewiston; Queenston; Lampeter: Edwin Mellen, 1989), p. 82.

(٤) A point very familiar by now, thanks to the seminal work of Quentin Skinner. For its original incisive and sparkling formulation see Q.R.D. Skinner, 'Meaning and Understanding in the History of Ideas', History and Theory, vol. 8 (1969), pp. 393-408, reprinted in J. Tully (ed.), Meaning and Context: Quentin Skinner and His Critics (Cambridge: Polity Press, 1988); see alsoJ.A.W. Gunn, 'After Sabine, After Lovejoy: The Languages of Political Thought', in Woolf, Intellectual History.

(٥) E.H. Carr, What is History? (2nd edn) (London: Penguin, 1987), pp. 134-5.

(٦) For a good treatment of Collingwood within this tradition see D. Boucher, Texts in Context: Revisionist Methods for Studying the History of Ideas (The Hague: Martinus Nijhoff, 1985), pp. 39-71.

(٧) Carr, What is History?, pp. 21-7.

(٨) See, especially. Skinner, 'Meaning and Understanding', and Q.R.D. Skinner, 'Motives, Intentions and the Interpretation of Texts', New Literary History, vol. 3 (1972), pp. 393-408, reprinted in Tully, Meaning and Context.

J.L. Austin, How to Do Things with Words (2nd edn) (Oxford: Oxford University (٩)
Press, 1975).

J.R. Searle, Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language (Cambridge: (١٠)
Cambridge University Press, 1969).

In developing this focus on authorial intention as the condition of an illocutionary (١١)
act, Skinner deliberately departed from Austin, who had insisted on the successful 'uptake' of the act on the part of the recipient as a condition for the completion of an illocutionary act. For Skinner, a speaker or text producer can perform an illocutionary act whether or not that act was received as the speaker had intended. See Q.R.D. Skinner, 'A Reply to My Critics', in Tully, Meaning and Context, pp. 261-4.

I stress 'from the perspective of the author', as it is necessary to differentiate it (١٢)
from the 'point' that a text may have of itself: cf. Tully, Meaning and Context, p. 10. Skinner, 'A Reply', distinguishes between the illocutionary act, which must be an intentional act on the part of the author - the author's 'point' in writing - and the illocutionary force of a particular text - let us say its 'pointedness'. Skinner acknowledges here that illocutionary act and illocutionary force may not coincide; this will be important later on. See below, p. 121.

L. Wittgenstein, Philosophical Investigations (3rd edn) (English text only) (١٣)
(Oxford: Blackwell, 1968): the term is introduced at p. 5. See also the analogy, so suggestive for intellectual history, of our language as an ancient city, with additions from many periods (p. 8).

For a discussion of this issue seeJ.G.A. Pocock, 'Concepts and Discourses: A (١٤)
Difference in Culture? Comments on a Paper by Melvin Richter', in H. Lehmann and M. Richter (eds), The Meaning of Historical Terms and Concepts: New Studies in Begriffsgeschichte (Washington, DC: German Historical Institute, 1996), pp. 47-58, and M. Richter, 'Reconstructing the History of Political Languages: Pocock, Skinner and the Geschkhtliche Grundbegriffe', History and Theory, vol. 29 (1990), pp. 38-70.

For a clear statement of this sort of method see J.G.A. Pocock, 'The Concept of (١٥)
a Language and the Metier d'Historien: Some Considerations on Practice', in A.R.D. Pagden (ed.), The Languages of Political Theory in Early Modem Europe (Cambridge: Cambridge University Press, 1987).

(١٦) Pocock, in 'The Concept of a Language', lists: *the language of medieval scholastic, of Renaissance emblematic, of biblical exegesis, of common law,* of civil law, of classical republicanism, of commonwealth radicalism (acknowledging that the list is necessarily biased by his own studies).

(١٧) See, for example. Skinner's study of the Lorenzetti frescoes in the Palazzo Pubblico of Siena: Q.R.D. Skinner, 'Ambrogio Lorenzetti: The Artist as Political Philosopher', Proceedings of the British Academy, vol. 72 (1986), pp. 1-86.

(١٨) For these points see L. Giard, 'Du Latin medieval au pluriel des langues: Le tournant de la Renaissance', Histoire, epistemologie, langage, vol. 6 (1984), pp. 35-55, especially pp. 40-1.

(١٩) M. Biagioli, 'The Anthropology of Incommensurability', Studies in the History and Philosophy of Science, vol. 21 (1990), pp. 183-209, especially p. 203.

(٢٠) For an analysis of the relation of ideology to political action see Skinner, 'Motives, Intentions'; J. Tully, 'The Pen is a Mighty Sword: Quentin Skinner's Analysis of Polities', in Tully, Meaning and Context, pp.10-16, 22-5.

(٢١) E.g. in Spiegel, 'History, Historicism and the Social Logic of the Text in the Middle Ages', Speculum (1990), reprinted in K.Jenkins (ed.), The Postmodern History Reader (London: Routledge, 1997), pp. 180-283.

(٢٢) Cf. note 13 above; see also M. Jay, 'Should Intellectual History Take a Linguistic Turn? Reflections on the Habermas-Gadamer Debate', in LaCapra and Kaplan, Modem European Intellectual History, pp. 86-110, at pp. 87-8.

(٢٣) Skinner, 'A Reply', p. 276, points out that his own argument 'leaves the traditional figure of the author in extremely poor health'.

(٢٤) For a discussion of Gadamer's hermeneutics and its debt to Heidegger see Jay, 'Should Intellectual History Take a Linguistic Turn?'.

(٢٥) M. Foucault, 'What is an Author?', in D.F. Bouchard (ed.), Language, Counter Memory, Practice: Selected Essays and Interviews by Michel Foucault (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1977), pp. 113-38, at p. 113.

(٢٦) M. Foucault, L'archeologie du savoir (Paris: Gallimard, 1969), p. 70: 'bref, que s'il y a des choses dites - et celles-la seulement -, il ne faut pas en demande la raison immediate aux choses qui s'y trouvent dites ou aux hommes qui les ont dites, mais au systeme de la discursivite, aux possibilites et aux impossi bilites enonciatives qu'il menage'.

(٢٧) Cf, p. 116 above, and note 12 above, .

(٢٨) I mean 'paratext' in Gerard Genette's later sense of all the material which surrounds the text and affects how it is read (preface, titles, epigraphs, illustrations, notes, and so on). See G. Genette, Paratexts: Thresholds of Interpretation (trans. J.E. Lewin) (Cambridge: Cambridge University Press, 1997).

(٢٩) Cf. Pocock, 'The Concept of a Language', p. 25, who speaks of the 'historian archaeologist'.

(٣٠) Foucault, 'What is an Author?', p. 138.

(٣١) See Derrida's response to Austin: J. Derrida, 'Signature Event Context', in his Margins of Philosophy (trans. A. Bass) (Chicago, IL: University of Chicago Press; Brighton: Harvester, 1982), pp. 307-30.

(٣٢) For an introduction to the various definitions of intertextuality and the issues involved see M. Worton andJ. Still (eds), Intertextuality: Theories and Practices (Manchester: Manchester University Press, 1990).

(٣٣) In another context Michel de Certeau has analysed how consumption itself can be a form of production through strategies of appropriation and assimilation. See M. de Certeau, The Practice of Everyday Life (trans. S. Rendall) (Berkeley, CA; Los Angeles; London: University of California Press, 1984), pp. xi-xxiv.

(٣٤) For a thoughtful discussion of the possibilities for intellectual history 'after the linguistic turn' see J.E. Toews, 'Intellectual History After the Linguistic Turn: The Autonomy of Meaning and the Irreducibility of Experience', American Historical Review, vol. 92 (1987), pp. 879-907.

(٣٥) I. Maclean, in 'Foucault's Renaissance Episteme Reassessed: An Aristotelian Counterblast', Journal of the History of Ideas (1998), pp. 149-66, discusses how Foucault's idea of the Renaissance episteme is both misguidedly formulated and also, more profoundly, fails to take account of the resources available within Renaissance discourse for a reflexive awareness of their own modes of cognition.

(٣٦) Pocock, 'Concepts and Discourses', p. 47.

(٢٧) Umberto Eco has developed the idea of an intention of the work, intentio opens, in his secod Tanner lecture of 1990. See U. Eco, Interpretation and Overinterpretation (Cambridge: Cambridge University Press, 1992); especially p. 64: 'To recognise the intentio opens is to recognise a semiotic strategy. Sometimes the semiotic strategy is detectable on the grounds of established stylistic conventions ... How to prove a conjecture about the intentio opens7 The only way is to check it upon the text as a coherent whole.' Eco goes on to discuss the relations between this intentio operis and the intentio of both lector and auctor.

(٢٨) It seems to me that this is preferable to making a radical separation between 'meaning' in the sense of what the author meant, and 'meaning' in the sense of the signification of the text, leaving the first - the recovery of intention to the historian and the second to the literary critic or the philosopher, as argued, for example, in M.P. Thompson, 'Reception Theory and the Interpretation of Historical Meaning', History and Theory, vol. 32 (1993), pp. 228-72. For one thing, the intentionality or 'pointedness' of the text itself (see note 12 above) lies in between these two poles, mediating between them. For another, it then becomes quite unclear why someone interested in what the text means should have any concern for what the author may have meant. I suggest rather that the task of the intellectual historian is both historical and critical-philosophical (see further below, p. 127).

(٢٩) For this humanist commitment, see A.R.D. Pagden, 'Introduction', in his The Languages of Political Theory, p. 1.

(٤٠) See Chartier, 'Intellectual History or Sociocultural History?, pp. 18-32; R. Chartier, Cultural History: Between Practices and Representations (trans. L.G. Cochrane) (Cambridge: Polity Press in association with Blackwell, 1988), pp. 20-48; P. Burke, Varieties of Cultural History (Cambridge: Polity Press, 1997), pp. 162-82.

(٤١) As defined by Febvre, outillage mental includes the state of the language, its lexicon, its syntax, the scientific language and instruments, and also the 'sensitive supports of thought' represented by the system of perception (Chartier, 'Intellectual History or Sociocultural History?', p. 19); as defined by Mandrou, mentalite includes 'what is conceived and felt, the field of intelligence and of emotion (affectivite)' (ibid., p. 23).

Ibid., pp. 29-32. (٤٢)

Chartier, Cultural History, pp. 9-10. (٤٣)

C. Geertz, The Interpretation of Cultures (New York: Basic Books, 1973), p. 452. (٤٤)

For a helpful diagnosis of their own enterprise, and its origins and effects, by two (٤٥) of the leading 'new historicist' scholars, see C. Gallagher and S. Greenblatt, Practicing New Historicism (Chicago, Il: University of Chicago Press, 2000), pp. 1-19.

Cf. S. Greenblatt, Renaissance Self-Fashioning from More to Shakespeare (٤٦) (Chicago, Il: University of Chicago Press, 1988), pp. 4-5.

For a critical discussion of this intellectual move see Spiegel, 'History, (٤٧) Historicism', pp. 185-92.

J. Sawday, The Body Emblazoned: Dissection and the Human Body in (٤٨) Renaissance Culture (London: Routledge, 1995), pp. 196-212.

The conference laughed at the idea of 'pan-representationalism' - that the only (٤٩) true (and possible) object of historical study is representation - but one can see how the idea can take hold.

Geertz, The Interpretation of Cultures, p. 30. (٥٠)

Gallagher and Greenblatt, Practicing New Historicism, p. 15. (٥١)

Spiegel, 'History, Historicism', p. 192. ٥٢)

Ibid., p. 195. (٥٣)

For this dialogic aspect of intellectual history, and the continuing importance of (٥٤) the 'great texts' therein, see D. LaCapra, 'Rethinking Intellectual History and Reading Texts', in LaCapra and Kaplan, Modern European Intellectual History, especially pp. 83-5.

See R. Rorty, Contingency, Irony and Solidarity (Cambridge: Cambridge (٥٥) University Press, 1989), for the development of these views of what follows from accepting the radical 'contingency of language'.

I refer, of course, to Umberto Eco's marvellous allegory of language in the (٥٦) closing pages of The Name of the Rose (London : Picador, 1984; trans. W. Weaver), p. 500.

(٨)

ما التاريخ الإمبراطورى الآن ؟

ليندا كولى

دعونى أبدأ ببعض من السيرة الذاتية . كانت أول معرفة رسمية لى بالتاريخ الإمبراطورى وأنا طالبة بجامعة بريستول بداية سبعينيات القرن العشرين، وقد تجسد الموضوع بتلك الجامعة فى شخص متخصص مهم فى أفريقيا الاستعمارية البريطانية ، كان يُشاهد غالبًا فى لباسه السفارى ذى اللون الكاكى ، ومن خلال ملاحظته هو وتلاميذه وجدول محاضراته قفزت إلى استنتاجات معينة عن التاريخ الإمبراطورى، وقد عكست هذه بدرجة كبيرة مدى جهلى المحزن وأنا طالبة قبل التخرج. ولكننى كنت اتصرف أيضًا برد الفعل تجاه خصائص بعينها فى التاريخ الإمبراطورى البريطانى الذى كان مادة دراسية مالت فى تلك المرحلة ، حسب ظنى، إلى إبعاد الكثير من أبناء جيلى والأجيال التالية، وتسببت فى عدم إدراكنا للإمكانيات التى تتعلق بالموضوع.

فما هى ، إذن ، تلك الانطباعات التى خرجت بها وأنا طالبة عن التاريخ الإمبراطورى؟ أولها، أنه كان مقسمًا تمامًا . فقد بدا أن التاريخ الإمبريالى البريطانى حسبما كان يتم تدريسه فى بريستول لايكاد يرتبط إطلاقًا بمادة الموضوع، أو طريقة التناول ، أو أى شىء آخر تعلمته عن الماضى فى تلك الجامعة. إذ إن التاريخ البريطانى ، والتاريخ الأمريكى ، والتاريخ الإمبريالى والتاريخ الأوربى، كانت تميل جميعًا إلى العمل على امتداد مسارات متوازية ، على الرغم من أن هذا التقسيم لم يكن قاصراً على بريستول. والأمر الثانى الذى استنتجته ، أن التاريخ الإمبراطورى – أكثر من غيره من فروع التاريخ – ظهر وكأنه مشروع ذكورى خالص ؛ فقد كان الذين يدرسونه رجالاً

بطبيعة الحال. والحقيقة أن الرجال كانوا يقومون بتدريس كل شيء فى بريستول آنذاك . ولكن الرجال كانوا هم النسبة الغالبة بين الطلاب الذين يدرسونه أيضًا. كما كان يبدو أنه يهتم بصورة مركزية بأفعال الرجال، ولاسيما الرجال البيض ، تجاه رجال آخرين أو من أجلهم، لم يكونوا أساسًا من الجنس الأبيض. وجزئيًا ، كان من نتيجة هذا كله أن قررت أن التاريخ الإمبريالى تاريخ غريب بأكثر مما يجب ، ومُخصص بأكثر مما ينبغى – وأعترف – أنه كان يبدو رجعيًا بأكثر مما يتفق مع نوقى. كما بدا لى أنه تاريخ به خليط وليس تاريخًا متكاملاً مصقولاً، يهتم بدراسة خبرة بالمعاهدات وصناعها، والدبلوماسية، والإدارة والزراعة والتجارة، ومن حين لآخر فقط يتخفف بدراسة الحرب غير النظامية ، أو بناء السكك الحديدية، أو استخراج خام البوكسيت (الذى تصنع منه الألومونيوم) من المناجم[١].

ربما كانت ردود الفعل هذه من جانبى مفهومة إذا ما أخذنا فى اعتبارنا الظروف التى كانت سائدة فى ذلك الزمان، والتى كانت عامة ، ولكنها تبدو حمقاء تمامًا عندما أسترجعها ؛ لأنه بالنسبة لهذا الموضوع، يكون السؤال المناسب «ما الذى ليس هو التاريخ الإمبراطورى؟» بدلاً من «ما التاريخ الإمبراطورى؟» وحسبما أشار دان كينيدى **Dane Kennedy** وآخرون، فى العقود الحديثة، فإن هذا الفرع من التاريخ ، الذى تم تجديده بصورة فضفاضة ، قد تم تحويله وانتزاعه فى كل أنواع الاتجاهات الجديدة. والتاريخ الإمبراطورى ، بمصطلح الدراسة البحثية للإمبراطوريات ، وأيديولوچياتها، وأعمالها وتأثيراتها، هو الآن إلى درجة بعيدة فرع عابر للتخصصات ومتنوع إلى درجة أكبر كثيراً من حيث مادة الموضوع ، والمناهج . فقد أسهم علماء الآثار، ومؤرخو الفن ورسامو الخرائط ، ومؤرخو التاريخ النسوى، والمتخصصون فيما بعد الاستعمار ، وغيرهم، بمفاهيمهم وأجندتهم الخاصة ، على الرغم من أن هؤلاء الباحثين لايصفون أنفسهم بأنهم مؤرخون فى التاريخ الإمبراطورى . وقد نتج عن هذا ثروة من المعلومات الجديدة والرؤى الثاقبة ، وأتاحت ليس فقط المسارات الجديدة للدراسة، ولكنها أتاحت أيضًا الوسيلة التى يمكن بواسطتها معاودة دراسة عمل قديم قيم للغاية والتأكيد عليه[٢]. وجزئيًا بسبب الكثير جداً من الأنواع المختلفة من الكتابة حول ظاهرة الإمبراطورية،

صار التاريخ الإمبريالى أكثر إثارة للجدل ومسيسًا بشكل أشد صراحة. وقد صار أيضا أكثر تحديثًا؛ ففى الولايات المتحدة، على الأقل ، يصعب الآن ضمان منصب جامعى لتدريس التاريخ البريطانى ما لم تؤكد استعدادك لتدريس التاريخ الإمبراطورى كذلك.

ومع هذا ، مثلما يشى ذلك التطور الأخير، فإن الانطلاق الحديث للاهتمام بالتواريخ الإمبراطورية وتنويعها لم يكن مصحوبًا دائمًا بمكسب دائم فى الفهم أو الوضوح حول ما يتضمنه هذا الموضوع بشكل صحيح . ومطلب أن يكون المؤرخون المتخصصون فى التاريخ البريطانى خاصة قادرين على دراسة التاريخ الإمبراطورى يعكس افتراضًا (شائعًا) بأن التاريخ الإمبراطورى يتصل بالضرورة بتاريخ الإمبراطورية البريطانية تحديداً . وقد تكون هذه وجهة نظر طبيعية بالنسبة للأمريكيين بحيث يأخذون بها، بيد أنها ما تزال خاطئة . ويتضمن التاريخ الإمبراطورى ولكن ليس بصورة حصرية أو جوهرية ما يتعلق بما فعله البريطانيون فى الماضى، وليس بقدر أكبر مما يتصل بما فعله الأوربيون الغربيون الآخرون فى الماضى. والتاريخ الإمبراطورى ؛ أى دراسة الإمبراطورية على مرِّ الزمان، يتضمن بصورة صحيحة النظر إلى ما هو أبعد من مجرد التاريخ الغربى ، وما هو أكثر مما حدث فى السنوات الخمسمائة الماضية. والواقع ، فإن دراسة الإمبراطورية تنطوى على النظر فيما هو أكثر من الماضى فقط. وربما نحيا فى زمن ما بعد الاستعمار، بيد أننا لا نعيش بعد فى زمن ما بعد الإمبريالية . فالأمر كله، أن الجاذبية، والجوهر والتحدى الذى يطرحه التاريخ الإمبراطورى، إذا ما فهم بشكل سليم ، يقترب للغاية من التاريخ العالمى ، مع أنه لا يتماهى معه. وما أريد أن أفعله فى هذا الفصل ، من ثم، ليس الكثير للاحتفاء بالتاريخ الإمبراطورى الأكثر تنوعًا الذى ظهر بالفعل (على الرغم من أننى أحتفى به فعلاً) بقدر ما أقترح بعض الطرق التى ربما يمكن بها أن نتقدم بصورة مربحة إلى مدى أبعد وبقدر أكبر من التفكير . وفى الإجابة على السؤال «ما التاريخ الإمبراطورى؟» أود أن أركز على ثلاث إجابات ، على حين أؤكد على أن هذه ليست بأية حال قائمة تشمل جميع الاحتمالات.

وبداية ، سوف أجادل ، بأن التاريخ الإمبراطورى يتضمن اعترافًا بأن الأنواع المختلفة من الإمبراطوريات ، مع أنواع مختلفة من الملكيات ، كانت هى الأشكال الأكثر وجودًا فى كل مكان والأكثر استمرارية للسلطة والحكم فى ماضى العالم وحاضره . ومن ثم يحتاج مؤرخ الإمبراطوريات إلى أن يتخذ المنظور المقارن وأن يكون متحكمًا فى استمرارها طويل المدى. وثانيًا، وهو ما يؤدى إليه هذا، أن التاريخ الإمبراطورى فى جوهره يدور حول ما يسمى الضم. وأولئك الذين يمارسونه يجب أن يكونوا حساسين وعلى استعداد للبحث فى الروابط العديدة، التى غالبًا ما تكون متناقضة ظاهريًا، والتى ربطت ما بين الأقاليم المختلفة والشعوب المختلفة على مرِّ الزمان، ويعترفون كذلك بالتنوع الكامل لنظم السلطة ومن قاموا بممارسة السلطة . وسوف أناقش هذه النقطة الثانية مع إشارة خاصة إلى إمبراطورية بريطانيا ، ولكنها تنطبق على جميع الإمبراطوريات فى كافة الأزمان . وثالثًا وأخيرًا، فإن التاريخ الإمبراطورى ، بسبب مداه الشاسع وإشكاليته الجوهرية، فرع من التاريخ يطرح تحديات هائلة. وأريد أن أختم هذا الفصل بأن أقترح فعلاً أن متابعة هذا الموضوع بقدر مناسب من التوسع والحماسة والجرأة ، أمر غاية فى الصعوبة فى ظل الوضع الراهن للأكاديمية البريطانية. بيد أن هناك عددًا قليلاً من الموضوعات لايمكن الاستغناء عنها لغرض فهم صحيح لكل من هذه البلاد وللعالم بصفة عامة.

- ١ -

أولاً وقبل كل شىء ، إذن ، هناك أهمية البعد المقارن، والمدى الطويل **Longue durée** . وكما لاحظ إيريك هوبسباوم **Eric Hobsbawm** ، ولأن الإمبراطورية غالبًا ما كانت تحمل نغمة ازدراء إضافية من حيث كونها كلمة وفكرة ، اختارت دولاً مختلفة وعدة مجادلين مختلفين مرارًا وتكرارًا أن يصوروها على أنها شىء يمارسه الآخرون، ولكن لايمارسه نوعهم أو قومهم . أما الإمبراطورية الشريرة فهى على الدوام شىء عمله أحد غيرهم[٣]. وهكذا ، جادل كل من الإنجليز والهولنديين فى القرنين السابع عشر والثامن

عشر بأن الإمبراطورية التوسعية العدوانية كانت تصون الدول بجيوش كبيرة مثل روما القديمة أو إسبانيا الكاثوليكية ، حيث كان نوع نشاطهم فيما وراء البحار بحرياً في جوهره وتجارياً ، وبالتالى أشد اعتدالاً . وينبغى ألا نجادل فى أن هذا كان تحليلاً انتقائيا بدرجة عالية . كانت الإمبراطورية الإنجليزية والإمبراطورية الهولندية بحريتين وتجاريتين بشكل قوى، وتورطتا بشكل متزايد فى غزو الأراضى والاستعمار(٤). ومثل هذا التعريف المتجدد المتحايل الذى يخدم ذات الإمبراطورية تم استخدامه لإدانة قوى بعينها ، على حين يترك قوى أخرى بعيداً عن الإدانة ، قد تكرر على مدى القرون . ففى سنة ١٨٩٩م ، أخبر النائب الأمريكى لرئيس عصبة مكافحة الإمبريالية ، كارل شورتز **Carl Schurz** ، جمهوراً من السامعين فى شيكاغو أنه كان هناك «اختلاف حيوى بين توسع الجمهورية الأمريكية، ومؤسساتها الحرة على الأراضى المجاورة ... والحركة الإمبريالية التى تصل إلى أراضى بعيدة لكى تحكمها على أنها ولايات خاضعة». وما يزال هذا الرأى يلقى انتشاراً واسع النطاق ، لاسيما فى الولايات المتحدة . بيد أنه حسبما جادل مؤرخو الحدود الذين يعيدون النظر ويراجعون ما هو مكتوب ، من أمثال باتريشيا ليميريا، ومثلما عرف المكسيكيون والكنديون والأمريكيون الأصليون دائماً ، احتوى التوسع الأمريكى غرباً فى القرن التاسع عشر الكثير من الملامح الإمبراطورية ويحتاج إلى دراسته بالترادف مع الإمبراطوريات الأوربية المعاصرة(٥).

وثمة أشكال مشابهة من فقدان الذاكرة والانتقائية يمكن أن تعرقل الفهم العلمى والسياسى اليوم. وعندما ناقش إدوارد سعيد فى سنة ١٩٨٨م أن «الإمبريالية الأوربية الحديثة ... كانت نمطاً من الهيمنة فيما وراء البحار يختلف تأسيسياً وجذرياً عن كل الأشكال السابقة»، كان يعبِّر أيضاً عن وجهة نظر واسعة الانتشار وكانت صحيحة جزئياً . ومع هذا ، فإنه لم تتم مقارنة الإمبراطوريات البحرية الأوربية، التى احتكرت تركيز إدوارد سعيد واستهجانه، على نحو صحيح بتلك الإمبراطوريات غير الأوربية ، التى حذفها من كتابه – أى الإمبراطورية الصينية، والإمبراطورية المغولية فى الهند، وإمبراطورية الصفويين فى إيران، وبشكل حاسم الإمبراطورية العثمانية التى استمرت

فى الوجود أطول من معظم الإمبراطوريات الأوربية- فإن المزاعم حول الاختلاف التأسيسى والجذرى للحضارات الأوربية سوف تبقى مجرد مزاعم(٦). وبنفس الصفة ، نحتاج إلى الاعتراف بأنه عندما هاجم السياسيون ورجال الدعاية فى أواخر القرن العشرين ما كان حينئذ الاتحاد السوفيتى والصين من حين لآخر باعتبارهما إمبراطوريتين شريرتين، وكان يهاجمهم فى المقابل السياسيون السوفيت والصينيون ورجال الدعاية باعتبارهم أدلة على الإمبريالية الغربية الخبيثة ، كان هؤلاء الفاعلون يتصرفون فى الحال وفقًا لخطاب بلاغى تأسس منذ فترة طويلة واستراتيجيات تحايلية مستقرة، وكانوا ينطقون بحقائق جزئية . وتحت درقة ديموقراطيتهم الجماهيرية ، ووطنيتهم ، فإن الولايات المتحدة ، وروسيا والصين تحتفظ فى الحقيقة بالكثير من خصائص - وكثير من مشكلات - الإمبراطوريات ، وهو أمر لايثير الدهشة من الناحية التاريخية.

والطريقة الوحيدة التى يمكن لمؤرخى الإمبراطوريات أن يحموا رؤيتهم العلمية من هذه الأنواع من الغمامات والمحاربة التى لاتخدم أحدًا، إنما تكون بزرع الوعى بالأشكال المختلفة من الإمبراطوريات التى وجدت على مدى القرون فى أجزاء مختلفة من العالم. مثل هذه الرؤية الرحبة جوهرية لأسباب إيجابية أيضًا. فما لم نتناول تاريخ الإمبراطوريات بشكل مقارن ، فإننا لانستطيع أن نقدر كم تعلمت النظم الإمبراطورية المختلفة من بعضها البعض واستعارت من بعضها البعض. فعندما انتقل البريطانيون إلى الهند، تبنوا - بينما عدّلوا أيضًا - الكثير من الأجهزة المالية والإدارية والطقوسية التى كانت فى النظام الإمبراطورى المغولى السابق. والإمبراطورية الرومانية ، بطبيعة الحال، كانت نموذجًا بالفعل لكل ما جاء بعدها من إمبراطوريات غربية . ولم تكن صدفة أن الجمهورية الأمريكية الجديدة حازت لنفسها مجلس شيوخ (سناتو) فورًا، ومبنى برلمان (الكابيتول) وشعارًا لها هو النسر. وكانت هذه كلها استعارات واعية من روما القديمة، التى كانت جمهورية كبيرة أخرى صارت إمبراطورية ، وعكست اهتمام «الآباء المؤسسين» فى الولايات المتحدة التى صارت بدورها ما أسماه ألكسندر هاميلتون **Alexander Hamilton** «إمبراطورية فى الكثير من النواحى هى الأكثر إثارة فى العالم»(٧).

وقد برهنت المعرفة الحقيقية والزائفة التى كانت لدى الإمبراطوريات المختلفة كل منها عن الأخرى على أنها مصدر للمعلومات فى جوانب مغايرة. فعند أحد المستويات، كان من الممكن أن تساعد فى إضفاء الشرعية وبذر الثقة بين من يقومون ببناء الإمبراطوريات أنفسهم؛ إذ كانت الدول الأوربية قادرة على بناء إمبراطورياتها الخاصة فيما وراء البحار، يقويها إدراك – وهو ما توفره أى دراسة للكلاسيكيات الإغريقية والرومانية على جميع النخب الذكورية فى هذه الدول– بأن الإمبراطوريات كانت موجودة على الدوام، وعلاوة على ذلك ، ووفقًا لأمثال قيصر وتاكيتوس، فإنها برهنت على أنها مصدر خير وتحضر(٨). ولكن معرفة أن الإمبراطوريات كانت شائعة وأنها وُجدت دائمًا بشكل ما قد ساعد أيضًا على القبول الجماهيرى لها. ولأسباب عملية واضحة، يميل الباحثون الآن إلى الاعتماد على أمثلة للمقاومة الجماهيرية للإمبراطوريات ، ومع هذا، فعلى امتداد فترة طويلة من التاريخ العالمى، كانت درجة قبول الجماهير هى المثيرة فعلاً أكثر من غيرها، ويرجع أحد أسباب هذا إلى أن وجود مختلف النظم الإمبراطورية فى معظم أرجاء كوكب الأرض كان يؤخذ – غالبًا – على أنه أمر مُسلم به. وكان هناك وعى على مستوى القاعدة بوجود إمبراطوريات أخرى ربما كان يقوى هذا القبول أيضًا. وعندما تحرك البريطانيون إلى كندا بعد سنة ١٧٥٩م، كان عليهم أن يتعاملوا مع شعوب محلية اعتادت على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان على أساليب الحكم الإمبراطورى الفرنسى. وعلى امتداد العقود التالية، كان الإداريون الإمبراطوريون البريطانيون مضطرين إلى أن يصيروا أشد انتباهًا لأمور مثل إعطاء الهدايا، والمكافأة بالميداليات ، والأشكال الاحتفالية والدبلوماسية ، وهلم جرا ، لأن الزعماء المحليين كانوا يحاضرونهم بشكل متكرر عن تقصيرهم فى هذه المسائل بالمقارنة مع أسلافهم الفرنسيين(٩).

وهكذا فإن هذا سبب إيجابى واحد لأن التاريخ الإمبريالى يجب أن يتضمن منظورًا مقارنًا: لأن الناس فى الماضى ، سواءً صنّاع الإمبراطوريات أو أولئك الذين سعوا إلى حكمهم ، غالبًا ما كانت لديهم نظرة مقارنة أيضًا. وتبنى مثل هذا النوع من التناول حيوى أيضًا لأن الإمبراطوريات المختلفة قامت وسقطت فى علاقة وثيقة ببعضها

البعض وفى استجابة كل منها للأخرى. وحسبما وثقّ دومينيك ليڤين Dominic Lieven حديثًا، فإنك لايمكن أن تفهم أحوال إمبراطورية الهابسبورج والإمبراطورية الروسية على مدى الزمان ما لم يكن هناك قدر من التقييم للكيفية التى تأثرتا بها بالإمبراطورية العثمانية المجاورة الفتية(١٠). وكما أن امتداد النفوذ الإقليمى البريطانى فى الهند بعد سنة ١٧٥٠م كان مرتبطًا فى نهاية الأمر ، بطرق ما تزال محل جدل ساخن ، بالضعف المطرد للإمبراطورية المغولية. ويجب دراسة ظهور الإمبراطورية الأمريكية غير الرسمية فى أجزاء مختلفة من العالم منذ أوائل القرن العشرين بالتزامن مع تراجع القوة الإمبراطورية البريطانية، وهكذا فإن هذا عالم متشابك ، وقد كان كذلك على الدوام، وجزء من عمل مؤرخى التاريخ الإمبراطورى أن يُظهروا كيف ولماذا كان كذلك .

وعلى أية حال ، فإن المؤرخين الإمبراطوريين يحتاجون إلى توضيح الفروق بين النظم الإمبراطورية المختلفة وليس مجرد استعاراتها من بعضها البعض وبيان الروابط والتشابهات فيما بينها. فقد كانت الإمبراطوريات الأوربية الكاثوليكية والبروتستانية تشترك فى نقاط عديدة ، ولكنها كانت أيضًا تتسم أحيانًا بمواقف متباينة تجاه مسائل مثل العمل التبشيرى والزواج المختلط بين البيض والسكان الأصليين . وقد أظهرت الإمبراطوريات البحرية والإمبراطوريات المرتكزة على اليابسة أحيانًا دوافع متشابهة للغاية، والعدوان، وأساليب الحكم، ولكن كانت هناك أيضًا فروق رئيسية متكررة فيما بينها. والأشد وضوحًا ، وكما أدرك سيلى J.R. Seeley ، كانت الإمبراطوريات البحرية عادة أقصر عمرًا كما كانت مكشوفة أمام الأخطار بدرجة أكبر من إمبراطوريات اليابسة . وكان من الأسهل دائمًا بناء الحكم وتدعيمه على مساحة واحدة من الأرض بدلاً من الاعتماد على السفن والاضطرار إلى فرض السلطة على محيطات وبحار واسعة(١١). كان هذا هو السبب فى أن الإمبراطورية الروسية ، والإمبراطورية العثمانية ، وفوق هذا وذاك الإمبراطورية الصينية، قد برهنت على قدرتها على البقاء أكثر من الإمبراطوريات البريطانية أو الإسبانية أو البرتغالية ، وبطبيعة الحال، لايمكن لباحث واحد أن يأمل فى تحقيق معرفة كاملة عن مجمل تاريخ امبراطورية واحدة، أيًا كانت، بل هو أقل قدرة على جمع معلومات مفصلة ومعرفة واسعة بكل الإمبراطوريات على مرِّ الزمان.

وبخلاف ظاهرة الإمبراطورية ، فإن الأفراد من البشر، حتى أمهرهم وأكثرهم اجتهادًا ، لا يستمرون سوى لفترة قصيرة جداً . ومع هذا، فبينما تخرج المعرفة الكاملة عن متناولنا ، لا يجب أن يكون هناك استعداد لتبنى البعد المقارن فيما يخصُّ مناطق بعينها من الدراسة . ومن غير الحكمة وعادة ما يكون خطأ صريحًا القيام بتأكيدات درامية عن خصائص إمبراطورية بعينها وعواقبها ما لم تكن قد فحصت إمبراطوريات أخرى أولاً. ودعونى أضرب لكم مثلاً؛ ففى السنوات الأخيرة جادل بعض المؤرخين وبعض الباحثين فى الأدب بقوة بأن التوسع الإمبراطورى الهائل لبريطانيا بعد سنة ١٧٥٠م أنبأ ، وما يزال ينبئ عن مواقفها العنصرية إلى درجة مؤذية(١٢). وإلى حدٍّ ما، تبدو هذه المجادلة لى مجادلة ذات جدوى. ومع هذا – بافتراض أن هناك روابط بين الإمبراطورية والموقف العنصرى – فإن تجربة بريطانيا تحتاج بالتأكيد إلى الاختبار فى ضوء تجارب الإمبراطوريات الأخرى، وفى الواقع فى مقابلة الدول الأخرى التى لم تكن لها إمبراطوريات. لماذا ، على سبيل المثال، أظهرت ألمانيا ، التى استثمرت فى إمبراطورية فيما وراء البحار فى وقت متأخر كثيراً عن الباقين ، وإلى مدى أقل كثيراً من بريطانيا ، مع هذا فى القرن العشرين ، وهناك من يجادل بأنها ما تزال تُظهر الآن قدرًا أكبر من العنف العنصرى المحلى وسياسات عنصرية صريحة من بريطانيا(١٣)؟. إننى لا أعرف الإجابة ولكن أولئك الذين يهتمون بدراسة العنصر والإمبريالية يجب أن يطرحوا هذا السؤال وكذلك أسئلة مقارنة أخرى.

واسمحوا لى الآن أن أنتقل إلى موضوعى الثانى: إن التاريخ الإمبراطورى إنما يتعلق بشكل حيوى بضم الأراضى ، أى تعريف ودراسة الروابط العديدة التى وُجدت على مرِّ الزمان بين مختلف قطاعات العالم والشعوب المختلفة. وتناول الإمبراطورية البريطانية (وأى إمبراطورية غيرها) على هذا النحو – باعتبارها نظامًا متفاعلاً كاملاً، عالمًا واحدًا مترابطًا ، على حد تعبير فيليب مورجان **Philip Motgan** – يفرض على المؤرخين تحديات هائلة . ومن ناحية ، لم يعد يكفى، ولم يكن كافيًا أبدًا ، بالنسبة لمؤرخى الإمبراطورية البريطانية، أن يركزوا على تأثير الشتات الإنجليزى، والويلزى ، والاسكتلندى على التوالى، على الشعوب والأراضى التى غزاها هؤلاء . كما لايكفى ،

حسبما أصر أحد أقدر المؤرخين الهولنديين منذ ثلاثينيات القرن العشرين، أن نضع الرجل الأبيض فى مركز الأشياء ثم نحكى قصة العلاقات العالمية بشكل تهيمن عليه الرؤية «من فوق سطح السفينة، أو استحكامات القلعة ، أو من صالة العرض فى أحد المتاجر»، أو من منظور مكتبات الكُتّاب الأوربيين وكتاباتهم ، كما يحدث بالفعل(١٤). إننا بحاجة دائمة إلى التدبر فى كيفية تأثر الناس ومشاعرهم على الطرف الآخر الذى تلقى الاهتمام البريطانى على هذه الجزر ذاتها وعلى الدول الأوربية الأخرى. إن دراسة التاريخ الإمبراطورى لايجب أن تكون أحادية الجانب، أى قصة ذات اتجاه واحد لحساب جانب واحد وتميز باستمرار مجموعة واحدة من الأصوات. وأعتقد أننا جميعًا نتفق على ذلك.

وعلى أية حال ، وهذا ما ننساه أحيانًا، فإن دراسة الضم فى سياق الإمبراطورية البريطانية يتحدى مؤرخى التاريخ البريطانى وغيرهم. إذ إن الباحثين البريطانيين بحاجة إلى أن يحققوا الفهم متعدد الجوانب لما كانت عليه الإمبراطورية وما فعلته ، وإدراك أيضًا بالماضى المستقل ذاتيًا للمجتمعات التى تأثرت ببريطانيا، نعم ، بالفعل. ولكن بالمعيار ذاته ، فإن مؤرخى آسيا، وأمريكا الشمالية، والكاريبى ، وأفريقيا والمحيط الهادئ، يحتاجون إلى تطوير تقييم حديث، منوّع، دقيق للبعد البريطانى فى الإمبراطورية . وهم بحاجة إلى إحساس عارف أى نوع من السلطة والمجتمع كانت بريطانيا بالضبط فى أزمنة معينة، متمايزة عما بدا أنها كانت أو عمًّا ما يزال عليه الظن بأنها تكون بشكل عام . إن فهم الروابط المتبادلة التى نسجت حول الإمبراطورية البريطانية أمر ضرورى ، وبعبارة أخرى إنه عمل ضخم، متعدد الجوانب وتبادلى بشكل صارم، وليس مجرد تحدٍّ للسلطة الإمبراطورية السابقة وحدها. وأود باختصار أن أطور هذه النقاط، لاسيما النقطة الأخيرة التى لقيت التجاهل .

كثير منا سيتفقون مع ديڤيد أرميتاچ **David Armitage** فى الأسى على «التردد الدائم من جانب المؤرخين البريطانيين لدمج الإمبراطورية فى تاريخ بريطانيا»، ذلك أنه إذا لم تقم بالربط بين مواقع الإمبراطورية فيما وراء البحار والعاصمة بهذه الطريقة، وتعرف كيف أثرت هذه المواقع على العاصمة وليس مجرد العكس، فلا يمكن إذن الإحاطة بالماضى البريطانى كله ولا يمكن أن تصير مستعدًا للفهم بصورة كاملة(١٥). فكِّر فى

شيء أساسي مثل الضريبة والدخل. هناك روابط حقيقية وموثقة جيداً بين السياسة المالية ومحاولات الحد من التهريب في هذا البلد في سبعينيات القرن الثامن عشر وثمانينيات القرن نفسه من ناحية، وأنشطة الصينيين وتدفقهم هم ومزارعي الشاي وتجاره الهنود، من ناحية أخرى. وكل من هذين الشيئين كان مرتبطاً بالشكاوى التجارية للمستعمرين وبتوقيت وشكل الحادث المعروف باسم «حفل الشاي في بوسطن **Boston Tea Party**(*). وهنا بالتأكيد كان يوجد عالم إمبريالي متداخل ومترابط شاسع(١٦). وبالطريقة نفسها ، كان معدل الشئون الحربية غير الأوربية (والمقاومة غير الأوربية) – وليس مجرد المعركة مع نابليون في أوربا– هو الذي جعل الحروب من ١٧٩٣–١٨١٥م مكلفة بشكل شنيع بالنسبة لدافعي الضرائب البريطانيين . وقد أسهم هذا في حملات الناشطين من الطبقة الوسطى البريطانية بعد سنة ١٨١٥م لتخفيض الضريبة على الدخل إن لم يكن إلغاؤها ، ولاسيما الحد من نفقات القوات المسلحة(١٧). وحملات تخفيض النفقات هذه أثرت بدورها ليس فقط على الدخول والمعيشة في مانشستر ، وجلاسجو، وبلفاست ، وكارديف، ولكن أيضاً في البنجال، ومدراس وبومباي. وبصورة متزايدة (على الرغم من أن حوادث سنة ١٨٥٧م غيرت الأمور إلى حد ما)، فإن الكثير من عبء الدفاع عن الإمبراطورية البريطانية ، بمعنى دفع الضرائب وتقديم القوة البشرية على السواء، قد تحول إلى سكان شبه القارة الهندية. مثلما صورته أكثر صيغة ساخرة في الأغنية الشهيرة في صالات الموسيقى :

نحن لانريد أن نحارب

ولكن ، نُقسم ، إذا أردنا

(*) كانت هذه الحادثة التي جرت في منتصف شهر ديسمبر سنة ١٧٧٣م، جزءاً من التحدي الثوري الأمريكي ضد التاج البريطاني : فقد صعدت جماعة من خمسين رجلاً، متنكرين في زي الهنود الحمر، إلى السفن التي تحمل الشاي الذي أرسلته شركة الهند الشرقية إلى ميناء بوسطن، وأفرغوا صناديق الشاي في مياه الميناء، تحدياً للتاج البريطاني وسياساته الاقتصادية في المستعمرات الأمريكية. وقد جاءت سلسلة من ردود الفعل العنيفة ، وردود الفعل المضادة، من الجانبين لتزيد من المشاعر المعادية للتاج البريطاني . (المترجم)

أن نبقى فى الوطن نغنى أغانينا

ونرسل الهندى اللطيف[١٨].

ودمج البعد الإمبراطورى فى التاريخ البريطانى لايكبّر القصة ويعقدها بشكل مفيد فقط، ولكنه يحولها أيضاً فى بعض الأحيان هى والسؤال الذى يمكن طرحه عنها. تأمل واحدة من أقدم القصص المكررة فى الكتاب. حتى الآن، فإن تواريخ بريطانيا ما تزال تزعم بصورة منتظمة أنه، بعد القرن السابع عشر ، كانت القوات المسلحة هنا غير مسيَّسة بشكل فعال وخضعت للسلطة المدنية . ولدىّ شكوك حول هذه الرواية التى يرويها المحافظون عن الأحداث حتى فيما يتعلق بالتاريخ المحلى، بيد أن عدم كفايتها تظهر بقوة حالما ينظر المرء إلى الجيش البريطانى فى سياق إمبراطورى. لقد تصرف الرجال العسكريون الأفراد من أمثال آرثر ولسلى Arthur Wellesley فى الهند، أو چيمس موراى James Murray فى كندا ، ولعبوا أدواراً سياسية مستقلة ذاتية إلى حد كبير (وأحياناً بشكل يتعارض مع السياسيين فى لندن) ، كما خاضوا حروباً . وعلاوة على ذلك ، فإن مثل قادة الحرب الإمبراطوريين هؤلاء امتلكوا أحياناً السلطة *السياسية والعلاقات داخل العاصمة نفسها* . وكما أوضح لويس ناميير **Lewis Namier** وجون بروك **John Brooke** منذ وقت طويل ، شكل رجال الجيش والأسطول أكبر فئة من رجال السياسة فى برلمانات القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر المتتابعة؛ كما أن نسبة النبلاء ذوى الخلفية العسكرية كانت كبيرة أيضاً[١٩]. هذه الحقائق عادة ما يتم إيرادها دونما الكثير من التعليق ودون أية محاولة لتقييم مفهوم أن قوات بريطانيا المسلحة كانت غير مسيَّسة. ومع هذا كانت هناك بالتأكيد روابط بين توسع إمبراطورية بريطانيا فيما وراء البحار والظهور المتزامن للعسكريين فى الحياة السياسية فى الوطن . وسيكون لطيفاً أن نعرف ماذا كانت هذه الروابط[٢٠].

ولايجب أن تكون معرفة أهمية الضم فيما يتعلق بالإمبراطورية ، على أية حال، شأناً حصرياً؛ بل إن العكس هو الصحيح تماماً . ذلك أن التاريخ الإمبراطورى، إذا ما تمت دراسته بشكل صحيح ، يجب أن يتضمن وضع القوى والمفاهيم غير الأوربية فى

عملية إعادة بنـاء التـاريخ البريطانى التى نقوم بها ، نعم ، على الإطلاق. بيد أن هذا لا يستوجب ، ولا يجب أن ينطوى على، تجاهل التأثيرات الأخرى. فالمركزية الأوربية، مثلاً، أمر مُدان (بشكل مفهوم تمامًا) ، ولكن هناك دائمًا عدم اعتراف بتأثيرها ومغزاها الحقيقى فى الماضى. ومع هذا ، كانت الأمور الأوربية ، بالنسبة للبريطانيين، مهمة وتشغل البال بصفة عامة على الأقل شأنها شأن المسائل غير الأوربية والإمبراطورية . والواقع أنه لم يكن هناك ما يربط هذه الأشياء ببعضها البعض فى أغلب الأحيان. وهناك عدة جوانب لابد من دراستها فى هذا الصدد. وبدايةً لابد أن يولى مؤرخو الإمبراطورية المزيد من الاهتمام بإمبراطورية بريطانيا داخل أوربا. ذلك أن جبل طارق ، ومينوركا ، ومالطا ، وكورفو، وقبرص لم تكن أبداً مناطق استيطان فى الأساس بأكثر مما كانت أسواقًا رئيسية ، أو موردين رئيسيين للمواد الخام؛ ولكن بالمصطلحات البحرية والاستراتيجية والتجارية الشاملة ، كانت هذه القواعد حيوية، إذ كانت على نحو ما مفاتيح نظام بريطانيا العالمى بأسره . وحسبما يوحى هذا ، فعند الإجابة على السؤال الأكثر تحديداً «ما التاريخ الإمبراطورى البريطانى الآن؟ » لابد من إدخال البحر المتوسط بوصفه جزءاً من الإجابة ، وليس فقط الأطلنطى ، والمحيط الهادى، والمحيط الهندى[٢١].

بالإضافة إلى هذا ، وعودة إلى إصرارى على أهمية الروابط العالمية المتبادلة ، فإننا لابد أن نضع فى ذهننا الحلقة المطلقة الواصلة بين قوة بريطانيا فى مواجهة بقية أوربا ، ومثل هذه القوة الإمبراطورية وكيف كانت قادرة على ممارستها فى أوقات مختلفة على مر الزمان وفى أجزاء مختلفة من العالم خارج أوربا. وإذا ما كانت بريطانيا مشتبكة فى حروب عظمى ومنافسة كبيرة مع قوى القارة الأوربية، فإن جهودها الإمبراطورية كانت تخضع للحلول الوسط أو تصير ارتيابية فى أسلوبها . وهكذا ، وبطريقة درامية للغاية ، خسرت المستعمرات الثلاث عشرة (الأمريكية) بعد سنة ١٧٧٦م وكان ذلك إلى حد كبير بسبب أن منافستها الرئيسية فرنسا أعلنت الحرب على بريطانيا واعتمدت على المساعدة العسكرية والبحرية الأمريكية الضخمة. وتحت نفس الموضوع، فما إن هزمت بريطانيا فرنسا بشكل نهائى سنة ١٨١٥م وأسست التوافق الأوربى،

استطاعت من بعدها أن تشدد قبضتها الإمبراطورية. حقيقة أنه، فى أوائل القرن التاسع عشر ، زعمت بريطانيا، والقوى الأوربية الأخرى الغربية، والولايات المتحدة، وروسيا سوياً سلطتهم على ٣٥ بالمائة من أراضى العالم، على حين أنه فى مطلع القرن العشرين زعمت هذه القوى لنفسها السلطة على ثمانين بالمائة من العالم، كانت ترتبط مباشرة بحقيقة أن – فى الفترة الفاصلة – هذه الدول بشكل عام كانت فى سلام كل منها مع الأخرى، ومن ثم صارت أكثر حرية مما كانت من قبل فى التدخل فى مناطق جغرافية أخرى أكثر انكشافاً . وعلى النقيض من ذلك، ما إن ورطت بريطانيا والقوى الرئيسية الأوربية الأخرى نفسها فى أعقاب سنة ١٩١٤م فيما كان بالفعل حربين أهليتين قاريتين متعاقبتين هائلتين (الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية) ، تسارعت عملية التخلى عن المستعمرات تسارعًا هائلاً. وهكذا ، بينما يعنى الضم فى سياق التاريخ الإمبراطورى البريطانى أن تكون حساسًا للأصوات والتأثيرات غير الأوربية، فلابد من مزج هذا مع وضع البعد الأوربى فى الاعتبار بشكل سليم.

– ٣ –

ولكى نلخص إذن: إن تتبع أثر الخطوط المحيّرة للروابط العالمية المتداخلة لا غنى عنه للتاريخ الإمبراطورى البريطانى وغيره، ولكن بالتحديد لابد أن يتم هذا بطريقة انتخابية وليس بطريقة انتقائية . وهذا يقربنى من نقطتى التالية المرتبطة بهذا، وهى أن فهم الإمبراطورية البريطانية تطلب فهمًا شاملاً واضح الرؤية للبريطانيين أنفسهم . وكما اقترح بايلى **C.A. Bayly** فإن معاملة البريطانيين على أنهم إمبرياليون من جانب الهنود، بالفعل، أو من جانب الأمريكيين أو الكاريبيين أو الأستراليين أو الأفارقة ، ربما يسبب للباحثين أحيانًا أن يصابوا بانفصام فى تقييم الأمور. فمن ناحية ، ولأسباب مفهومة تمامًا ، يكون البريطانيون غالبًا محل سخرية وازدراء ويتم التقليل من إسهاماتهم التكوينية فى هذه المناطق الشاسعة من العالم أو يتم إنكارها. ومع هذا فإنه يتم أيضاً بانتظام اقتفاء خطى البريطانيين مثل حصان عجوز صامت حينما يتطلب الأمر شرح الانعطافات الرئيسية فى ماضى هذه المناطق التى تعتبر باعثة على الأسى،

ويعزى إليها فى هذا السياق درجات خارقة للعادة حقًا من السلطة والنفوذ(٢٢). وهذا الاتجاه ليس قاصراً على الكتابة . فكر فى فيلم مل چيبسون "The Patriot" حيث يتم تصوير الضباط البريطانيين ذوى المعاطف الحمراء فى الحرب الثورية الأمريكية فى صورة البُلهاء أو الأشرار السذج بحيث لايعرفون طريق الباب، إلا أنهم فى الوقت ذاته يُصورون فى صورة من لديهم فرق عسكرية ضخمة منظمة على مقياس غير حقيقى يكاد يماثل مقياس نورمبرج(*). وهنا مثال كلاسيكى عما يمكن أن يوصف بأنه نظرة انفصامية فى فترة ما بعد الاستعمار، تقلل فى الحال من شأن القوة الإمبراطورية السابق، وفى الوقت ذاته تبالغ فى قوته القهرية. وبطبيعة الحال تحتاج كل الأمم إلى ماضٍ يمكن استخدامه ، ولابد أن نتوقع أن مجتمعات ما بعد الاستعمار سوف تختار فى ثقافتها الشعبية وأساطيرها السياسية أن تسىء النظر وأن تحط من قدر البريطانيين، تمامًا مثلما أساء البريطانيون ذات مرة إليهم أو حطوا من قدرهم. ولكننا بوصفنا مؤرخين – مهما كان تفكيرنا عن هذه الإمبراطورية أو غيرها – نحتاج إلى الغوص بدرجة أكثر جدية وأن نحاول رؤية البريطانيين وقوتهم الإمبراطورية المتقلبة حسبما كانت بالفعل .

تأمل فى هذا الخصوص موضوع الصغر البريطانى. ويمكن المبالغة بسهولة فى تقدير قوة الإمبراطورية البريطانية وقدرتها بالاعتماد المفرط على أحد أكثر أعمال دعايتها نجاحًا : تلك الخريطة الشهيرة – التى أعيد إنتاجها كثيراً فى العصر الڤيكتورى وعصر أسرة إدوارد ، وأحد الملامح القياسية للكتب المدرسية منذ ذلك الحين – التى تعرض امتدادات لمساحات هائلة من العالم كلها مظللة باللون الوردى أو الأحمر. وحتى أكثر مما تفعله معظم الخرائط ، فإن هذه الخريطة خادعة . وهى خادعة لأنها تشى بأن الإمبراطورية البريطانية كانت تشكل كتلة متسقة موحدة، ومشروعًا إمبراطوريًا مفرداً ، وهو ما لم يكن أبداً حال الإمبراطورية. وهى خادعة ، أيضًا،

(*) إشارة إلى محاكمات نورمبرج لكبار رجال العسكرية الألمانية بعد هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية، بتهمة ارتكاب جرائم حرب. (المترجم)

لأنها تعطى الانطباع الخاطئ تماماً بأن الإمبراطورية القادرة الوحيدة الموجودة آنذاك كانت إمبراطورية بريطانيا . ولكن الخداع الأشد تأثيراً والأكثر مراوغة الذى تنطوى عليه هذه الخريطة الشهيرة يكمن فى الطريقة التى تضلل بها العين عن صغر حجم القوة المركزية ذاتها. إذ إن الحدود المادية التى تحدد المملكة المتحدة محجوبة بشكل حاذق فى انتشار عالمى للون الوردى . والأمر كله غاية فى السهولة ، فالنظر إلى هذه الخريطة فى اليد، يؤدى إلى تضليلك بالمفهوم الخاطئ المألوف بأن الحجم يهم أكثر من أى شىء آخر، وأن المقياس الفريد لإمبراطورية بريطانيا فى قمتها كان مصحوباً بشكل مباشر بدرجة فريدة من القوة. ومع هذا ، بقدر ما كان الحجم يهم فعلاً فيما يتعلق بالقوة الإمبراطورية ، فإن ما ينبغى ملاحظته ليس مجرد الامتداد الشاسع للأراضى التى زعمت بريطانيا لنفسها الحق فيها، وإنما أيضاً أبعادها المحلية الضئيلة الخاصة(٢٤).

وتذكر فقط كيف كانت هذه الأبعاد ضئيلة ، لاسيما إذا ما قورنت بالقوى العظمى اليوم ، فالولايات المتحدة تمتد من البحر إلى البحر الساطع ثلاثة آلاف ميل، وهى مثل الصين، تغطى مساحة قدرها ٣,٧ مليون كيلو متر مربع . وكان الاتحاد الروسى قد تم تقديره حديثاً بأكثر من أربعة ملايين كيلو متر مربع فى امتداده ؛ على حين أن الهند اليوم – التى حكمتها بريطانيا قبل سنة ١٩٤٧م – تضم مليون ومائتى ألف كيلو متر مربع. وعلى النقيض من هذا، فإن مساحة بريطانيا العظمى وأيرلندا معاً أقل من مائة وخمسة وعشرين ألف كيلو متر مربع ، وجزيرة بريطانيا ذاتها أصغر من مدغشقر . ويمكن أن تضعها فى تكساس مرتين مع وجود مكان إضافى . وبطبيعة الحال فإن الحجم الجيوبوليتيكى لم يكن أبداً عامل الحسم الوحيد أو حتى عامل الحسم الأول فى قوة الدولة، وكانت هناك دول أوربية أخرى صغيرة بالإضافة إلى بريطانيا كونت إمبراطوريات قوية. ومع هذا ، فإن مدى التفاوت بين الصغر المادى فى حجم بريطانيا ، من ناحية، وكبر حجم إمبراطوريتها ، من ناحية أخرى، كان فريداً. فعند بداية القرن العشرين، كانت الإمبراطورية الفرنسية أكبر بنحو عشرين مرة من حجم فرنسا ذاتها، ولكن الإمبراطورية البريطانية كانت أكبر من حجم بريطانيا مائة وخمساً وعشرين مرة(٢٥).

ونحن بحاجة إلى أن نحلل هذه الإحصائيات المذهلة فى أى تقييم للقوة الإمبراطورية البريطانية ، خاصة وأن صغر حجم بريطانيا لم يكن مجرد وظيفة للحجم الجغرافى؛ إذ إن بريطانيا على مدى معظم تاريخها الإمبراطورى كانت أصغر كثيراً فى حجم سكانها من منافستيها الرئيسيتين الكاثوليكيتين على تكوين الإمبراطورية ؛ أى فرنسا وإسبانيا. وحسبما أوضح آدم سميث **Adam Smith** ، كان جيش بريطانيا النظامى ، مستقلاً عن أسطولها ، محدوداً أيضًا، إذا ما وضعنا فى اعتبارنا مدى أنشطتها الإمبراطورية. وفى سنة ١٧١٥م، عندما زعمت بريطانيا بالفعل أن لها سلطة على نصف مليون رجل وامرأة فى أمريكا الشمالية، فإن أجزاء كبيرة من جزر الهند الغربية، والمستعمرات الساحلية فى الهند، وأيضًا المراكز فى البحر المتوسط ، لم يكن جيشها أكبر من جيش ملك سردينيا . وفى سنة ١٨٥٠م، وفى ذروة قوتها العالمية، كان جيش بريطانيا الذى يمكن تجنيده فى الوطن ما يزال متواضعاً بالمقارنة مع جيش روسيا، أو فرنسا، أو حتى بروسيا[٢٦]. وكانت بريطانيا فى بواكير العصر الحديث وفى القرن التاسع عشر مضطرة إلى الرضى بجانب آخر من صغر الحجم. فاللغة الإنجليزية اليوم هى اللغة العالمية ، والتلفزيون و **CNN** وهوليوود، والموسيقى الشعبية وشبكة الإنترنت متاحة كلها لنشر أفكار أمريكية ، وتفسيرات الأحداث ، والأشكال الثقافية عبر العالم. ولكن على مدى الكثير من المرحلة الإمبراطورية البريطانية، كانت اللغة الإنجليزية ما تزال لغة أقلية، ولم يكن يتحدثها حتى جميع سكان اسكتلندا ، أو ويلز، أو أيرلندا. ولذلك فإن قدرة بريطانيا على نشر لغتها المكتوبة والمنطوقة باعتبارها أداة للإمبراطورية والنفوذ العالمى كانت محدودة بقدر أكبر كثيراً من قدرة الولايات المتحدة اليوم.

هذا هو السبب فى أن ممارسة ضم الأراضى بمعنى إدخال المعلومات المحلية البريطانية الدقيقة فى تواريخ النظام الإمبراطورى الذى بنته أمر لايمكن الاستغناء عنه. ويجب أن نكون حساسين ليس فقط إزاء الطرق التى نجحت فيها هذه الدولة بشكل غير منكور فى ممارسة القوة على نطاق عالمى، وإنما أيضًا إزاء الطرق التى بها

حددت أبعادها المحلية الخاصة - صغر مواردها المحلية، ومحدودية سكانها، وجيشها المنتشر بشكل سيء، ولغتها التى تستخدمها الأقلية - خاصية قوتها الإمبراطورية فى أوقات مختلفة وأماكن مختلفة. والمدى الذى كانت فيه بريطانيا قادرة بصورة افتراضية للغاية على بناء كيانها العالمى انطلاقًا من قاعدتها الصغيرة الخاصة، وتذهب بها بعيدًا إلى هذا المدى، كان غريبًا حقًا ، ولايجب أبدًا أن تغيب عن نظرنا الخصوصية الجوهرية أو نتوقف عن دراستها على نطاق واسع وبصورة شكية[٢٧].

وفى هذا الصدد، برهن اتجاه بعض الكتابات البحثية الحديثة ، التى غالبًا ما كانت مؤثرة عن جدارة تامة على الإمبراطورية إلى جانب العوامل المادية، وتركز بدلاً من ذلك على أمور المعرفة والعنصر، أحيانًا على عدم جدواه وغموضه، ولأكن واضحة: إن أكبر اهتمام فى استكشاف التواريخ الثقافية للإمبراطورية والتراجع عن الحسم الاقتصادى المفرط الذى يصيب أحيانًا التواريخ الإمبراطورية هى تطورات صحية أؤيدها تمامًا. بيد أن الانطباع يمكن فى بعض الأحيان أن يتم نقله واستقباله بأنه إذا ما استطعت فقط أن تبين قدرة إنجلترا ، أو فرنسا، أو إسبانيا على جمع معلومات حقيقية أو زائفة عن شعوب أخرى، وتبين أيضًا أن عنصرية هذه القوى (وهو أمر ليس صعبًا فى العادة) ، تكون قد كتبت بطريقة مرضية إلى حد ما عن وجود إمبراطورياتهم واستمرارها . ولكنك لم تفعل. وحسبما جادل كينان ماليك **Kenan Malik** فيما يتعلق بالإمبراطورية البريطانية ، من السهل تمامًا أن تجد الدليل على الأوصاف العنصرية والأيديولوجيات العنصرية فى الماضى البريطانى، بيد أن البريطانيين لم يكونوا عرّافين مشعوذين. ولم يكن بوسعهم استخدام لغة عنصرية وأفكار عنصرية بطريقة سحرية وآلية لكى يجمعوا الأملاك على اتساع العالم[٢٨]؛ إذ كان يمكن استغلال العنصر لإضفاء الشرعية على السيطرة والتملك وكان هذا ما حدث فى أغلب الأحيان، بيد أنه لايقدم تفسيرًا شاملاً لكل من المعيار المخصوص وأوجه القصور التى شابت القوة الإمبراطورية البريطانية. وكما هو الحال على الدوام فإننا بحاجة إلى دراسة ضم الأراضى ودراسة تنويعة عريضة من القوى والعوامل لا أن نركز عليها فقط.

إذن، دعونى أختتم . إن إحدى مشكلات توجيه المرء لذاته نحو السؤال : «ما التاريخ الإمبراطورى (أو أى تاريخ غيره)؟»، تتمثل فى أنه من السهل أن يبدو سؤالاً فرضيًا وعقيديًا. إنه يحمل تكرارًا بأن مقاربات التاريخ الإمبراطورى التى عرضت لخطوطها العريضة فيما كان بالضرورة فصلاً موجزًا ليست مقاربات شاملة بشكل مؤكد وواضح، وإذا ما كان هناك ميدان للدراسة التاريخية يكون من الضرورى والمرغوب فيه أن «ندع ألف زهرة تتفتح»، فإن هذا هو الميدان. وأظل على قناعتى، بأى حال، بأن من الجوهرى- أيًا كان تخصص المرء داخل المساحة الشاسعة للتاريخ، من حيث البلد، والتتابع الزمنى، والمنهج، أو إمبراطورية بعينها، أو موضوع اهتمام خاص- أن نقوم بدراسة التاريخ المقارن أو تاريخ العناصر على مدى طويل **Longue durée** ، وأن نكون حساسين إزاء الروابط الكثيرة. ولا غنى عن الرؤية الواسعة الانتقائية ، لأنها هى الموضوع . وهذا ما يقودنى إلى نقطتى الأخيرة: وهى أن التاريخ الإمبراطورى، إذا ما تمت دراسته بشكل صحيح، يكون دراسة قاسية تتطلب الكثير. ومن الصعب ، يعلم الله، متابعة آخر البحوث والدراسات فى جانب واحد منفصل من ماضى بلد واحد . ولكى تطور معرفة حاذقة بالتواريخ والمجادلات فى طائفة كبيرة من الدول المتصارعة والمجتمعات على مدى فترة طويلة من الزمان أمر غاية فى الصعوبة ، ومع هذا يجب أن تتم المحاولة إذا ما أُريد للتاريخ الامبراطورى المزيد من التطور وانفتاحه باعتباره موضوعًا للدراسة.

وتزداد الصعوبة بشكل خاص على هذا الجانب من الأطلنطى لأسباب لاتكاد تحتاج إلى جهد لتوضيحها . فعندما تكون حتى المكتبات المتخصصة والوطنية مضطرة بسبب اعتبارات الميزانية إلى الاستقطاع من قيمة شراء الكتب باللغات الأجنبية، والدوريات والنصوص التاريخية التى لا يحكم عليها بأنها أساسية بما يكفى (وهو ما يعنى أنها ليست فى التاريخ البريطانى) وعندما يكون طلاب الدراسات العليا (والمشرفون عليهم) ممنوعين بسبب قيود الوقت والمال من تعلم لغات جديدة أو من زيارة

دور الوثائق فى أجزاء أخرى من العالم، وعندما يوضع الأكاديميون تحت ضغط لا يتوقف لكى ينشروا أبحاثهم، وبالتالى يتم حضهم فى اتجاه المؤلفات ذات الموضوع الواحد السهلة الدقيقة، فى موضوعات معتادة ، بدلاً من تشجيعهم على دراسة موضوعات جديدة، كبيرة ، مثيرة عابرة للثقافات ، فإن آفاق واحتمالات وجود تاريخ إمبراطورى مفسر على نحو كريم، متجدد الحيوية لا يمكن أن تكون جيدة . ومع هذا فإن من المهم أن يحدث هذا، وليس من أجل الأكاديميين فقط. وعندما كتب كار كتابه الكلاسيكى الذى نحتفل به ونحيى ذكراه فى هذا الكتاب، شكا من باروخية التاريخ البريطانى التى «تثقل مثل يد ميتة على منهجنا الدراسى» . وضيق أفق التفكير هذه «الباروخية» ما تزال تمثل أكثر من مشكلة اليوم ، بيد أنه كما حذرنا كار «بعجزنا أو عدم استعدادنا للفهم... فإننا نخاطر بعزل أنفسنا عما يجرى حقًا فى هذا العالم»(٢٩). إن للتاريخ الإمبراطورى أهمية عالمية. ولكن، فيما يخص هذه البلاد فإنه يقدم طريقًا واضحًا لدمج التاريخ البريطانى فى التاريخ العالمى، لكى نرى أنفسنا كما رآنا الآخرون وما يزالون يروننا، لكى نفحص الطرق التى لا تحصى، والكثير منها غير سعيد، التى تلاقت فيها الكثير من الأقاليم المختلفة فى العالم ، والشعوب المختلفة ، سويًا على مرّ الزمان، وتصادموا وتلاحموا. إن الإجابة النهائية على السؤال «ما التاريخ الإمبراطورى» فى حد ذاتها بسيطة جداً فى الحقيقة. إنه لا غنى عنه .

ملاحظات وهوامش

(١) I stress that these were undergraduate perceptions forged in the late 1960s and early 1970s. Major rewritings of British and other imperial histories were in fact already underway by this point - one thinks of R. Robinson and J. Gallagher with A. Denny, Africa and the Victorians (London: Macmillan, 1961) -but it took time for such revisionist work to impact fully on history teaching in the universities, never mind on ideas outside them.

(٢) On these points, see Dane Kennedy, 'Imperial History and Post-Colonial Theory', Journal of Imperial and Commonwealth History, vol. 24 (1996), pp. 345-63; and his 'The Boundaries of Oxford's Empire', International History Review, vol. 23 (2001), pp. 604-22.

(٣) Eric Hobsbawm, The Age of Empire, 1875-1914 (London: Weidenfeld and Nicolson, 1987), p. 60.

(٤) See David Armitage, The Ideological Origins of the British Empire (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), especially pp. 100-45.

(٥) Frederic Bancroft (ed.), Speeches, Correspondence and Political Papers of Carl Schurz, 6 vols (New York: G.P. Putnam's, 1913), vol. VI, pp. 119-20. For an excellent sample of recent revisionist work on American westward expansion, see William Cronon, George Miles and Jay Gitlin (eds), Under an Open Sky: Rethinking America's Western Past (New York: W.W. Norton, 1992).

(٦) Edward Said, Yeats and Decolonization (Belfast: Field Day, 1988), p. 6. Two recent works that place the Ottoman empire in a broader European and imperial context are Donald Quataert, The Ottoman Empire, 1700-1922 (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), and Dominic Lieven, Empire: The Russian Empire and its Rivals (London: John Murray, 2000).

(٧) Hamilton is quoted in Lieven, Empire, p. 17.

(٨) Though critics of empire also drew on versions of the Roman past to argue that imperialism necessarily resulted in corruption, loss of liberty and decay: see Anthony Pagden, Lords of all the World: Ideologies of Empire in Spain, Britain andFrancec.l500-c.l800 (London: Yale University Press, 1995).

(٩) See Richard White, The Middle Ground: Indians, Empires, and Republics in the Great Lakes Region, 1650-1815 (Cambridge: Cambridge University Press, 1991). This is an excellent example of what may be achieved by examining different imperial systems in tandem.

(١٠) See Lieven, Empire.

(١١) The Expansion of England (London: Macmillan, 1883).

(١٢) Dane Kennedy lists a sample of these in the articles cited in note 2 above.

(١٣) Though, as Professor Richard Evans informs me, it is possible that - as far as present-day racist politics is concerned - German outbursts are simply better-reported than the British variety.

(١٤) J.C. Van Leur quoted in Henk Wesseling, 'Overseas History', in Peter Burke (ed.), New Perspectives on Historical Writing (Cambridge: Polity Press, 1992), p. 74; Philip D. Morgan, 'Encounters between British and "Indigenous" Peoples, C.1500-C.1800', in Martin Daunton and Rick Halpern (eds). Empire and Others: British Encounters with Indigenous People 1600-1850 (London: University College London Press, 1999), p. 68.

(١٥) Armitage, Ideological Origins, p. 13.

(١٦) I am grateful to Dr Emma Rothschild of King's College, Cambridge, for information on this point.

(١٧) J.E. Cookson, 'Political Arithmetic and War in Britain, 1793-1815', War & Society, vol. I (1983), pp. 37-60; and Philip Harling and Peter Mandler, 'From "Fiscal-Military" State to Laissez-faire State, 1760-1850', Journal of British Studies, vol. 32 (1993), pp. 44-70.

(١٨) Quoted in Michael W. Doyle, Empires (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1986), p. 287.

(١٩) See their History of Parliament: The House of Commons 17S4-1790, 3 vols (London: HMSO, 1964), vol. I, pp. 138-45; and R.G. Thorne (ed.), The History of Parliament: The House of Commons 1790-1820, 5 vols (London: Seeker & Warburg, 1986), vol. I, pp. 306-13.

(٢٠) For a useful introduction to this issue, see Hew Strachan, The Politics of the British Army (Oxford: Clarendon Press, 1997).

(٢١) On this point, see Part One of my Captives: Britain, Empire, and the World 1600-1850 (London: Jonathan Cape, 2002).

(٢٢) James D. Tracy (ed.). The Political Economy of Merchant Empires (Cambridge: Cambridge University Press, 1991), p. 163.

(٢٣) C.A. Bayly, 'Returning the British to South Asian History: The Limits of Colonial Hegemony', South Asia, vol. XVII (1994), pp. 1-25.

(٢٤) I develop these arguments in Captives.

(٢٥) Norman Davies, Europe: A History (Oxford: Oxford University Press, 1996), pp.1068-9.

(٢٦) J.A. Moulding, Fit for Service: The Training of the British Army 1715-1795 (Oxford: Oxford University Press, 1981), pp. 7-8; Miles Taylor, 'The 1848 Revolutions and the British Empire', Past & Present, vol. 166 (2000), pp. 150-1.

(٢٧) There are some wise remarks on this point (and many others) in A.G. Hopkins, 'Back to the Future: From National History to Imperial History', Past & Present, vol. 164 (1999), pp. 198-243.

(٢٨) Kenan Malik, The Meaning of Race: Race, History and Culture in Western Society (London: Macmillan, 1996), pp. 231-2.

(٢٩) What is History? (London: Macmillan, 1961), pp. 145, 147.

(٩)

خاتمة : ما التاريخ الآن ؟

فيليب فرنانديز - آرمستو

قال كار إنه «سوف يحسد» أى مؤرخ لا يغير وجهة نظره بعد خمسين سنة من العمل[١]. وعلى الرغم من أن أربعين سنة فقط مضت منذ نشر كتاب **What is History?** فإنها كانت، حسبما كانت ستقول أرملة أحد النبلاء فى القرن التاسع عشر، أربعين سنة مثيرة، حافلة بالتجديد. ومثل الدراسات الأكاديمية الأخرى - وربما أكثر من معظمها فى بعض الجوانب - حفز التاريخ وعكس أيضًا تغيرات ضخمة فى المجتمعات الغربية الحديثة . إذ إن ثورة تنادى بالمساواة قد ضيقت الفوارق بين الطبقات، والجنسين، والأجيال ، والفئات ، وكل فصائل التنويعة الاجتماعية تقريبًا، فيما عدا الفجوة بين الغنىّ والفقير، التى استمرت فى الاتساع بقدر كبير من التماسك . وفى بعض الحالات ، ربما ، باعتبارها سببًا- ومن المؤكد أنها نتيجة - كان المؤرخون قادرين على عبور هذه الفجوات بسهولة متزايدة، متوغلين فى أجزاء من المجتمع لم تصل إليها التواريخ السابقة ، كاشفين تواريخ الأقليات التى كانت محرومة ومنبوذة من قبل، بما فى ذلك النساء والأطفال ، والعمال والمجرمون، والمرضى والمجانين. وفى الوقت نفسه، وبفضل الثورة الثقافية والسكانية التى أسبغت التعددية وتعدد الثقافات على معظم أرجاء الغرب - تراجع الإمبراطوريات البيضاء ، والاستعمار المضاد لعواصم العالم الغربى من جانب «الشعوب - الضحايا» سابقًا والشعوب الخاضعة من قبل لحركة الاستعمار - شعر المؤرخون أنهم قد تحرروا وتجهزوا لمحاولة القيام ببعض الاستكشافات الجديدة التى تنبأ بها كار ورحب بها ؛ أى دراسة تاريخ الشعوب التى قيل فى السابق إنها

«بدون تاريخ»[٢] – واحتضان التاريخ العالمى ، بما فى ذلك الموضوعات غير الأوربية فى التواريخ المقارنة ؛ أى دراسة تواريخ العرقيات التى كانت هامشية ذات مرة ، والاهتمام بتجربة العالم فى تحول سريع لفتح فصول جديدة فى دراسة الهوية . إن المعركة التى انضم إليها كار لجلب التاريخ «غير الأوربى» إلى كمبردج لم يكن ممكنًا خوضها بهذه الضراوة أو مقاومتها بهذا القدر من الصلابة والتماسك اليوم (على الرغم من أن مقاومة بالقصور الذاتى ما تزال واضحة فى بعض الجامعات) ، ولايمكن لأحد أن يكرر رأى هيو تريفور – روبر **Hugh Trevor - Roper** عن ١٩٦٣م بأن « الطلاب الذين لم يتخرجوا يخضعون لغواية ... الأسلوب الصحفى، ويطالبون بأنهم يجب أن يتعلموا تاريخ أفريقيا السوداء... ولكن اليوم ليس هناك أحد أو عدد قليل جداً منهم ... والظلام ليس موضوعاً يدرسه التاريخ»[٣].

وبالتوازى مع هذه الثورات الاجتماعية ، كان ما نسميه بشكل فضفاض «ما بعد الحداثة» قد عدل أيضا ممارسة الدراسة التاريخية، مثيراً تحدياً معرفياً كان يبدو مرعباً ذات مرة. ومثل المشاركين الآخرين فى هذا الكتاب الحالى، كتبت مذكرة عن المواجهة مع «ما بعد الحداثة» عندما بدا أنها تهدد بإفساد أعز بحوث المؤرخين التقليدية ؛ أى البحث عن الحقيقة وعن اللغة التى تعبّر عنها[٤]. وللحظة خشى المؤرخون من أن العاملين فى المكتبات فى المستقبل سوف يضعون كتب التاريخ على نفس الأرفف التى يضعون عليها القصص الخيالية . وفى رأيى أن هذا لم يكن ليكون شيئًا سيئًا ؛ إذ إن كتبى كانت ستنضم إلى صحبة الأدب الجيد. وعلى أية حال ، فإن ما بعد الحداثة ، قد برهنت على كونها نمراً من ورق ذا ملامح غير متناسقة مخيفة. وأقسام التاريخ فى الجامعات البريطانية الآن لديها بعض نماذج من أنصار ما بعد الحداثة، كما كان بها ذات مرة نماذج رمزية من النساء، ونماذج رمزية من السود. ولكن حتى حينما انحسر المدُّ، خلفت ما بعد الحداثة تواريخ غنية على الشاطئ ، مما شجع على التسكع على شاطئ التاريخ. فالتواريخ «الفعلية» ، وتواريخ الحقيقة المضادة ، والغامض ، والضمنى، وما فى الشعور ، والمتجاوز الذى يعكس الذات، وما يتعلق بالأعراض ، والتمثيلى ، وما فى اللاوعى وما جاء فى الحلم صارت فاتنة ولايمكن مقاومتها، أو على الأقل، مثيرة ومقبولة للجميع تقريباً .

- ١ -

والتاريخ ، باختصار، قد تكاثر ؛ إنه انفجر بالفعل . ولم يحدث أبدًا أن كان عمل المؤرخين المحترفين بمثل هذا التنوع. وثمة تغييران آخران ساعدا على هذا : الثورة فى تكنولوچيا المعلومات تسارعت بما تنتجه الدراسات والبحوث، وخلقت شبكات التعاون المشترك ووسَّعت نطاقها ،كما ولدَّت قواعد معلومات هائلة للعمل فى التحليل النصّى وفى مجال الفنون والآداب. وفوق هذا وذاك. انفجرت زيادة أعداد المؤرخين المحترفين مع التوسع فى التعليم العالى. وكانت النتائج مختلطة ؛ فقد كان من ضمنها لعنة المبالغة فى التخصص، فقد حفر المؤرخون فى أعماق أعمق من ذى قبل، حُفر أضيق حتى فى التربة الأكثر جفافًا حتى تنهار الفتحات ويتم دفنهم تحت جفافها . بيد أنه من ناحية أخرى، عندما يخرج المرء من حفرته، يجد الآن الكثير مما يستحق الدراسة فى المجال؛ الكثير جداً من العمل الجديد المثرى، الذى يمكن أن يغير منظور المرء أو يوسع من إطار عمله فى المقارنة. ببساطة هناك الكثير جداً لكى نتعلم منه . إن حجم الناتج ، بطبيعة الحال، لايمكن الآن بصراحة التحكم فيه . حتى المتخصص فى تخصص ضيق تمامًا لا يحتمل أن يكون مدركًا – ويكون أقل قراءة – لكل شىء له علاقة بتخصصه . ولا شك فى أن ما ينتج عن ذلك من إحساس بعدم اليقين يسهم فى حيرة ما بعد الحداثة ويشجع على الشك الجامح حول تحكمنا فى حقائق الماضى. وحتمًا يعنى نمو الناتج زيادة الغث من الأبحاث، ولكنه يعنى زيادة إمكانية العمل الجيد أيضًا. ولم أعد أعرف ماذا يشبه أن تكون شابًا ، ولكنه النعيم أن تكون حيًا تعيش فى فجر مثل الفجر الذى نعيشه، فعندما تكون مؤرخًا يعنى أن تكون جزءًا من جماعة منتجة من الرفاق الباحثين بشكل غير مسبوق ، وعندما تكون هناك أعمال تاريخية مثيرة ومتطورة أكثر من أى وقت مضى.

وسوف يشعر القراء بأن هناك «لكن» فى المنظور القريب. لقد تعلمنا الكثير جداً فى السنوات الأربعين الماضية: الكثير جداً من الشك، والكثير جداً من العلم. كما أننا نسينا الكثير جداً . لقد نسينا كيف ندافع بنجاح عن المكان الممتاز للتاريخ فى مناهج

المدارس. ونسينا كيف نبقى على اتصال كامل مع معلمى التاريخ فى التعليم ما قبل الجامعى وكيف نغذى عملهم بالإدراك والإنعاش والتأثيرات الحيوية للبحوث الجديدة: إننى أقول هذا ليس من أعلى لأسفل **de haute en bas** ولكن مثل محارب بخندق عبر أرضًا بلا صاحب وأمضى وقتًا طويلاً ينطق باعتباره مدرسًا بمدرسة . وأى مؤرخ محترف علَّم ورقة إجابة أو قام بعمل امتحانات مماثلة سوف يعرف ما أعنيه .

وإذا ما تعمقنا أكثر فى الساحة العامة، يبدو أننا قد نسينا كيف نؤثر فى الجدل وفى السياسة حول الموضوعات الرئيسية اليوم. إننى يمكن أن أفكر فى كثير من الأمثلة، بسبب السنوات الحديثة، فى السياسة الحكومية التى صيغت - بدرجات متفاوتة من الكارثية - فى الجهل الفاضح بالماضى. ويمكن أن أفكر فى حالة واحدة فقط للسياسة المتأثرة بالبحث التاريخى الجديد. ومن سوء الحظ أنها حالة تقدم القليل من التشجيع : استعداد حكومة تاتشر الباكرة فى المملكة المتحدة لأن تتقبل نسبة البطالة العالية على أنها «ثمن يستحق أن يُدفع» من أجل خفض التضخم الذى كان من الواضح تأثره بالعمل الذى قام به سيدنى بولارد **Sydney Pollard** وآخرون من محيطه لمراجعة عمله عن الاقتصاد البريطانى فى ثلاثينيات القرن العشرين . ولست أصر على أن المؤرخين من شأنهم أو عملهم أن يوثروا على السياسة ، إننى فقط أتمسك بأنه من المثير أنهم فعلوا هذا ذات مرة وكيف أنهم لم يعودوا يفعلونه. وقد تم تزيين حجرة القراءة التى خصصت لأعضاء اللجنة التشريعية فى الولايات المتحدة بمكتبة الكونجرس فى سنة ١٨٦٩م بشكل فخم ولكن بها صورتين فقط، تواجه كل منهما الأخرى من فوق المدفأة الضخمة فى كل من جانبى الغرفة، بحيث تسيطران عليها وتذكر رجال الكونجرس بواجباتهم وتمثل الصورتان ، على التتابع ، القانون والتاريخ . ومن الصعب أن نتصور التاريخ يحتل مكانًا مشابهًا فى إطار أيقونوجرافى له القصد نفسه اليوم.

وأخيراً ، نسينا كيف ننجز فى الساحة العامة. وهذا أمر مهم لأن أية إجابة على السؤال «ما هو التاريخ الآن؟» يجب أن تتضمن ما يعنيه التاريخ لكل شخص مهتم به ، وليس فقط أولئك الذين كان من حظهم أن كرّسوا أنفسهم لهذه المهنة. كان المؤرخون

الذين رضى بهم «كار» هم المفكرون البارزون فى أيامهم والذين كانت مجادلاتهم تذاع عبر اللاسلكى وتنشر على صفحات الصحف . ولأسباب سأتطرق إليها بعد قليل، لن نرى فى الظروف الحالية أمثال إشعيا برلين **Isaia Berlin** ، وهيو تريڤور روبر **Hugh Trevor - Roper** وتايلور **A.J.P. Taylor** مرة أخرى. واليوم، يحظى الماضى بشعبية حقيقية ؛ ففى الواقع، ربما لم يكن هناك أبداً مثل هذا الاهتمام العام بالماضى والإقبال عليه ، على الرغم من ، وربما بسبب ، انكماش التاريخ فى مناهج الدراسة . وعلى أية حال، فإن الماضى ذا المذاق الشعبى، ليس كله ، الماضى الذى يكشفه الباحثون المحترفون. ومساحات النمو الكبير اليوم هى ما تسمى خطأً «تاريخ الأسرة»– وهو بحث خاص فى شجرات النسب– «والموروث». كانت هذه مناطق لم يتطرق إليها كار أو يتوقعها . وقبل أن أعود إليها، أقترح أن أنظر ورائى على أكثر العناصر بروزاً فى الموضوع الذى ناقشه كتاب **What is History ?** ، وأسأل كيف كان يجب تعديلها للإجابة على السؤال، ما التاريخ الآن ؟

واختيار «كار» للعنوان مهم ولكنه لقى إهمالاً. فاليوم يشارك المشاركون بسعادة فى عمل عنوانه «ما التاريخ الآن؟» لأن الإضافة التى تحملها الكلمة الأخيرة لها تأثير تحويلى على الجملة. فهى تحمل مغزى أنه فى لحظة من الزمن يمكن للتاريخ أن يكون شيئًا آخر، كما سيحدث بالفعل. لقد تمت صياغة السؤال بطريقة تلمح إلى خاصية التقلب الجوهرية فى الموضوع . وأن تسأل «ما التاريخ؟» يعنى سؤالاً آخر أقل جاذبية . ولن أسميه سؤالاً بلاغيًا ، لأنه ليس بلاغيًا فى شكله . ولكنه بلاغى بمعنى أنه يتوقع بالفعل ويستدعى نمطًا معينًا من الإجابة ، من نوع «التاريخ هو **P**» أو «التاريخ هو **q**» إنه ضمنًا سؤال فرضى أو سؤال تحريمى. وفى الواقع ، أنه على الرغم من كونه متفتحًا بمقاييس أيامه، قد التقط العلف من العربة فعلاً . لقد أدان «كار» عمل الحقيقة المضادة ، ووضع المعايير الأخلاقية وما أسماه اللاهوت والأدب. واليوم، أظن ، أن معظمنا يودون أن يكونوا أكثر كرمًا ويتخذون شعارهم **nihili humanum alienum** ، أو حتى الشعار الأكثر شمولاً **todos es historia** – وهو عنوان الدورية التى تصدرها أكاديمية التاريخ فى أمريكا اللاتينية – إن كل ما نفعله أو نفكر فيه، وكل ما نتخيله بشأن المستقبل يتحول بسرعة إلى ماضٍ ، بحيث يصير موضوعًا يناسب البحث التاريخى .

وهناك طريقان آخران يجب أن نعترف من خلالهما بأن التاريخ يشمل فى الأصل كل شىء دونما تحديد. فهو أولا يشمل الناس جميعًا . ولست أعنى أنه يشمل الناس جميعًا باعتبارهم مجرد أشياء يدرسها ، على الرغم من اتساع مداه بحيث يشمل كافة الأنواع والأحوال، وهو أمر محل ترحيب كبير للغاية، وإنما باعتبار الناس مشاركين . ذلك أن التاريخ هو الأكثر انفتاحًا وسهولة بين العلوم الدراسية الأكاديمية . إذ إن كل إنسان يمكن أن يدرس التاريخ ، والواقع أن الجميع يدرسونه بالفعل ، لأن لكل واحد تجربة من الماضى، والجميع يمكنهم الوصول إلى مصادر قصصهم بشكل ممتاز . ولاتتطلب دراسة التاريخ تدريبًا خاصًا، سوى فى مهارات متواضعة يمكن لأى شخص متعلم أن يلتقطها بسرعة وسهولة شديدة دونما مساعدة . وهناك أسباب جيدة لأن تكون طالب دراسات عليا فى التاريخ، ولكن تحقيق قدرة حرفية خاصة، أو معرفة مخصوصة لاتبارى، ليست من بين هذه الأسباب . وكتب التاريخ المفضلة لدى تتضمن كتبا ألفها علماء ، ومحامون ، وراهبات . و«كار» نفسه، الذى لم يحصل أبدًا على درجة علمية أو وظيفة فى التاريخ ، خير مثال على هذه النقطة. وهذا أحد الأسباب العديدة فى أنه يجب على المؤرخين أن يتجنبوا اللغة المضطربة والرطانة غير المفهومة ؛ وهو ملاذ أولئك الأوغاد الذين يريدون جعل أعمالهم غير مفهومة للمبتدئين . إن التواصل هو ما يميز الكتابة التاريخية الجيدة . وآخرون ينبغى أن أضيف ، ما دمت لا أرغب فى أن أجعل ذلك ضمنيًا لأن التاريخ مفتوح للجميع – الجميع كلمة مناسبة – مخلصون للمصادر فى تقديم رواية للماضى تخيلوها بشكل مقنع واستدعوها فى صورة حية.

ومثلما يتضمن التاريخ الناس جميعًا ، ينبغى أن يضم كل العلوم. وإذا ما كانت ذاكرتى سليمة، فإن السبب الذى دفعنى لأن أصير مؤرخًا كان الشره المطلق لاهتماماتى . وإذ كنت غير قادر على أن أختار بين العلوم الدراسية التى اجتذبتنى ، فإننى قد ثبتُّ على العلم الذى ضم قدرًا قليلاً من كل العلوم الأخرى. إن التاريخ هو العلف لجحش بوريدان **Buridan** . وبعض العلوم، بطبيعة الحال، تساعد أكثر من البعض الآخر. فالأنثروبولوجيا ، كما حدث وعرفنا منذ كتب «كار» ، ذات صلة وثيقة ، لأنه حتى ماضى مجتمع المرء نفسه عبارة عن ثقافة أخرى، حيث «يفعلون الأشياء على نحو مختلف» .

وينبغي أن تكون دراسات الأدب والفن محل اهتمام المؤرخين، أولاً، لأن العمل الإبداعي، في الماضي مصدر ثمين للصور والمشاعر التي ألهمت الفكر والسلوك ، ثانيًا لأن النصوص والأدلة الماضية ينبغي تفسيرها بمساعدة كافة الأساليب النقدية التي يمكن للفروع المعرفية المشتركة أن تجعلها متاحة. فعلم الآثار منبع لاينضب للأدلة اللازمة للمؤرخين . إن المؤرخ المسكين هو الذي لايعرف أي قدر من الفلسفة أو الاقتصاد أو اللاهوت . ولم أنجذب أبداً إلى علم الاجتماع ؛ إذ إنني أربط هذا الفرع المعرفي بالتعميم المفرط والعادات البروكروستيسية(*) في القولبة داخل النماذج، ومع هذا وجدت بعض النظريات الاجتماعية الكلاسيكية ذات فائدة ضخمة في عملي الحديث، مكرسة لفهم أنواع جديدة من العلاقات التواصلية التي صيغت في المجتمعات الاستعمارية الجديدة(٥). واللغويات مهمة ليس بسبب تأثير «المنعطف اللغوي» في الإنسانيات بقدر ما يرجع السبب إلى أن التغيير في اللغة مقياس ومؤشر لكل أنواع التغير التاريخي الأخرى. ويمكن للرؤى الثاقبة في علم النفس أن تحدث تأثيرًا ضخمًا ، ليس فقط بالنسبة للأنواع الواضحة من التاريخ النفسي الذي يمارسه المؤرخون الذين يكتبون السير والتراجم، وإنما أيضًا في الجهد المبذول لفهم العقليات الجماعية والعلاقات بين المجموعات الاجتماعية . وإذا ما أخذت مثالاً من مجالي الخاص ، فإنني أشك في أن المشكلة المربكة دائمًا عن كيفية عمل الإمبراطورية الإسبانية في العالم الجديد في القرن السادس عشر سوف تصير مفهومة أكثر عندما تبدأ في التفكير بطريقة علم النفس فيما يتصل بالعلاقات بين شباب الأرستقراطية الذين غالبًا ما كانوا قد فقدوا آباءهم والنخب الواصلة حديثًا من القساوسة والغزاة ، الذين يضطلعون بأدوار شبه أبوية(٦) . وتتردد أصداء التداخل بين فروع الدراسة والمعرفة في ثنايا هذا الكتاب ؛ متابعة تخصص المرء في قناعة بأنه يمكن اختراقه ، وبأنه يتطابق مع تخصصات أخرى، وبأنه الأكثر ثراءً للتخصص .

---

* نسبة إلى بروكروستيس Procrustes ، وهو لص أسطوري ابتدعته الأساطير الإغريقية كان له فراش يُمدد عليه ضحاياه، ويمطُّهم إذا كانوا قصار القامة حتى يناسبوا مقاس سريره ، أو يقطع أطرافهم إذا كانوا طوال القامة. والمقصود هنا قولبة الأشياء بشكل تعسفي . (المترجم)

وفوق هذ وذاك – ومن بين فروع المعرفة التى تنتمى إلى صندوق عدة المؤرخ – وعلى الرغم من أن «كار» أصر على أن التاريخ علم ، فلست أظن أنه قـدَّر ، على نحو ما بدأنا نفعل اليوم، الدرجة التى ينبغى أن يصل إليها تعليم المؤرخ علمياً. وهذه ليست فقط مسألة تقدير المتشابهات بين العمليات التاريخية والتغيرات التى تجرى فى العالم الطبيعى، أو فى تطبيق علوم بعينها على دراسة الماضى، كما يحدث ، مثلاً ، فى المساعدة على حل مشكلات التتابع الزمنى المرتبطة بشذرات من الأدلة المادية، أو فى تطبيق الجينات على دراسة الهجرات بالطريقة التى كان رائدها لويجى كاڤاللى – سفورزا[٧]. بيد أن الأهم هو معرفة أن التاريخ لايمكن أن يبقى بعد ذلك معسكراً فى إحدى «الثقافتين» . فمن الواضح أن البشر جزء من السلسلة الحيوانية المتصلة . ونحن واقعون فى شباك البيئة الحية التى نحن جزء منها، وفى ظنى لا شىء فى التاريخ الإنسانى يمكن أن يكون كامل المعنى بدون الرجوع إلى بقية الطبيعة[٨]. وهذا هو السبب فى أن علم البيئة الحيوية التاريخى، أو التاريخ البيئى، يستحق مكاناً متزايداً فى المقررات الدراسية . وهذا أيضا السبب ، على مستوى أكثر عبثاً ، فى أنه حينما يسألنى الناس «ما هى فترتك؟» أجيب دائماً «من الطين البدائى حتى المستقبل» ، وعندما يسألوننى «ما مجال تخصصك؟» أقول «إننى أعمل كوكباً واحداً فقط». ويجب أن يكون التاريخ الآن ملماً بالمعارف العلمية لكى يشمل البيئة الطبيعية. ولكى أدرس البيئة الحيوية التاريخية، علىَّ أن استأنف دراستى العلمية فى سن الأربعين، بعد أن توقفت عنها، بالطريقة التى كانت المدارس الإنجليزية توافق عليها من قبل، فى سن الرابعة عشرة. إننى أعتبر المؤرخين الشبان الآن ينعمون بامتيازات عظيمة. لأنه كان عادياً أنهم عندما وصلوا إلى الجامعة، كانوا قد حصلوا قدراً قليلاً من العلوم الطبيعية على الأقل.

– ٢ –

من المستحيل إجابة سؤال «ما التاريخ الآن؟» دون إثارة السؤال القائل «ما الذى يسعى إليه التاريخ؟» وعلى الرغم من أن «كار» لم يطرح هذا السؤال ، فإنه قد أجاب عليه ضمناً فى سياق كتابه. وما تزال إجابته تحظى بمن يتعاطفون معها،

ممن يطلبون من التاريخ أن يفسر لهم الحاضر، وأن يشكل لهم المستقبل ، خدمة لأجندة سياسية أو اجتماعية ، التى كانت فى حالة «كار» مرتبطة بمفهومه عن التقدم. إننى لا أريد أن أوقف المؤرخين عن الدراسة وهذه الأهداف فى أذهانهم، إذا ما كانوا يرغبون فى هذا، ما داموا صرحاء وواضحين بشأن ما يفعلونه ، بحيث لايتم تضليل أحد. بيد أن هذا يتناقض بالفعل مع أحد أعز شعاراتهم الخرقاء ، أننا ندرس الماضى لأجل الماضى. وأنا أشارك فى اعتراضاتنا القديمة لربط مشروعنا التاريخى بأى غرض خاص، على الرغم من أنه شىء مثبط للهمة إذا ما قلته للناس الذين ينبغى عليهم أن يملأوا طلبات تمويل الأبحاث. وهناك، فى إذعانى، سببان وحيدان لدراسة أى شىء: تعزيز الحياة، والاستعداد للموت . ودراسة التاريخ تعزز الحياة لأنها تستدعى إلى الذهن سياقًا حيًا لتقدير وفهم المواجهات مع الناس والصنائع، مع الشوارع والنصوص، مع الفضاء الرحب والأطلال . ودراسة التاريخ تعدُّك للموت بزرع ما أسماه كار «التعمق العاطفى» ، أو مسميات أخرى لم يكن كار ليوافق عليها[٩]. فعن طريق توسيع الذهن، وممارسة القدرة على فهم الآخر، يكون للتاريخ تأثير أخلاقى على من يدرسه ؛ إذ يمكن أن يجعل منك شخصًا أفضل. بيد أن الفروع المعرفية الأخرى يمكن أن تكون لها تأثيرات من هذه النوعية . وأفضل ما نبرر به التاريخ أن نقول إنه لايحتاج إلى تبرير . فهو كل شىء ، ولا مهرب منه .

بعد العنوان، كان الشىء التالى الذى يصدم قُرَّاء كتاب كار فى زمانه ، مذهبه عن الحقيقة التاريخية التى بدا – كما تتذكر أليس كيسلر – هاريس **Alice Kesseler - Harris** مخربًا ومضللاً بسبب تحديه للفروض التقليدية عن الموضوعية التاريخية. وقد تعرض مذهب كار للكثير من النقد؛ فقد أفسده التداول والجدل ، لأنه يقدم الحقيقة التاريخية باعتبارها حقيقة يستخدمها المؤرخون ، ويقدم المؤرخين بوصفهم أناسًا يستخدمون الحقائق التاريخية . ومثاله الوحيد العظيم عن «حقيقة حول الماضى» فى مجرى التحول إلى «حقيقة تاريخية» ، قد تحولً، بفعل تدقيق ريتشارد إيڤانز **Richard Evans** ، ربما إلى شىء ليس حقيقة على الإطلاق، وإنما إلى ذكريات حافلة بالأخطاء[١٠]. إلا أن كار كان محقًا بشأن طبيعة الحقائق بطريقة لم ينل فيها ما يستحق من تقدير.

فقد أدرك أنه كانت هناك موضوعية حقيقية ، رواية صادقة عن الماضى، تنتظر من يجدها ، ولكن ما أسماه «عملية» الاختيار والتفسير أزاح بالضرورة عمل المؤرخ بعيداً عن تلك الحقيقة كما تنازل بخصوص الموضوعية التى تم تقديمها بها. وهذا أمر صحيح بالتأكيد ، فالحقيقة موجودة هناك فى مكان ما . ولكننا لسنا مجهزين للوصول إليها.

بيد أن كار تغاضى عن ثلاث نقاط يمكننا الآن أن نمضى بشكوكه فيها إلى مدى أبعد: أولاها، يمكننا أن نقول إن الحقائق التى نعرفها بالفعل معرفة موضوعية، وعلى وجه اليقين، إنما هى حقائق فقط عن المصادر . وبالنسبة لعمل يحمل عنوان **What is History?** يبدو كتابه بريئًا من المصادر بشكل مذهل ، على حين أن كل شىء فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن، وكل شىء فى الدراسات التاريخية الحديثة ، مشبع بالإشارة إلى المصادر . والحقائق التى لدينا ليست هى تلك الحقائق التى تتصل بالماضى عموماً، وإنما هى حقائق عن المصادر بصفة خاصة : فنحن نستطيع فقط أن نعرف ما تقوله المصادر ، وليس- بطبيعة الحال- الحقائق الأبعد مدى التى تكمن وراءها ، لأن المصادر هى الجزء الوحيد من الماضى الذى يمكن الوصول إليه بحواسنا وإدراكنا . أما الحقائق الأبعد مدى فيمكن أن نعرفها فقط باعتبارها احتمالات ، إذا كان مثل هذا المصدر أو ذاك يمكن الاعتماد عليه، يمكننا أن نقول إذن إن ما تقوله هذه المصادر حقيقى. ولهذه الأسباب ، فإن الماضى الذى ندرسه بوصفنا مؤرخين ليس هو الماضى «كما كان حقًا»، بل هو ما يبدو أنه موجود فيه . وتمثل القائمة المتزايدة من الكتب التى تتناول تاريخ العواطف، والمشاعر، والحساسيات وحالات القلق، وما إلى ذلك اعترافًا محسوساً بهذا.

ثانية هذه النقاط، أن الموضوعية التى نلتزم بها ، ولكننا غير قادرين على تحقيقها ، إنما تكمن فى الكم الكلى لكافة أشكال الذاتية الممكنة ، تلك الذاتيات التى رتبتها ميرى روبين فى مشاركتها ضمن هذا الكتاب بشكل أخّاذ . وهذا هو السبب فى أن البحث التاريخى يجب أن يغيّر منظوره دائمًا ؛ إذ إننا حين نغيّر المنظور ، إنما نجمع عدداً

كبيراً من الرؤى ونقترب بذلك من الموضوعية التى تكمن فى مجمل هذه الرؤى . ولأننى لا أتوقف عند الشكوك بشأن ما هو صحيح سياسيًا ، أقول لتلاميذى دائمًا إن التاريخ مثل غادة حسناء تستحم بين أوراق الشجر، وتلمحها؛ وكلما غيرت النقطة التى تنظر منها تكشفت لك أكثر. وهذا أمر لاصلة له بالنسبية ، التى أستبعدها برمتها. والسبب الثالث والأخير لدىَّ فى المصادقة على تشاؤم كار وتوسيع مداه، هو بحد ذاته حقيقة علمية صعبة ، وقابلة للتحقيق والتدقيق، أعنى القصور الواضح فى الذاكرة الإنسانية ، ويدهشنى حجم الاهتمام الضئيل الذى يوليه المؤرخون للذاكرة، لأن الكثير جداً من المصادر التى نعتمد عليها تمرّ من خلال وساطة الذاكرة قبل أن تصل إلينا. والبعض منا يعطى طلابنا تكليفًا بالقراءة عن الذاكرة الاجتماعية أو ما يسمى الذاكرة الجماعية ويفكرون مليًا فى القاعدة التى تقول بأن «الماضى ليس محفوظًا، بل أعيد بناؤه على أساس الحاضر»[١١].

بيد أن مشكلات الذاكرة أبعد من ذلك كثيراً ؛ فهى تمتد إلى جذور الذاكرة الفردية التى تعتمد عليها الذاكرة الاجتماعية، والتى على أساسها تم تأليف معظم المصادر التاريخية . إن ما نعرفه عن الذاكرة، بخلاف أنها ذاكرة سيئة فى العادة، قليل جداً. وقد كان هناك قدر هائل من العمل فى السنوات الأخيرة قام به علماء النفس والأنثروبولوچيون ، وقبلهم جميعاً علماء الوظائف الحيوية للأعصاب، تضافروا جميعاً لتقويض إيماننا بالذاكرة بدرجة أكبر. وقد شبه أحد المتخصصين فى علم النفس، وهو آلان باديلى **Alan Baddeley** ، الذاكرة بآلية تحتال بها لكى نتملّص من الحقائق الكريهة ، وهى تشبه تمامًا مصيدة تمسك بهذه الحقائق[١٢]. ومن بين علماء الأنثروبولوچى ، وفى عمل قدمه چاك چودى بشكل جيد **Jack Goody**[١٣] نجد المزيد من الاعتراف بأن الثقافات التى ليست لها أبجدية مكتوبة ، والتى تنتقل شفاهًا ، لاتتحجر، كلمة بكلمة ، فى نظم استرجاعية ملحمية، وإنما يعاد إبداعها بشكل أساسى ، ويُعاد اختراعها بكل أنواع إعادة الحكى. والذاكرة مغطاة بخيوط اللُحمة التى تحتاج إلى خيوط السداة. إنها ليست طريقًا سريعًا للسفر فى الزمن، إن الماضى الذى تأخذك إليه معًا لم يحدث

أبداً فى الحقيقة بالطريقة التى تظنها . إن التذكر هو نداء واحدة من السيرانيات(*). وربما يكون من المدهش أن هذا هو بالضبط ما يمكن أن يتوقعه المرء من نتائج العمل التجريبى الذى تم فى السنوات الأخيرة على أيدى علماء عارفين قاموا بتجاربهم مع أشخاص متعلمين أثبت أن الذكريات «مسجلة» فى بيئة من النشاط العصبى المحموم تنطلق فيها نقطة الاشتباك العصبى وتتولد البروتينات ، وفى تقدير العالم البارز دانييل شاشتر **Daniel Schachter**، أن من المستحيل عمليًا افتراض أن الذكريات مسجلة دونما تغيير :

«إن الذكريات ليست أبداً نسخًا مطابقة للحقيقة الخارجية ؛ فقد أظهرت الدراسات النفسية والتسجيلات الكهربائية من المخ أنه لا يتم تلقى المعلومات الحسية الواردة بصورة سلبية ... وبهذا المعنى تكون جميع الذكريات «مختلقة» وليست «ملتقاة» كما هى ببساطة. كما أنه لاتوجد ذكرى أو صورة ذهنية تحاكى بالضبط مجموعة النبضات العصبية المرتبطة بالإحساس الأولى . أما تجربة الماضى، بعد أن تتحول إلى قوة الروابط فى نقطة الاشتباك العصبى فى جميع شبكات الأعصاب التى تم تنشيطها ، فإنها تُعدِّل المعلومات الداخلة إلى المخ»[١٤].

وهذا، بالنسبة للمؤرخين، المعادل لمبدأ الشك بالنسبة لعلماء الطبيعة، إذ إن البيئة التى يتم فيها استعادة الذكريات تقدم المزيد من مستويات عدم اليقين، على حين أنها فى الوقت ذاته توهم المتذكر «باقتناع بالدقة التى لاتدعمها المعلومات التجريبية»[١٥] . إذن ، فالذاكرة تبتعد دائمًا عن الحقيقة على الرغم من أنها، لأسباب ما نزال نجهلها ، تعمل على نحو أفضل فى بعض الحالات منها فى حالات أخرى. وما لم نفهم كيف تظهر الفروق بين الذاكرة الجيدة والذاكرة السيئة ، وحتى يحدث هذا ، فإن الحذر والشك هما أحسن ما نلجأ إليه .

(*) السيرانيات، كائنات خرافية تحدثت عنها الأساطير الإغريقية القديمة، لها رؤوس النساء وأجسام الطيور. وكانت السيرانيات تصدر أصواتًا ساحرة تخلب ألباب البحارة ، وتجذبهم نحو مصدر الصوت حيث يلقون حتفهم . (المترجم)

وبعيداً عن الفقرات التى كتبها كار عن الحقيقة ، فإن مذهبه فى السببية هو الجزء الذى يلفت النظر أكثر من غيره فى كتابه. وفى هذه الأيام أنا زائر منتظم لمدرسة لندن للدراسات الاقتصادية London School of Economics ولكنى لم أزرها للمرة الأولى سوى منذ شهور قليلة . وقد ذهلت عندما وجدت شعاراً على الحائط، فى المدخل الرئيسى ، وبحروف من ذهب، اقتباساً من نص آخر، عرفته جيداً مثل قول كار، فى شبابى ، من الإنيادة التى كتبها ڤرچيليوس Virgilius(*). وكانت الكلمات على الحائط تقول :

Felix qui potuit rerum cognoscere causas «السعيد هو الذى يعرف أسباب الأشياء» ويمكن أن أتذكر أننى قرأت هذا السطر عندما كنت فى حوالى السادسة عشرة، وأننى كنت أفكر فيما بينى وبين نفسى فى هذه النكتة الجيدة التى قالها ڤرجيليوس، لأن عالم فرچيليوس يشبه عالم نظرية الفوضى ، حيث لا يمكن تعقب الأسباب أو رصد التأثيرات . والأقدار تهوى بعيداً عن الأنظار، موجهة التاريخ صوب هدف مقدر ومكتوب . وفى الوقت ذاته ، على أى حال، تظل التدخلات الاعتباطية للناس المتغيرين والآلهة ذوى النزوات تظل تلوى الخيط وتطرقعه. وما يجعل الإنيادة قصة جيدة هو أن من المستحيل أننا لا نعرف ما سوف يحدث بعد ذلك . ولاتستطيع أن تعرف أسباب الأشياء؛ ومن ثم لايمكن أن تتوقع نتائجها . بيد أن هذه السخرية من جانب ڤريجيليوس قد انتقلت على حوائط مدرسة لندن للدراسات الاقتصادية فى عبارة رصينة أخذت بشكل حرفى تماماً . وهو نفس نوع العبارة التى تجد صداها يتردد فى كتاب كار، فيها يكون التاريخ سبباً بعد آخر وسلاسل الأسباب هذه هى التى تضم السرَّ كله . إن التاريخ يمتد بشكل مترابط ، مثل العمود الفقرى لديناصور أمريكى ضخم.

يبدو التدوين التاريخى الحديث كأنه يعترف بعدم إمكانية القبول بهذه الطريقة فى تصوير الماضى. إن معظم السلاسل طويلة المدى من الأسباب الموروثة عن التدوين التاريخى للأجيال السابقة، تتحول مع الفحص الدقيق ، إلى سلسلة من حلقات هشة . ويقوم المؤرخون الآن بتحويل النظم الكبرى إلى شظايا . ولايشعر أحد بالحاجة

(*) شاعر الإمبراطورية الرومانية الشهير وكاتب ملحمة عرفت باسم «الإنيادة» حاول فيها أن يقلد «الإلياذة» الإغريقية المعروفة التى تنسب عادة إلى الشاعر هوميروس . (المترجم)

إلى العودة إلى الإمبراطور أغسطس لفهم سقوط روما . وقد حدث الإصلاح الدينى بسبب الطريقة التى كانت عليها الأمور فى القرن السادس عشر ، وليس بسبب الطريقة صارت عليها فى العصور الوسطى . ويظن الآن معظم المتخصصين أن الحرب الأهلية الإنجليزية يمكن فهمها على أحسن وجه فى سياق الجيل الذى سبق نشوبها مباشرة. وقد تم تشريح أصول الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية والحرب العالمية الأولى بأنصال مماثلة. ويمكن تقديم المزيد من هذه الأمثلة . وأنف كليوباترا يشبه أجنحة الفراشة . ومعظم بقية موضوعات كار - محاولات نفى الفرد، ونفى ما هو فريد وتجريم صاحب الخلق، وتخصيص العلم لأغراض معينة ، وإضفاء المادية على التقدم - يُنظر إليها الآن على أنها من طراز قديم ، ولكن من المحتمل أنها كانت بالفعل تصرفات من يمثلون نفاية المجتمع فى أيامهم ويمكن تنحيتها على اعتبار أنها مسائل لايحتمل أن تساند الجدل الحالى. وسيكون من المفيد أكثر أن نكرس السطور الأخيرة الباقية عن التغيرات التى لم يتوقعها كار، والتى تجعل التاريخ الآن مختلفًا عن العلم الذى وصفه.

- ٣ -

إن جزءًا من النمو الانفجارى الحديث فى التاريخ ، الذى أبدأ بالاحتفاء به، كان فى مجال الذوق والطلب الشعبى، الذى أسهم فيه المؤرخون المحترفون قليلاً وكادت استجابتهم له أن تكون معدومة تمامًا . والبحث الخاص فى شجرات النسب مهم جدًا وبشكل واضح. والمؤتمر الذى اتخذ فيه هذا الكتاب شكله كان متأثرًا بدرجة هائلة عندما سمع من إليزابيث هلام - سميث **Elizabeth Hallam - Smith** أن سبعين بالمائة من الباحثين فى مكتب السجل العام **Public Record Office** منشغلون بهذا، إلا أنه بقدر ما أعرف لم يحدث أن قامت أية مؤسسة أكاديمية بالاهتمام كثيراً بهذه الظاهرة . وعالميًا ، عطلنا بشكل ما الإسهام المؤسسى فى هذه المنطقة الممتدة من التدوين التاريخى الشعبى إلى كنيسة يسوع المسيح لقديسى اليوم الآخر، التى رفعت طقوس العماد فيها أعضاء الكنيسة إلى أعمال بطولية لاقتفاء آثار أسلافهم . ونحن لا نستطيع استبعاد هذا الموضوع على أنه ليس محل اهتمام ، وكتاب الأنساب الهواة

باعتبارهم مجرد أثريين . والاهتمام بالآثار والعاديات هو الأساس للمعرفة التاريخية والبحث فى الأنساب يمكن أن يحرق الآجر الذى به يتم بناء الصروح التاريخية .

وعلى امتداد ما يسمى بـ «تاريخ العائلة» ، فإن القطاع المعروف باسم «الموروث» هو الآن بالنسبة لكثير من الناس نقطة الاتصال مع التاريخ، بفضل ضعف مكانة التاريخ فى المقررات المدرسية . وبعض هذا يتم بأيدى أمناء المتاحف المدرسية. والكثير منه، على أية حال، تحت رحمة اقتصاديات ضيقة الأفق، كئيبة وغبية ، ويسهم المؤرخون بالقليل نسبيًا من التوجيه . وباعتباره مصدرًا للمعلومات التاريخية يُعدُّ «الموروث» هزيلاً فى ما يصل إليه قياسًا إلى التليفزيون . وفى أيام كار ، كان من السهل على المؤرخين المحترفين أن يتحكموا فى تقديم التاريخ ونتاجه على شاشة التليفزيون، لأن المحاضر الجذاب كان يكتب أو يرتجل ما كتبه وكان يحدد اختيار الصور، إذا كانت هناك صور . وقد حاضر تايلور **A.J.P. Taylor** للتليفزيون بالطريقة ذاتها التى كان يحاضر بها للفصل دونما تعديل فى الأسلوب . كما كان كينيث كلارك **Keneth Clark** يسمى اللقطات التصويرية حرفيًا. ونادرًا ما كان مخرج چاكوب برونوفسكى يعرف ، حتى عندما تدور الكاميرات ، ما الذى سيقوله فى تقديم مادته[١٦] .

تلك الأيام ماضٍ انقضى ولن يعود، وأعرف أن هناك بعض مقدمى البرامج التاريخية على شاشة التليفزيون جيدون ، على الرغم من الظروف التى سأصفها حالاً. داڤيد ستاركى **David Starkey** ، سيمون شاما **Simon Schama** وغيرهما من المقدمين الذين يتمتعون بسلطة هائلة وموهبة فذة قد يكونون أفضل من معظمنا فى مجاراة محترفى التليفزيون . وفى **Ad Familiares** ضرب بول كارتلدچ **Paul Cartledge** ملاحظة متفائلة فى المراسلات الحديثة عن إسهاماته الممتازة فى التليفزيون . وفى أثناء المؤتمر الذى اتخذ هذا الكتاب شكله فيه ، عبّر هو وريتشارد إيڤانز عن رضاهما العريض عن التناول الجارى للتاريخ فى التليفزيون ، وأظن أن التفاؤل فى غير محله . وأوصى كل امرئ بالتشاؤم . إنها الطريقة الوحيدة لتأمين الذات ضد خيبة الأمل. بيد أن ما هو أكثر أهمية، أننى أريد أن أترك رسالة شديدة التشاؤم عن هذا لكى أساعد فى تأكيد وضمان عدم حدوث ما هو أسوأ . ووظيفة هذا التشاؤم أن يُسَلِّح المقاومة ضد الكارثة.

إن معظم ما يقدم من التاريخ على شاشة التليفزيون ما يزال يقدمه مقدمون محترفون أو أصحاب الأصوات العالية الذين يقرءون من نصوص لم يؤثر فيها المؤرخون . ويلعب الأكاديميون أدواراً ضئيلة ، وقد وصموا بأنهم مملون بفعل التقليد الذى جعلهم يجلسون فى حجرات مكاتبهم ، يحملقون بعيداً عن الشاشة، كما لو كانوا غير جديرين بالثقة فى مخاطبة الكاميرات . وإسهاماتهم يتم تحريرها لكى تتناسب مع رواية للماضى كتبها فريق الإنتاج، حسب أجندتهم الخاصة. وعلى الرغم من أن هذا شكل فنى جديد نسبياً، فإن للتليفزيون بالفعل تقاليده وكليشيهاته الخاصة، وطرقه المتعبة والمتحجرة فى حشد الصور وجعل الأفكار جامدة . وتجاربى الخاصة بتقديم التاريخ على شاشة التليفزيون تجعل منى حكيمًا ويقظًا . وعلى الرغم من أننى أطلب عبارات فى عقدى، تعطينى السيطرة الاسمية على المادة التى أقدمها وتحدد أن لا شىء مما أكتبه يمكن أن يتغير بدون إذنى، فإن السيطرة التحريرية تبقى بالضرورة مع المنتجين. ويسوق المخرجون السرديات لأنهم يختارون الصورة، كما أن المحررين المسئولين يهبطون بمستوى المادة ويجعلونها غبية ، لأن معظمهم يبدون وكأنهم يتعاملون مع مشاهديهم بازدراء فكرى. والضغط المطلق الناجم عن العمل مع فريق من المبدعين – يفرض تنازلات ، بعضها لأسباب لاتسهم بشىء فى تماسك البرنامج أو قوته . وعلى المرء أن يذعن لزملائه ، كما هو الحال فى أى مشروع جماعى، ويعنى ذلك أحياناً الإذعان لأحكام ليست مقيدة بنظام المصادر.

واكتشفت عندما كنت أعمل فى سلسلة **Millennium** التليفزيونية ، التى كانت قائمة على أساس أحد كتبى ، وقد كتبت أو ساعدت فى كتابة معظم نصوصها، أن التليفزيون يهتم بشغف بأمور تمويل عمل البرنامج ولا يكاد يهتم إطلاقًا بمحتواه ؛ فالشىء المهم حقًا هو أن تضع طاقم الكاميرا فى المكان الصحيح فى الوقت الصحيح ، فى الطقس المناسب، وفى أماكن خارجية بعينها، مع الشحم المستخدم فى الانتصارات السياسية الصحيحة حيث لا توجد أزمة عملة أو انقلاب سياسى أو مجاعة . وبالمقارنة مع هذه الاعتبارات المهمة، فلا شىء غير ذلك يهم كثيراً . ومع نص ضعيف ، فما يزال معك برنامج . ومع تسويق وتمويل غير متقن، فلا شىء لديك.

وثمة موافقة إشكالية هى أن فرق التليفزيون مليئة بأناس مبدعين بشكل مدهش؛ فقد كان هناك أربعون من المثقفين، فى حالة مسلسل Millenium ، وكل منهم يهدد بإلغاء الآخر . وكان أحد وظائفى فى المسلسل أن أضع قوائم بالصور التى يجب على طواقم الكاميرا أن يصوروها فى المواقع المختلفة. وكانوا يرجعون دائمًا تقريبًا بسلسلة مختلفة تمامًا من الصور ، بسبب تدخلات المشكلات التمويلية والنقل (اللوجستية) أو الحماسة الطارئة . وفى إحدى المناسبات عاد أحد الطواقم بدون تصوير أى شىء فى القائمة التى معهم ، وبدون صور عن الفترة التى كان يفترض أن البرنامج يحكى عنها. وقلت «لماذا فعلتم هذا؟» وأجاب المخرج «من سوء الحظ كانت جميع تلك المساجد التى وضعتها بالقائمة متهدمة وفى حالة رثة» . وأوضحت أننا، بالمجموعة الضخمة من المصورين والميزانية الضخمة، كان يمكن أن نعيد الأمجاد القديمة للمساجد على الشاشة ، ولابد أن هذا كان سيبدو مدهشًا بالنسبة للمشاهدين ، وقال : «نعم ، أعرف ذلك، ولكننى لم أشأ أن أعطى أولئك المفسدين فى الڤيديو جرافيك هذا الرضى» .

على أساس تجارب مثل هذه ، لا أظن أن لدينا العلاقة الصحيحة مع التليفزيون باعتباره وسيطًا قويًا ومؤثرًا بدرجة هائلة . وهذا من أعراض أزمة أكثر عمومية، تفصل المهنة التاريخية عن العامة، ومع ذلك، لماذا يجب على أن أشكو وأتذمر ؟ فإذا كان التاريخ ، حسبما أصررت فيما سبق ، شيئًا يمكن للجميع أن يفعلوه ، إذن يمكن لمخرجى التليفزيون أن يفعلوه ، كما أن مشاهديهم يمكن أن يفعلوه ؛ من يعمدون الموتى ومن نصبوا أنفسهم حراسًا على الموروث يمكنهم أن يقوموا به. فلا ضرورة للمؤرخين. وردى على ذلك هو أنه على الرغم من أى إنسان يمكن أن يفعله ، فإن الناس الذين تمنحهم مهنتهم امتياز العمل طوال الوقت وينالون أجورهم لقاء هذا – أناس لهم امتياز الوصول إلى المصادر – عليهم بالفعل الالتزام بالتوجيه ، بل والقيادة . وفى هذه اللحظة ، أفكر على الأقل، فى أننا نواجه الفرصة الضائعة، وربما، فى أسوأ الأحوال، الإخفاق فى تحمل المسئولية.

ملاحظات وهوامش

(١) E.H. Carr, What is History? (Harmondsworth, 1964), p. 42.

(٢) E. Wolf, Europe and the People without History (London, 1982).

(٣) H.R. Trevor-Roper, The Rise of Christian Europe (London, 1965), p. 9.

(٤) F. Fernandez-Armesto, Truth: A History (London, 1997); R.J. Evans, In Defence of History (London, 1997).

(٥) F. Fernandez-Armesto, 'The Stranger-Effect in Early Modern Asia', Itinerario, vol. xxiv, no. 2 (2000), pp. 84-103.

(٦) F. Fernandez-Armesto, Continuity and Discontinuity in the Sixteenth-Century New World. The James Ford Bell Lectures, no. 39 (Minneapolis, 2001), p. 18.

(٧) L. Cavalli-Sforza, History and the Geography of Human Genes (Princeton, 1994).

(٨) F. Fernandez-Armesto, Civilizations: Culture, Ambition and the Transformation of Nature (New York, 2001), p. 4.

(٩) Carr, What is History?, pp. 24, 97.

(١٠) Evans, In Defence of History, pp. 76-8.

(١١) M. Halbwachs, 'The Social Frameworks of Memory', On Collective Memory. (Chicago, 1992), pp. 96-124. See also P. Burke, 'History as Social Memory', in T. Butler (ed.), Memory: History, Culture and the Mind (Oxford, 1989), pp.97-113.

(١٢) A. Baddeley, The Psychology of Memory (London, 1992). See also D. Rubin (ed.), Autobiographical Memory (Cambridge, 1986); J. Prager, Presenting the Past: Psychoanalysis and the Sociology of Misremembering (Cambridge, MA, 1998).

(١٣) J. Goody, 'Memory in Oral Tradition', in The Power of the Written Tradition (Washington, DC, 2000), pp. 26-46.

(١٤) D.L. Schachter (ed.), Memory Distortion: How Minds, Brains and Societies Recontruct the Past (Cambridge, MA, 1995), p. x.

(١٥) Prager, Presenting the Past, p. 185; Schachter, Memory Distortion, pp. 17-18.

(١٦) Rita Bronowski, personal communication.

المشاركون فى سطور :

داڤيد كنادين : مدير مركز البحث التاريخى بجامعة لندن، عاد إلى إنجلترا من عمله أستاذًا لكرسى التاريخ بجامعة كولومبيا. ومن بين كتبه العديدة :

The Pleasures of the Past, History in Our Time, The Rise and Fall of Class in Britain. Or : How the British Saw their Empire?

وهو يحرر مجلتى :

Historical Research and Reviews in Hisotry.

ريتشارد إيڤانز : أستاذ التاريخ الحديث بجامعة كمبردج وزميل كلية جونڤيل وكايوس **Gonville and Caius College** . وهو مؤلف عشرة كتب منها: **In Defence of History**

وصدرت له مؤخرًا دراسة مثيرة للجدل عن محاكمة إيرفنج هى :

Telling Lies about Hitler.

بول كارتلدج : أستاذ التاريخ القديم بجامعة كمبردج ، وزميل كلير كوليج ، وهو مؤلف ثلاثة كتب عن إسبرطة وكتاب عن أريستوفانيس، وقد حرر ثلاث مجموعات من المقالات عن تاريخ اليونان وتاريخ أثينا، وأحدث كتبه :

The Greeks, Democritus and Atomistic Politics, The Greeks: Crucible of Civilization.

وهو مجلد مصاحب لمسلسل تليفزيونى كبير بالولايات المتحدة ، وكان هو محرر :

Cambridge Illustrated History of Ancient Greece.

كما ساعد فى تحرير سلسلة : **Key Themes in Ancient History**

و **Classical Inter / Faces**

أنابيل بريت : زميلة كلية جونفيل وكايوس بكمبردج . وتتضمن منشوراتها :

Liberty, Right and Nature

وتحرير مجموعة مقالات عن : The Power of Emprors and Popes

ليندا كولى : أستاذ بحث فى التاريخ فى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية . وكانت قبل ذلك أستاذ التاريخ بجامعة ييل Yale، كما قامت بالتدريس أيضاً فى جامعة كمبردج . ومن بين منشوراتها العديدة ، كتابها الأفضل مبيعاً :

Britons : Forging a Nation , 1707-1837 .

وقد كسب جائزة Wolfson

سوزان بدرسن : أستاذة التاريخ بجامعة هارفارد، وتتضمن منشوراتها :

Family Policy and the Welfare : Britain and France , 1914- 45; After the Victorians : Private Conscience and Public Duty in Modern Britain.

والذى حرره بيتر ماندلر .

أولوين هيوفتون : أستاذ بحث فى جامعة أوكسفورد وزميلة كلية ميرتون . وهى أيضاً زميلة الأكاديمية البريطانية والجمعية التاريخية الملكية . وتتضمن منشوراتها الكثيرة :

Europe : Privilege and Protest 1730- 1789 ; Women and the Limits of Citizenship in the French Revolution and The Prospect Before Her : A History of Women in Western Europe, 1: 1500-1800 .

مارى روبين : أستاذ التاريخ الأوربى ومدير البحث فى كوين مارى، جامعة لندن، وقد تولت من قبل مناصب أكاديمية فى كمبردج ، وبرينستون وأوكسفورد. ومن بين منشوراتها :

Corpus Christi : Eucharist in Late Medieval Culture and Gentile Tales,

وساعدت فى تحرير Framing Medieval Bodies .

وتكتب حالياً المجلد الخاص بالعصور الوسطى المتأخرة فى :

The New Penguin History of Britain.

أليس كيسلر هاريس : أستاذ التاريخ بجامعة كولومبيا . وقد نشرت الكثير حول تاريخ عمل النساء، ومن بينها كانت كتبها الأربعة الأخير :

In Pursuit of Equity : How Gender Shaped American Economic Citizenship.

وهى محررة مساعدة لكتاب :

Protecting Women : Labor Legislation in Europe, Australia and the United States, 1880-1920 (1955).

U.S. History as Women's History (1995) .

فليب فرنانديز – آرمستو : أستاذ التاريخ فى كوين مارى، جامعة لندن. ومن بين كتبه الكثيرة :

Civilzation : Culture , Ambition and the Transformation of Nature , Millennium : A History of the last Thousand Years ; Truth : A History and a Guide for the Perplexed.

المترجم فى سطور

الدكتور قاسم عبده قاسم

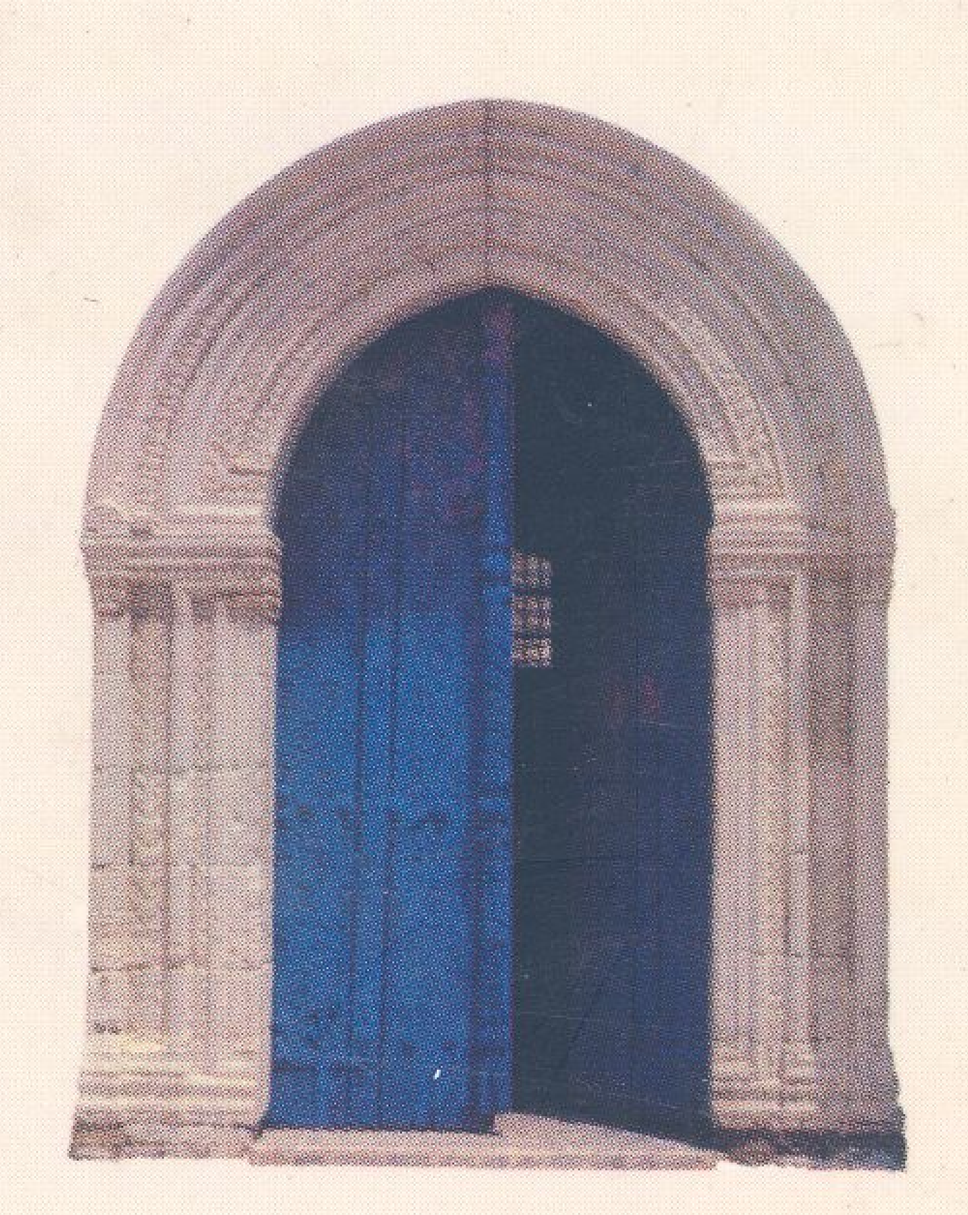
- أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق .

- له عدة مؤلفات فى تاريخ عصر سلاطين المماليك، والحروب الصليبية، كما ترجم عدداً من الكتب المتخصصة فى تاريخ المماليك، وعصر الحروب الصليبية، وتاريخ العصور الوسطى بشكل عام .

التصحيح اللغوى : هيثم الحاج علـى
الإشــراف الفــنـى : حـسن كـامــل







منذ أصدر" كار" كتابه الذى يحمل عنوان "ما التاريخ؟" فى ستينيات القرن الماضى، حدثت تطورات مهمة ومثيرة فى مجال الدراسات التاريخية من حيث منهج البحث وأساليب الكتابة التاريخية، ومن حيث المنظور والرؤية، ومن حيث تعدد فروع الدراسات التاريخية.

وقد صدر هذا الكتاب، الذى تمت ترجمته إلى اللغة العربية للمرة الأولى فى المشروع القومى للترجمة، يحمل الدراسات التى ألقيت فى ندوة أقيمت بمناسبة مرور أربعين سنة على صدور كتاب كار، وقد طرحت هذه الندوة التى يحمل الكتاب أعمالها السؤال نفسه، ولكن الآن "ما التاريخ ...الآن ؟"

وقد أسهم فى هذا الكتاب عدد من الباحثين الذين طرحوا السؤال على فروع الدراسات التاريخية المختلفة.

الكتاب مهم، وجدير بالقراءة... وهو إضافة حقيقية للمعرفة التاريخية.



تصميم : محمد بغدادى